حسناء بحر كورتيز

بيتر بينشلي

- المؤلف: بيتر بينشلي
- العنوان : حسناء بحر كورتيز
- ترجمة : عبد العزيز مصطفى
- طبعة آفاق الأولى 2019
- تصميم الغلاف: حسام السواح
- مستشار النشر: سوسن بشير
- المدير العام: مصطفى الشيخ

- Author : Peter Benchly
- Title: The Girl from the sea of Cortez
- Translated by: Abdlel-Aziz Moustafa
- Afaq's first edition: 2019
- Cover Design by: Hossam Al Sawah
- Publishing Consultant: Sawsan Bashier
- General Manager: Mostafa Alsheikh

رقم الإيداع:
٢٠١٨ / ١٥٩٠٤
الترقيم الدولي : ISBN
978 - 977-765 - 168 - 4

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

بيتر بينشلي

حسناء بحر كورتيز

رواية

ترجمة

عبد العزيز مصطفى

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشؤون الفنية

بينشلي، بيتر.

بيتر بينشلي : حسناء بحر كورتيز – ترجمة: عبد العزيز مصطفى

ط1 القاهرة – دار آفاق للنشر والتوزيع – 2019

272 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 15904 / 2018

الترقيم الدولي 4 – 168 – 765 – 977 – 978

1 – الأدباء (روايات)

2 – بينشلي، بيتر

قبل أن تقرأ
عالم بيتر بينشلي

الكتابة لدى الأدباء الذين عشقوا مياه البحر الزرقاء.. أشبه بالغوص في الأعماق من أجل اكتشاف أسرار الكون السفلية.

والكاتب الأمريكي بيتر بينشلي هو أحد الذين كتبوا رواياتهم بماء البحر.. فراح يسبح فوق السطح تارة، وفي الأعماق مرات ومرات.

واستطاع بينشلي أن يتميز في رواياته العديدة عن البحر، بميزات خاصة قل أن تواجدت في كتابات العديد من الذين عشقوا الكتابة عن البحر.

مع انتصاف القرن العشرين، توالت الاكتشافات الجديدة وتفتحت آفاق لم تُطرق من قبل، فانطلق العلم يغزو الفضاء ويغوص في أعماق البحار، واكتسبت المعرفة البشرية كمًّا هائلًا من مستجدات لم يكن لها من رصيد، نظمت العدسات صورًا غريبة على العين الإنسانية لكواكب ونجوم بعيدة وساحقة البُعد -تضاريس ومعالم ومسطحات رآها الإنسان للمرة الأولى في تاريخه- كما نظمت مشاهد من عالم الأعماق، وما يضم من حيوان ونبات وألوان، ألهبت تلك المعارف

الوافدة خيالًا جامحًا، واستثارت فضولًا جارفًا، وانطلق التعطش المطلق يبحث عن مزيد.

ولئن ظل عالم الفضاء سرًّا منغلقًا بسبب الأبعاد السحيقة لأجرامه، والمتطلبات الهائلة التي تلزم لرحلات الاستكشاف، فإن البحر باح بالكثير من مكنوناته وخفاياه، ولأنه جزء من حياة الإنسان اليومية، فقد فتح أبوابه على مصاريعها للجميع ينهلون من أسراره ويستقون من خباياه، وساهم الهواة في الجهد المبذول، فقامت نوادي الغوص في أنحاء العالم، وانتشرت رياضات الإبحار في قوارب المتعة واليخوت، ونظمت مسابقات الصيد. في تلك الفترة الزمنية، ظهر الكاتب «بيتر بينشلي».

كان طبيعيًّا أن يتناول الأدب تلك الفتوحات في أعماله، بصفتها أنشطة امتدت إليها يد البشرية، وبقدر ما استطاع الإنسان التغلغل في استكشافاته، بقدر ما انعكست صورتها في أدبه -والقصة على وجه التحديد- لذا نرى قصص الفضاء تنحو إلى الخيال العلمي لتعوض ما قصر جهد العلم عن إماطته، بينما تنقل روايات البحر صورًا أقرب إلى الواقع، وتلتقط نماذج لمخلوقات حقيقية تعيش في عالم الأعماق، فتتناول عاداتها الإقليمية وهجراتها ونزاعاتها وسلاسلها الغذائية وصراعاتها من أجل البقاء.

ربما أضاف الكاتب لمسة تضفي على عمله الإثارة والتشويق، وربما زعم لتلك الحيوانات ما ليس لها، وادعى لها شكلًا من أشكال المشاعر، بيد أن ذلك كان دائمًا حال القصة، ومنحى من تناولوا البحر

بأقلامهم، وظهر حتى في كلاسيكيات الأدب، ولعل قصة «موبي دك» مثال واضح على ذلك، فبناء القصة يقوم على ما جاء بالكتب المقدسة من حق الإنسان في الصيد دون أن يحمل ضغينة لصيده، لكننا نلمس الحقد المسموم الذي يبادله الحوت للكابتن «أهاب» دون أن يقلل ذلك من روعة العمل الأدبي.

الزمن والموهبة

ومن هنا كان النجاح الباهر لبيتر بينشلي، الذي يعد من ألمع الكتاب المعاصرين، ولد بينشلي في عائلة من الكتاب. اشتهر أبوه «ناتانيال» بالقصص القصيرة الرائعة التي نشرتها له جريدة النيويوركر، وكان جده روبرت أحد عباقرة القصص الفكاهي في العشرينيات من هذا القرن، لذا لم يكن غريبًا أن يلتقط الحفيد القلم، ويمضي في نفس الطريق الذي سلكه من كان لهم الأثر في حياته، غير أن الشاب الذي تخرج من «فارفارد» وسافر حول العالم لمدة سنة، عاد من رحلته الطويلة بكتابه الأول «الزمن وتذكرة السفر» كتاب تسجيلي نشر عام ١٩٦٤، ولا يوحي بموهبة قصصية، عمل بعدها مراسلًا «للواشنطن بوست» ثم محررًا في «النيوزويك- باب الإذاعة والتليفزيون»، ثم عُين كاتبًا للخطب في إدارة الرئيس «جونسون»، تحول بعدها إلى صحفي حر -بالقطعة- وكُلف بمهام متنوعة، منها التعليق التليفزيوني بشبكة «نيوزويك» وغيرها.

وفي أوائل السبعينيات -فجأة- خرج على العالم بقصته «الفكَّان»

والتي عُرفت باسم «الفك المفترس»، ولم تمض شهور قليلة على ظهورها حتى تجسدت إلى فيلم سينمائي لاقى نجاحًا مدويًا.

يقول «بينشلي» إنه استقى معلوماته عن القرش خلال فترات الصيف التي قضاها في صباه بشاطئ «ناناكيت» حيث تكثر القروش.

نجح الرجل في اقتحام مجال لم يسبقه إليه أحد.. فالذين تناولوا البحر بأقلامهم فعلوا ذلك مرورًا عابرًا أو خيالًا جامحًا، دون الغوص في أعماقه، صوروا البحر أعماقًا من آلاف الفراسخ أو مقرًّا لوحوش خرافية، أو عالمًا قاسيًا رهيبًا يزيده المجهول غموضًا، حتى من نحا منهم منحى واقعيًّا اقتصرت رؤيتهم على لآلئه وأسماكه وإسفنجه، وجاءت الكتابات أنسجة من الخيال بأكثر منها صورًا للحقيقة، وحتى «هيمنجواي» ذهب في رحلته إلى البحر، ليغوص في أعماق الصياد العجوز الذي صبر طويلًا على حلمه مع البحر، ولم يمس البحر إلا بخدش بسيط.

في «الفكّان» صوَّر «بينشلي» القرش الذي وجد في أحد شواطئ الاستحمام موطنًا لغذائه، وافترض -هو أيضًا- أو وحوش البحر قادرة على حمل الضغينة للإنسان، ولعل الفكرة لا تبعد عن الواقع، فالكثير من حيوانات البر والبحر -تحت ظروف عديدة- تخشى الإنسان وتمقته وتهاجمه، وبعضها يجد فيه طعامًا سائغًا، ولا ريب أن القارئ يذكر ما نُشر من سنوات عن هجوم القروش للشواطئ الأسترالية، والتهام رئيس وزرائها، بل وصور التليفزيون الأسترالي مغامرة بعض الشبان بالغوص في قفص حديدي، في منطقة لا تبعد عن الشاطئ،

هاجمت القروش الشاب الذي غادر القفص ومزقت ساقه، ثم استدارت تهاجم من بالقفص، وقد عرض التليفزيون المصري ذلك الفيلم من فترة.

وفي مناطق الكاريبي والساحل الجنوبي الشرقي للولايات المتحدة، توجد فصائل القرش المعروفة بعدوانيتها وعدائها للبشر، وأنها تقتل للقتل، دون ما حاجة للطعام، بعض الفصائل الأخرى من فصائل القرش، والتي تبلغ الثلاثمائة، تتصف بالسلبية تجاه الإنسان، إلا نها تتحول إلى الضراوة عند الإحساس بالخطر، أو عند استشعار رائحة الدم، وثمة واقعة معروفة حدثت في إحدى مسابقات الصيد بالغردقة، التقطت إحدى أسماك القرش الطعم من سنارة متسابق، وعجزت عن التخلص منها، فاستدارت تهاجم القارب الآلي الكبير بضراوة، وكادت تغرقه، واضطر المتسابقون إلى الخروج على قواعد المسابقة، فألقوا بعبوات متفجرة على السمكة وقتلوها، ثم عادوا بها إلى قاعدة المسابقة، تبين أن سمكة القرش كانت أنثى على وشك وضع صغارها، وأذكر أن الصيادين على الشاطئ أخرجوا من جوفها ما يزيد على الثلاثين من الصغار.

إذن كان «لبينشلي» أساس واقعي لقصته، كان الكتاب فتحًا روائيًّا مثيرًا، على حد تعبير الناقد الأدبي «جون باركهام»، وقصة مذهلة كما وصفتها «شيكاغو تريبيون».

القراصنة وكنوز البحر

خلال فترة السيادة الإسبانية على البحار، شهدت القارة الأمريكية عددًا لا يُحصى من المعارك البحرية على السواحل الشرقية لأمريكا الوسطى والجنوبية، دارت تلك المعارك بين القراصنة والسفن التجارية المسلحة، والتي تنقل الركاب والبضائع، كذلك دارت بين السفن الحربية لدول عديدة، والقراصنة، ثم بين السفن الحربية التابعة لدولة ما، وتلك التابعة لأخرى معادية، والنتيجة غرق عدد لا يُحصى من تلك السفن، بحمولاتها من البضائع والكنوز والتحف والنفائس، فتبعثرت أشلاء تلك السفن على امتداد السواحل الشرقية للأمريكتين.

وفي الزمن الحديث، شاعت عمليات الغوص بحثًا عن الأشياء الثمينة والتاريخية من بين أنقاض تلك السفن، وساهم الهواة في تلك العمليات، وانتشلوا الكثير من العملات والتحف والأواني والمتعلقات الشخصية، ورغم أن الدول التي تقع تلك الحطامات في مياهها الإقليمية تحظر الخروج بتلك النفائس، إلا أن الغواص الذي يعثر عليها ينال نسبة مجزية من قيمتها، وما زال الأمل يراود الكثيرين في العثور على ثروة أو كنز مدفون في أعماق يمكن إدراكها، وكثيرًا ما أثبتت الأشياء المنتشلة قيمًا تاريخية لا تقدر بمال، وأحيانًا ما ساعدت في تصحيح مسار التاريخ نفسه.

قادت تلك الفكرة «بينشلي» إلى قصته التالية «الأعماق»، تناولت القصة البحر من تلك الزاوية، وابتعد -إلى حد ما- عن حيواناته. وحتى لا يكرر «بينشلي» أفكار كنوز ما تحت الماء، كما صورتها أقلام من سبقوه، فقد أعطى الكنز مفهومًا آخر، مفهومًا يحمل آثام الزمن الحاضر ومفاسده وأمراضه، جعل الكنز هذه المرة شحنة طبية غرقت في سفينتها خلال الحرب العالمية الثانية، ومن بينها عشرات الآلاف من «أمبولات المورفين» المخدر، وأصبح الصراع هذه المرة على كنز دنس، يمكن تحويله إلى ما قيمته الملايين من المواد المخدرة، لتباع في أزقة نيويورك ومواخيرها.

بيد أن بينشلي ما كان ليدع الفرصة تمر دون تقديم أحد أبطاله.

ثم اختار بينشلي لقصته الجديدة بطلًا جديدًا، بمواصفات جديدة.

وقبل أن يفتح الستار، تجدر الإشارة إلى ظاهرة تفسر فكرة بينشلي.

منذ نيف وعشرين سنة حدثت واقعة أظن أبطالها ما زالوا أحياء يرزقون.

أحد المهندسين العاملين في البحر الأحمر سقط في مياه خليج السويس، والبحر الأحمر غني عن التعريف، يعج بالقروش البحرية من كل الفصائل، مياهه الدافئة، ونسبة ملوحته العالية، والشعاب المرجانية التي تشغل أكثر من أربعين بالمائة من مساحته، كلها تشكل بيئة مثالية تتحدد فيها حركة الملاحة إلى أقل حد، بل وتنعدم في أجزاء كثيرة.

إذن فقد سقط الرجل في الماء، وأدرك أنه هالك لا محالة، خصوصًا وهو لا يعرف السباحة، وفوجئ الرجل بأسماك الدرافيل تتجمع حوله، وتحمله إلى الشاطئ حيث تركته.

الواقعة نشرتها الصحف في حينها، وقدمت الإذاعة المهندس المذكور وزملائه.

البشر لهم مفهوم للخير، وإحساس به، وتعبير عنه.

ماذا نسمي ما حدث من حيوان لا يفهم ولا يشعر ولا يعبر؟

ماذا نسمي ما حدث في الهند عندما تبنت الذئاب طفلًا وليدًا، وأرضعته، وعاش بينها؟ الخير له أشكال عديدة غير الشكل البشري، ذلك واضح في حوادث عديدة، ولست أظن الأسماك قد ارتقت لتأتي بأفعال تتفق مع مفاهيم البشر.

غير أنه هناك وموجود بالدليل.

تلك مقدمة لازمة قبل الحديث عن «فتاة بحر كورتيز».

غاص بينشلي بفكره في أعماق بكر «كورتيز» ورشح لبطولة قصته «ألمانتا» أو حدأة البحر.

واختار لخلفية قصته سلالة مسالمة من القروش -رأس المطرقة وحشد عددًا ضخمًا من الكائنات البحرية- «كومبارس» ابتداء من الكائنات الدقيقة «البلانكتون» حتى الوحوش الضخمة الجبارة.

أسبغ «بينشلي» على بطلته «حدأة البحر» صفة الوفاء والعرفان، ونظم رائعته التالية على ذلك النسيج، وكاد القارئ أن يمس الخير فيما

أتت به الحداة بأكثر مما رآه بين البشر.

كذلك درس «بينشلي» جيولوجية الأعماق، فرسم صورة دقيقة لنشأة بحر «كورتيز».

ولعلها معلومة جديدة للقارئ غير المتخصص أن بحر كورتيز هو المعروف حاليًا باسم خليج كاليفورنيا، ونشأ عن تصدع في الأرض الأم على ساحل كاليفورنيا، وتمزقت الأرض عن شق هائل اتصل بالمحيط الهادي ليتكون الخليج الضخم.

وهو نفس ما يقوله العلماء عن تكون خليج العقبة.

وفي قصة «الجزيرة» سلك اتجاهًا جديدًا، بَعُدَ فيه عن الأعماق.

لقد زار مناطق الكاريبي ومجموعة الجزر المتناثرة في مواجهة السواحل الجنوبية للولايات المتحدة، التقى بالكثيرين من أهالي الجزر الذين أكدوا أنهم من سلالات القراصنة، وتردد الزعم كثيرًا، حتى أشار إلى ظروف استيطان تلك الجزر.

في أواخر القرن الثامن عشر، التقت أفكار الأوروبيين على تجريم أنشطة القراصنة، وضرورة القضاء عليهم قضاءً مبرمًا، فهم سلالة من البشر فقدت انتماءاتها، ولم تعد لها أوطان.

ومن ثم أصبح ولاؤها ليومها ولراية تحمل الجمجمة والعظمتين، ولا تفرق في غاراتها بين سفينة وأخرى، كل السفن بالنسبة لها تمثل نهبًا مباحًا، وخرجت أساطيل السفن على اختلاف جنسياتها تطارد القراصنة في كل بحار العالم.

انتهى عصر القراصنة الذهبي، ولم تعد الدول تخطب ودهم، ونفذت أحكام الإعدام فيمن لم يغرق منهم مع سفينته، ولم يعد لهم سوى هجر سفنهم، والاستيطان باليابسة، حيث تحولوا إلى صيد الأبقار البرية، والحياة على شواء لحمها، وهكذا اكتسبوا اسمهم الجديد «البوكانير».

والجدير بالقول إن روايته صدرت مدعمة بآراء تاريخية لكُتَّاب ثقات، حتى لتبدو قطعة من التاريخ، وارتبطت أحداثها ارتباطًا وثيقًا بالتسلسل الطبيعي لما تحولت إليه تلك الفئة.

رسم بينشلي الشخصيات بدقة متناهية، حتى لتكاد تبرز في صفحات الكتاب إلى البعد الثالث للحياة، ولم يدع تفصيلًا مهما دق، حتى يوشك المرء أن يلمس شخوصها، ويكون شاهدًا على أحداثها.

وكعادته قدم مخلوقًا آخر من الأحياء البحرية، قنديل البحر المحارب، وهو لا يختلف عن القنديل الذي رآه القارئ على شواطئ البحر طافيًا قرب سطح الماء، سوى أن القنديل المحارب تصل مساحة انتشاره إلى المتر المربع، وأطرافه التي تفرز مادة لاسعة كاوية تسبب التهابات أليمة، وهو سبب إطلاق اسم المحارب عليه، والواقع أن الترجمة الصحيحة لاسمه هو السفينة الحربية.

المترجم

- ١ -

استلقت الفتاة طافية على سطح الماء، تجيل بصرها من خلال قناع الغطس.

كانت خائفة، ودهشت لخوفها، خوف حقيقي عميق يصل إلى حد الرعب. ولعدة سنوات ما كان لشيء في البحر أن يخيفها.

لكنها أيضًا -طوال حياتها- لم تواجه حيوانًا يهددها بتلك العدوانية والعنف. هاجمتها حيوانات من قبل، ودارت حولها، بعضها جائع وبعضها الآخر فضولي. بيد أنها دائمًا ما كانت تبدي من القوة والثقة ما يرد تلك الحيوانات لطريقها بحثًا عن فريسة أنسب.

غير أن ذلك الحيوان لم يبد نية عضها أو أكلها، خُيِّل إليها أنما أراد فقط إيذاءها أو طعنها، لقد ظهر بسرعة لا تصدق. للحظة كانت الفتاة تحملق خلال غمام أزرق خال، واللحظة التالية تركز بصرها على منقار طويل مسنن وحاد، يرتجف على بعد ثلاثة أقدام من صدرها، المنقار يبرز من قاعدة أعرض، على جانبيها عينان في حجم القواقع الصغيرة، سوداوان في برودة الليل.

وعلى عكس الأسماك الأخرى ذات الامتداد السيفي، لم تكن له زعنفة ظهرية، بدلًا منها امتد شراع يغطي سلسلته الظهرية، والشراع إما متهدل على ظهره فتصعب رؤيته، أو منتصب في خيلاء الطاووس.

إذا ما استثيرت السمكة -مثلما كانت عندئذ- نبض الشراع ارتفاعًا وهبوطًا، وارتفاعًا وهبوطًا، مثل رأس الأفعى تنوم أحد القوارض.

ذيلها مسنن كالمنجل، انتفض مرة فسرت رعدة على امتداد الجسد إلى المنقار، الذي ارتج بشدة أفزعت الفتاة.

لم تدر ماذا تفعل؟ وأي سبيل تتخذ؟

التراجع ليس الحل، فما كان عدوان الحيوان دفاعًا عن منطقته. الحيوان لا إقليمي، يجوب أعمار البحار ولا يعرف للاستقرار معنى.

وليس من الحكمة أن تأتي بحركة مفاجئة، السمكة في قمة الثقة من تفوقها سرعة وقوة وخفة حركة، وإلا لما اقتربت من الفتاة تكاد تلامسها.

وما من أمل في أن تهشها بعيدًا.

والبقاء حيث هي لا يضمن أمانًا. الواضح أن وجودها يثير السمكة، وها هي تهز رأسها وتندفع، ورمحها يشق الماء حتى كادت الفتاة تحس بعنفه على صدرها.

انفرجت زعانفها الصدرية النحيلة، وتقوس ظهرها، وعاد ذيلها ينتفض، وتقلص جسدها كالزنبرك المضغوط، ينفرج بإشارة انطلاق من داخلها ليخترق الرمح جسد الفتاة.

لماذا؟

ليس بدافع الشر للشر. علمها والدها ألا وجود للغل في عالم الحيوان، فالحيوان قد يجوع أو يغضب أو يخاف، ربما تألم أو مرض. كثيرًا ما يتخذ موقفًا دفاعيًّا أو وقائيًّا أو غيورًا، وأحيانًا ما يكون طائشًا أو لعوبًا.

في أي من حالاته ربما انقلب وحشيًّا أو عنيفًا، لكنه -أبدًا- لا يكون شريرًا.

ماذا إذن؟ ماذا يريد؟

عادت الرأس ترتج، والرمح معها يشق الماء على جانبيه.

تساءلت في داخلها إن كان بوسعها الوصول للقارب قبل أن تشرع السمكة هجومًا؟

بدأت تحرك ذراعيها وقدميها، ترجو لو أنها تحركت بوصة ببوصة نحو قاربها.

ولكن كم يبعد القارب؟

أدارت رأسها نصف التفاتة، واختلست نظرة من فوق كتفها فرأت القارب، ثم استدارت على الفور تواجه السمكة.

لم تشعر الفتاة بشيء، ولا سمعت شيئًا، كل ما كان حولها عندئذ امتداد أزرق بلا نهاية.

* * *

- ٢ -

لم تكن الكهرباء قد دخلت للجزيرة بعد، ومصابيح الكيروسين تشتعل بدخان زيتي كثيف، سبّب أمراضًا لبعض السكان، لذا فضل الكهل والفتاة الجلوس في غرفة مظلمة، بأن غطى النوافذ بالقماش. أشعة شمس بعد الظهيرة تغمر الغرفة بألوان حادة التناقض فتؤلم عينيه وتربكه، لقد غطت العتامة عينيه، فأصبحت ومضات الضوء الوهاج المفاجئة تسبب ما يشبه الانفجارات في رأسه.

الرجل العجوز هو «فرانسيسكو»، لكن الجميع أطلق عليه «فيجو العجوز»، بما فيهم الأطفال الذين كان الأنسب لهم تسميته بالجد. فاسم «فيجو العجوز» كان تكريمًا يحمل مدلولًا وقورًا، مثل الجنرال أو صاحب السعادة، فالبقاء حتى الكهولة هو بمثابة إنجاز كبير.

والفتاة تُدعى «بالوما» -الحمامة- الطائر الذي يرسل هديله في الفجر تقدمه لأذان الديكة.

كانت في السادسة عشرة من عمرها.

قالت: «لست أفهم يا «فيجو»، لم يحدث لي من قبل شيء كهذا».

– لأنك لم تلتق بحيوان من قبل. الآن ها أنت قد واجهته، كان ذلك محتمًا.

ترددت: «اسمح لي، دائمًا ما كان أبي يقول إنه ما من حيوان شرير».

بحث «فيجو» عن كلمات مهذبة يصف بها زوج ابنته، بدلًا من تلك التي اندفعت لذهنه.

– أبوك.. «جوييم» كان رجلًا... غريبًا، بالطبع هناك حيوانات شريرة، مثلما يوجد أناس أشرار. حمدًا لله أن سمكة «الشراع» التي التقيتها اليوم لم تكن شريرة حقًّا، وإلا لاخترقت جسدك برمحها. ذلك ما يحدث غالبًا، فمنذ عدة سنوات.. قبل مولدك...

قاطعت «بالوما» ذكرياته: «لست أفهم كيف يخلق الله حيوانًا شريرًا؟ غير معقول!».

زم «فيجو» شفتيه، وفهمت «بالوما» علامة الاستياء. كان راوية بارعًا، إحدى المتع التي بقيت له في الحياة.

– من قال إنك تفهمين كل شيء؟ محاولة التوصل لطبائع خلق الله هو مضيعة للوقت.

حاولت «بالوما» التراجع: «لا أعني...».

– ما هو الوجود؟ أهم عناصره وجود مخلوقات طيبة وأخرى شريرة.

توقف لبرهة ثم استطرد: «قيل لي إنك تعترضين على الصيادين!».

- كلا مجرد أن...

- يقولون إنك تصرخين فيهم، وتأتين بأفعال بلهاء.

- ليظنوا ما شاءوا، كل ما فعلته أن سألت «جو» و«أنديو» والآخرين أن ينتبهوا. إنهم يصيدون كل شيء، ويعودون بأسماك لا حاجة لهم بها. لا يقتلون للطعام وحده كما فهمت، بطريقتهم في الصيد لن يتبقى شيء في البحر قريبًا.

- لا أوافقك، وجد البحر للأبد. عليك إدراك أن الإنسان له أن يصيد ما شاء ولأي سبب كان، أسبابه تخصه وحده. مثلًا، من البديهي أن لبعض الحيوانات نفع حية أو ميتة، مثل اليونيتو والمرجان والمكرونة. حية: هي طعام للحيوانات الأخرى، وميتة: غذاء للإنسان وأيضًا للحيوان؛ الحيوان ذي الفائدة. بعض الحيوانات شريرة، مثل «ثعبان البحر» و«السمكة الحجرية» و«العقرب» كل وظيفتها أن تسبب الألم والموت. ثم هناك حيوانات أخرى تجمع بين النفع والضرر، مثل «البراكودا»، يوم ما هي طعام فاخر للإنسان، واليوم التالي سم له. كذلك «القروش» تعني لنا الطعام والمال، لكنها بين الحين والآخر تقتل الإنسان.

- وما رأيك في سمكة الملاك؟ ما نفعها أو ضررها؟ أو السمكة الصندوق، لقد أمسك «أنديو» إحداها أمس الأول، وكأنما اصطاد سمكة «سيف» لماذا؟ إنها لا تُباع ولا تؤكل.

- الصيادون يجدون رزقهم في البحر، لذا يرتبطون به وبمخلوقاته، أحيانًا ما تكون وسيلة فهم تلك المخلوقات هي اصطيادها وقتلها.

لم تشأ «بالوما» إغضاب جدها أو الإساءة إليه، فتوقفت عن الجدل. عقائده لن تتغير.

اكتفت بالقول: «حسنًا.. أرجو ألا يريد أحد «فهمي» لهذا الحد.»

وفي الخارج تعلقت عينا «بالوما» بالغروب، شمس مترددة فوق الأفق، والمياه الرمادية على وشك احتوائها. أسرعت إلى صخرتها وهي مسطح ضيق من الحجر، بارز فوق الطرف الغربي للجزيرة. لقد اعتادت الحضور كل يوم في الوقت نفسه، وأحبت كلًّا من المكان والزمان. هنالك كانت تستشعر الهدوء والدعة وهي تطل على الطبيعة والحياة.

تجمعت بعض السحب على الشمس، فصبغتها بلونها الأرجواني، لكن الأفق ظل صافيًا وحادًّا كالفصل تحت كرة النار الحمراء تهبط على مهل، فيخمد البحر كل ما يصله منها.

لا بد أن الليلة موعد «الوميض الأخضر». أسندت رأسها إلى كفيها، وجاهدت ألا تطرف عيناها الثابتتين على الشمس الغاربة، ربما تعذرت رؤية «الوميض الأخضر»، فلا بد من أمسية صافية أقرب للبرودة، فلا تتصاعد موجات الحرارة فوق الماء. والأفق محدد تمامًا، دون شائبة من شعيرات السحاب. وبالطبع يجب أن تظل منتبهة دون أن تطرف عيناها، فلا يدوم «الوميض الأخضر» بأكثر من جزء يسير من الثانية، مع هبوط آخر حافة الشمس تحت الأفق. كثيرًا ما ضاع منها، عندما طرف جفناها. وطوال حياتها لم تره سوى مرتين، الأولى من زمن بعيد عندما أخذ والدها بيدها إلى ذلك المكان المميز.

مس قاع الشمس خط الأفق، ولربما توقعت «بالوما» سماع طشيش الماء يطفئ النار، أو رؤية سحابة بخار تندفع من البحر، لكن

الشمس ظلت تنزلق من السماء بأسرع من ذي قبل، هادئة صامتة. كتمت أنفاسها وفتحت عينيها لأقصاها، واختفى آخر حدود الشمس.

وعندما خطر «لبالوما» ألا «وميضًا أخضر» لتلك الليلة، إذا به هناك، إشعاع ساطع من الضوء الأخضر المتوهج، اختفى بسرعة ليصبح ذكرى، في لحظة أن كان يقينًا مرئيًّا.

لبثت «بالوما» ترقب السماء برهة أخرى، تستمتع بتغييرات متلاحقة تصحب بداية اليوم وخاتمته، ولقد خبا الوميض الأخضر هنالك يتبع الشمس إلى أجزاء أخرى من العالم.

بات الظلام حينئذ ينسدل أستارًا سريعة على أرجاء السماء فوقها، سرعان ما تخللتها النجوم كالنقاط المضيئة، ولم يعد هناك سوى أثر شاحب من اللون الأرجواني يلامس السحاب البعيد.

غمرها الهدوء والسعادة، المفروض أن «الوميض الأخضر» علامة فأل سعيد. ورغم أنها أساسًا لا تؤمن بالفأل، فالمؤكد أن رؤيته أفضل من عدمها.

نهضت على ركبتيها وهمَّت بمغادرة الصخرة عندما استرعت انتباهها حركة خفيفة جعلتها تعود ببصرها إلى البحر، ما رأته جعلها تتجمد في مكانها، تحملق بأنفاس مكبوتة.

سمكة «سيف» بالغة الضخامة ارتفعت فوق الماء على صفحة سماء زرقاء داكنة، تتلوى في نشوة غامرة، نصل سيفها يضرب الهواء، وذيلها تقوس كالمنجل، ثم في حركة رشيقة البطء هوى جسدها الضخم يلطم سطح الماء.

مرت ثانية كاملة قبل أن يصل «لبالوما» دوي الارتطام الثقيل، وبعده لم يبق شاهدًا على العرض البهلواني سوى دوائر تموجات تتسع على صفحة البحر.

دار بخلدها أن ما حدث هو يقينًا شيء خاص، ربما شاءت الطبيعة نصحي بالإيمان بالفأل.

عاودها إحساس بالتميز، إذ كانت الشاهدة على «عربدة» الطبيعة مع نفسها.

ثم شرعت في طريق العودة، نظرت إلى أسفل وهي تقطع الدرب، فرأت أخاها «جو» وصديقيه عائدين بقاربهم نحو الرصيف. واستطاعت الحكم -حتى من قمة التل- بأن يومهم كان ناجحًا، مقدمة القارب امتلأت بكومة عالية من الأسماك، مهرجان من الألوان اللامعة في الضوء الشاحب. كذلك أمكنها ملاحظة أنهم اصطادوا دون تمييز، كل ما تمكنوا منه قتلوه، سمك الملاك والصخر والبونيتو والمحراث. أيضًا أحد المخلوقات النادرة والماكرة -قرش الجيتار- سمكة لا تؤذي ولا فائدة منها، ما لم تلتقطه السنارة اخترقه الرمح، وما تفادى الرمح جمعته الشبكة.

راقبت «بالوما» أخاها يوقف الماكينة، ثم يضم القارب إلى الرصيف، بينما رفيقاه يفرزان الأسماك الميتة بأصابعهم، ويلقون إلى البحر بتلك التي لا جدوى من بيعها.

لقد ثارت أول مرة شاهدتهم يفعلون ذلك، وصرخت في وجه «جو»: لماذا وقد اعتزموا التخلص من تلك الأسماك، لماذا لم يفعلوا

ذلك بمجرد صيدها؛ وقتها كان للسمكة فرصة البقاء.

ولئن ارتاع «جو» لغضبتها، فلم يكن صريحًا في استجابته:

– في وقت مبكر من النهار، وقبل معرفة حجم الصيد، كان لكل سمكة قيمتها، ومع نهاية اليوم ووفرة الصيد، أصبح لنا أن نحتفظ بالسمك المرغوب وحده، عندئذ قررنا التخلص من الرديء.

حاولت «بالوما» أن تجادل، لكن «جو» انصرف قائلًا: إن تلك طبيعة الصيد، وستظل دائمًا كذلك.

والآن، راقبت «مانولو» يلتقط سمكة صغيرة من مقلتيها ويلوح بها لزميله «أنديو»، ورغم المسافة التي فصلتها عنهما والظلمة السائدة، كان بوسعها التمييز بينهما من لون شعر كل منهما. دائمًا ما يرتدي «أنديو» قبعة في القارب؛ لذا ظل شعره داكنًا. و«مانولو» يرطب رأسه بالماء المالح، فتحول شعره إلى البني الفاتح، نفس ما حدث لشعرها، فقد أصبح أشقرًا من أثر الملح والشمس.

قال «أنديو» شيئًا وألقى بالسمكة نحو «مانولو»، فالتقط الأخير سمكة ضرب بها على رأس «أنديو»، وارتفع صياحهما وسبابهما وهما يتقاذفان الأسماك، معظمها لم يصب الهدف، وانتهى بها الأمر إلى الماء طافية مقلوبة.

شعرت «بالوما» وهي تنحدر من التل بالغثيان لما فعلاه، كان تفريطًا مقززًا، شيء ما بداخلها أُهين؛ لرؤية مخلوقات ميتة تعامل كأنها ما عاشت من قبل.

انحنت تلتقط حجرًا وصاحت منبهة، التفت ثلاثتهم إلى أعلى، نحوها.

- إن أردتم شيئًا تتقاذفونه، خذوا هذا.

وألقت الحجر بأقصى قوتها آملة أن تصيب القارب وتعطبه، ولكن الحجر تجاوز الهدف وسقط في الماء.

واستجاب «جو» بأن لمس أسنانه بإبهامه وأشار نحوها، كتعبير غاية الفظاظة والاحتقار والإهانة.

استدارت «بالوما» ومضت في طريقها.

لقد فسر لها أبوها المشكلة خلال أيامها المبكرة، عندما شكت من الشباب الذين يصيدون بلا تمييز، فيأخذون كل شيء ثم يبددون الكثير.

قال: البحر -هذا البحر- غني جدًّا، ويعج بالحياة.

لكنها لم تفهم.

- لو كان السمك قليلًا، لانتبه الناس لصيدهم كدفاع عن النفس خوفًا من القضاء على حيويته، أما والطبيعة تتباهى بثرواتها، فقدمت هنا الكثير، فلم ير الناس مبررًا للحذر. ربما يعون يومًا ما، وربما بعد فوات الأوان. أما الآن فكل شيء متاح لمن أراد.

لقد عشقت «بالوما» البحر منذ مداركها المبكرة، واغتبط أبوها للصلة التي ربطت طفله الأول بالبحر، وقرر تنميتها. منذ طفولتها أخذها معها يحميها ويعلمها الطفو والسباحة، وأكثر من ذلك، علمها

أن تخشى بعض الكائنات الحية، وأن تحترمها جميعًا.

ثم استحوذ على خيالها عندما أفاض في وصف المعالم والكائنات التي جعلت بحرهم «بحر كورتيز» بحرًا فريدًا. قال إن بحر «كورتيز» نشأ بسبب حدث قديم، من دهور سحيقة كانت شبه الجزيرة المعروفة باسم «كاليفورنيا» امتدادًا للأرض المكسيكية، وفي إحدى مراحل ما قبل التاريخ، تغير ترتيب طبقات الأرض، مما تسبب في أقوى زلزال عبر كل العصور.

– هل تعرفين كيف يتمزق قميص بال بطول حياكة الظهر؟ ذلك ما حدث للمكسيك، فقد انشقت على طول ذلك العرق، فحدثت فجوة هائلة اندفعت إليها مياه المحيط «الباسيفيكي»، ووُلد بحر جديد.

بالطبع لم يكن للبحر اسم حينذاك. وقرأ «جوبيم» من أحد الكتب أن البحر ظل دون اسم حتى عام ١٥٣٦، حين سُمي على اسم المستكشف الإسباني «هرناندو كورتيز» الذي اكتشف «كاليفورنيا» الجنوبية، والبحر الذي يفصلها عن أرض المكسيك.

ثم أضاف: أليس ذلك مهزلة؟ ألا يحملك على الضحك؟

أرادت المشاركة في الضحك، غير أنها لم تفهم.

– ماذا؟ ما الأمر المضحك؟

– الادعاء بأن رجلًا إسبانيًّا اكتشف المنطقة، أجدادك عاشوا فيها يزرعون ويصيدون، عندما كان الإسبان بعدهم يسكنون الكهوف ويأكلون الهوام. كل ما فعله «كورتيز» أن قتل الناس، ثم مضى لسبيله،

لذلك أطلقوا اسمه على البحر.

زعمت بعض الكتب أن «كورتيز» هو الذي أطلق على «كاليفورنيا» اسمها. تقول القصة إنه عندما تقدم الإسبان شمالًا على الساحل الغربي للقارة الأمريكية، عانوا من شدة الحرارة، وأبدى «كورتيز» ملاحظة باللاتينية، فقال لأحد ضباطه بأن المنطقة لعينة الحرارة، كالفرق (كاليدس فورناكس).

واستطرد «جوبيم»: ما عاد الناس يسمونه بحرًا، بل يطلقون عليه (خليج كاليفورنيا). غير أنه ليس بحاجة لاسم، إنه البحر وكفى. أمور ثلاثة تشكل الحياة هنا: البحر والأرض والناس، فلا حاجة لأسماء تميز بينهم.

ابتسم وأضاف: إذا لم يمكنك معرفة الفارق بينها، لن تكون حياتك هينة.

لذا بات الأمر بالنسبة لها: البحر -واهب وصديق، ولكنه قد يكون أيضًا المعذب والعدو.

لئن أعطاها أفضل ما أحبته في حياتها، فقد انتزع منها أعز روابطها وأحبها إلى قلبها بأكثر مما أحبت في الحياة.

بحر «كورتيز» يجمع في تكوينه بين الجبال والماء، وبين أقصى الجفاف ومنتهى الرطوبة، بين الرياح القادمة من المحيط «الباسيفيكي» وتلك المنحدرة من جبال «سييرا»؛ لذا فقد بات مرتعًا للجبهات العنيفة من الضغوط المنخفضة. بلا أي مقدمات على الإطلاق، قد ينقلب طقس

صحو فجأة إلى «جو» بالغ السوء، فتدور السحب حول بعضها في سباق محموم، وقبل السحب ومن تحتها يشرع البحر الهادئ في الغليان، ينشر أولًا صوت كالهمس البعيد، سرعان ما يتصاعد إلى زئير مروع.

يطلقون عليها «الشوباسكو»، وهي تختلف عن بقية الزوابع والأعاصير الاستوائية، فهي لا تنبع من اتجاه محدد، بل تُخلق في مكانها، وتموت كما بدأت. المحظوظ من يكون على اليابسة عند قيامها، عليه الاحتماء في حفرة خلف الجبل. وسيئ الحظ هو من يفاجأ بها في البحر، وفرصته هي ملاحظة بعض الظواهر المبكرة، ولو علامة واحدة كتغير اتجاه الريح، أو تكون بعض السحب الركامية الداكنة، فتسنح له فرصة الهرب إلى ملجأ يحميه من الرياح، أو على الأقل الوصول إلى البحر المفتوح؛ ليواجه لطمات الأمواج دون خشية الارتطام بصخور الشاطئ.

أما «المنحوس» فهو من يكون غائصًا تحت الماء عند تشكل الظواهر الأولية فلا يراها، وتتكون العاصفة وتوشك على الانقضاض، فرصته في أن يتسلق قاربه ويدير الماكينة، ويسحب المخطاف بأسرع ما يمكنه، ولا يتبقى له إلا الدعاء، أحيانًا ما يُستجاب.

منذ صيفين سابقين، هبت «شوباسكو» القمر المكتمل الرهيبة، كان القمر بدرًا والمد بالغ الارتفاع، ودفعت الرياح بأمواج عالية أحدثت دمارًا بالغًا بالجزر.

في أعقابها وجدوه غريقًا، ألقته الأمواج على شاطئ جزيرة قريبة.

تلك الواقعة كانت مبعث تساؤل «بالوما»: لماذا يسلم «فيجو»

والآخرون بأن المصير الغامض هو جزء لا يتجزأ من إرادة الله؟

لقد اعتقدت أن موت أبيها كان حادثًا -ضربة عشوائية- ما كان ممكنًا تفاديه.

وهيأت عقلها على ألا يفكر فيما وراء ذلك، ما وراء الإرادة والعشوائية.

تلك الأمسية على العشاء، أصر «جو» على الإفاضة في وصف انتصارات يومه بالبحر.

تفاخر بكمية الأسماك التي جمعها، وضراوة الصراع مع سمكة التونة، وكيف حامت القروش حول قاربه لسرقة حصيلته.

جلست «بالوما» صامتة، وهي تدرك أن أي تعليق منها سوف يؤدي إلى جدل صاخب.

لكن «ميراندا» -أمهما- ابتسمت وهزت رأسها: رائع!

قال «جو» وهو يختلس نظرة إلى «بالوما»: ألقيت الرمح على حدأة ضخمة -سمكة شيطان- لكنها حادت في اللحظة الأخيرة وطاشت الرمية. عندئذ -وأقسم على ذلك- استدارت وهاجمت القارب. من حسن الحظ أني أسرعت بتفادي هجومها، وإلا لنطحتنا وأغرقتنا.

قالت «بالوما» بهدوء: الحدأة لا تهاجم القوارب.

- تلك السمكة هاجمتنا -سمكة شيطان حقيقية- وأقسم على ذلك.

- لماذا ترمي حدأة بالرمح؟ إنها لا تؤذي أحدًا.

- هذا رأيك! سمكة الشيطان شريرة، لذا فلها قرنان، وتجلب الشر على الأرض.

صمتت بالوما، وتعمدت ألا ترفع بصرها عن طبق حساء السمك أمامها. ولكنها لم تستطع مقاومة رد الفعل، فهزت رأسها -كما اعتاد أبوها أن يفعل- بشكل بالغ الازدراء.

فهم «جو» الإيماءة، وتذكر مصدرها، وكرهها. لذا صاح قائلًا:

- ماذا تعرفين؟ تظنين أنك تعرفين الكثير! أنت لا تعرفين شيئًا، سمكة الشيطان شريرة، والكل يعلم ذلك، الكل ما عداك. أنت لا تعرفين شيئًا.

فهمت «ميراندا» هي الأخرى الإيماءة، وكادت أن ترى «جوبيم» فيها، والصراع الذي وضع لبنته الأولى دون قصد بين ابنيه، وخافت.

قالت: محتمل يا «بالوما»، ممكن الحدوث.

ردت «بالوما» دون أن ترفع بصرها: كلا يا أمي.

قال جو: لا تستمعي إليها، فهي لا تفقه شيئًا.

وبصق نحو المدفأة مثلما يفعل رجال الجزيرة دلالة على كسب المناقشة.

حاولت «ميراندا» التوسط لتهدئتها، ولإعادة السلام إلى البيت:

- ربما ظننت أنك تعلمي يا «بالوما». أحيانًا ما أخالني واثقة من أمر، بينما...

أرادت «بالوما» وضع حد لإشفاق «ميراندا» وارتباكها.

- أمي، لنضع حدًّا لهذا الموضوع.

لدقيقة ران الصمت على الغرفة، ثم رفعت «بالوما» عينيها إلى وجه أخيها المنفعل، كانت العروق على جانبي رقبته كالأحبال، وظنتها تنبض كالطبل، فكاه ينتفضان، وذراعه -في سمك فخذ «بالوما»- يرتعد، لقد تجنبت إثارته بالجدل، فألهبته بالصمت، صمت فسره استصغارًا لشأنه.

حاولت أن تبدو بالغة الثقة والهدوء، وتمنت ألا تفضحها عيناها. كانت موقنة بأنه إن استثير إلى درجة الهياج، وكانت هي هدف غضبته، لمزقها بنفس السهولة التي يفكك به ماكينة، ثم لا يعرف بعدها كيف يعيد الماكينة إلى أصلها.

بلغ «جو» الخامسة عشر من عمره، أصغر منها بسبعة عشر شهرًا. بيد أن جسده اكتمل نموًّا، وتضخم منكباه وذراعاه لكثرة ما يشده من أحبال وشباك منذ يفاعته. لم يعد يرتدي قميصًا عاديًّا، حيث كانت عضلاته وصدره يفجران خطوط الحياكة، وبرزت الأعصاب بين عضلات ساقيه وفخذيه لطول محاولات التوازن في قوارب متأرجحة.

كان قصيرًا، يناسب العمل في الزوارق، حيث ييسر انخفاض مركز توازنه من الحركة بكفاءة. وما كان لغريب أن يتصور رابطة دم تجمعه «ببالوما»، أو حتى قرابة. رشاقتها ناقضت امتلائه، وطولها بلغ ١٨٠ سنتيمترًا. ورغم أنها لم تعرف وزنها يقينًا، حدست أنها تبلغ خمسة وخمسين كيلوجرامًا. وبينما لاح «جو» شديد الشبه بقومه، داكن البشرة، أسود الشعر والعينين، اختلفت هي عنه في كل شيء.. كل ما فيها اتسم بالخفة، عظامها ولون بشرتها وشعرها. لم ترث عن

قومها بالقدر الذي شابهت به أباها. وأدركت أن تلك الاختلافات هي أساس تناقضهما، فضلًا عن أن «جو» آمن بأنه -وليست هي- الأجدر بحمل الشبه لأبيه، ولد ذكر، واشتق اسمه من «جوبيم».

ومن ثم ففي كل يوم، كل ما قالته وما فعلته، ذكره بأنها الأقرب لأبيها، وأن «جو» الأبعد بمراحل.. وربما أسوأ ما في الأمر أن كليهما عرف بالفرص التي واتته ليصبح المقرب إلى أبيه.

أحيانًا ما كان العطف عليه يساورها أحيانًا نحوه، فكانت تعترف بأن والدها أراد ابنًا فوق مستوى البشر ليكون جديرًا بأبيه. بيد أنها كانت أقل استعدادًا للاعتراف بأنها -وهي فتاة، أي النوع قاصر من الأبناء- تعلمت بصبر أكبر، وغفر لها بحنان أعمق، وامتدحت دون مواربة، لكن جوهر العداء قد استشرت حتى جعلت أي علاقة بينهما مبعث خلاف جديد.

مثلًا: افترض «جو» أن موت أبيه نقل إليه بالضرورة زعامة الأسرة، ثم اهتز ذلك الافتراض مع الممارسة، فرغم قدرته البدنية التي يسَّرت له أداء أي عمل، فإن طاقته العاطفية ما كانت لتكفي رعاية شؤونه الخاصة.

نهض «جو» عن المائدة دون كلمة أخرى، واستدار وغادر الغرفة.

تابعته «ميراندا» حتى بات بالخارج، ثم شرعت:

- بالوما!!

قاطعتها «بالوما»: أعرف يا أمي. أعرف.

- ٣ -

في البداية كان هناك واحد فقط، يتواثب ويتلوى برشاقة جواد الاحتفالات، ويطرد رذاذ الماء بصفير من فتحة بقمة رأسه، وتتألق زعانفه العلوية وظهره الأملس في شمس الصباح المبكرة.

مر أمام قاربها، وقفز عاليًا فوق الماء، ثم غاص تحت القارب، وعاد يتمرجح للأمام.

ظلوا في لهوهم، يمضون في تشكيلات أمام قاربها، أربعة أو خمسة في كل تشكيل معًا كالأصابع، ثم ينتشرون، وتحل بعده تشكيلات أخرى متباينة التموجات.

استمرت تجدف، وهم يقفزون إلى جانبي القارب، كأنهم يستحثونها على الإسراع فتحدث أمواجًا يركبونها، غير أن حركتها لم تؤثر في الماء بأكثر من تموج خفيف، فحلقوا مبتعدين عن الجانبين. وترددت واضحة زقزقتهم وقرقعتهم وصفيرهم، كأنما يتداولون لعبتهم التالية، ثم هاجموا القارب صفًّا بعد صف، يغوصون تحته ليظهروا على الجانب الآخر، من كل صف كان أحدهم -واحد فقط- يقفز فوق القارب -فوقها- فيمر بها ظله محملًا بقطرات ماء تسقط فوق رأسها.

ضحكت مرحة، وحاولت تقليد الدرافيل، وفي قرارتها يحدوها أمل خافت أن يحسبوها منهم فيظلوا معها. بيد أنهم -ربما بإشارة خاصة- توقفوا عن لهوهم ودعاباتهم، وانطلقوا في اتجاه مشترك نحو البحر. كفت «بالوما» عن التجديف وحدقت مشدوهة. أحست كأن الدرافيل تعمدها، ربما اختاروها رفيقة لهوهم خلال التوقف أثناء رحلتهم.

فأل حسن آخر، مثل رؤية «الوميض الأخضر» وسمكة الشراع القافزة.

حقًّا، ربما كان اليوم مميزًا.

استيقظت «بالوما» قبل الشروق كعادتها، والشمس ما زالت تستكشف أعماق الظلمة نحو الشرق بأشعة رمادية وليدة، رشت بعض الماء على وجهها، وتسللت خارجة من البيت، ثم انطلقت عبر الممر فوق التل إلى رابية بين الصخور تواجه المشرق.

معظم أهل الجزيرة رأوا في تلك الرابية مجرد كومة من الصخور، وبين الحين والآخر، عندما كان أحدهم تلزمه قطعة صخر ذات شكل أو حجم معين، كان يختارها من الرابية، لذا أصبحت كومة الصخور كالأنقاض بعد أن كانت مستوية في يوم ما. أخبرها «فيجو» أنها كانت مدفنًا في الأزمنة الغابرة، ليس للأجداد، ولكن لمن عاشوا فيما قبل الزمن. وقبل عدة سنوات حضر بعض العلماء من «لاباز»، وسعوا للحصول على إذن بالتنقيب تحت الامتداد البحري، لكن أهل الجزيرة رفضوا الموافقة. ورحل العلماء.

قال فيجو: كنت صغيرًا وقتها، ومتشوقًا لمعرفة ما تحت الأحجار، لكن الكبار قالوا لا، وكانوا محقين. لقد آمنا بأن الموتى تحت الرابية يرعون شؤوننا، ويحموننا. يحموننا من ماذا؟ ذلك شأننا، كل واحد منا. ومن ثم فالسماح للأغراب بالحفر، من شأنه فقط أن يضر بنا نحن، فلو كانت تحتها أجساد وسمحنا بإقلاقها، لعادت علينا -كلنا- بالشر. وإن لم يجدوا أجسادًا، لبدت معتقداتنا دون مضمون، ولاهتز إيماننا. لذا فقد طردنا العلماء غاضبين.

على أي حال، فإن العلماء تركوا خلفهم جزءًا يسيرًا من المعرفة، استطاعت «بالوما» أن تستوعبه. السبب -في يقينهم- أن الربوة كانت مدفنًا، هو موقعها على أعلى نقطة في الطرف الشرقي للجزيرة. وكما قالوا، اعتقد العلماء بوجوب دفنهم في مواجهة الشرق، حتى تشرق الشمس عليهم فيحل ضياؤها لهم. أشد الأمور قسوة أن يدفن شخص في مواجهة الغرب، فهو بمثابة حكم أبدي على البائس أن يطارد للأبد الشمس الغاربة مستجديًا نورها.

عرفت «بالوما» ذلك وباتت نصف مؤمنة به، وأعجبتها فكرة اقتسام ضوء الفجر مع أرواح أولئك الذين تضمهم الربوة، حتى والدها -وقد دفن في البحر كوصيته، وبناء على إصرار بالوما- دفن لحظة الشروق في مواجهة الشمس الصاعدة.

وببطء تخضبت السماء الرمادية باللون البرتقالي، ثم انزلق أول خط النار متوهجًا فوق حافة الأرض. جلست ترقب البحر، وتحاول بمخيلتها رؤية كل ما يحدث تحت سطحه الهادئ المستوي. ودت لو

أمكنها مشاهدة الغروب من تحت الماء، فهو -حسبما قال «جوبيم»- وقت معظم النشاط والتفاعل والحركة والطعام والتغيير. قال إن ذلك ينطبق على كل البحار، وبصورة خاصة على بحر كورتيز، حيث يتم ذلك كله في نفس الوقت والمكان. فنتيجة غير مباشرة للهزة التي مزقت أرض المكسيك وخلقت البحر، باتت أسماك الأعماق ترعى في مياه ضحلة، وأجبرت الحيوانات التي لم تكن ترى النور على الحياة في نور الشمس الساطعة، وتركز النشاط في عدة مناطق مرتفعة عن القاع سميت «جبال البحر».

فلقد استقى «جوبيم» معرفته الجيولوجية عن القدامى، ومن نبذات التقطت من العلماء الذين كانوا يتوقفون بين الحين والآخر «بسانتا ماريا» لدراسة فصائل القروش. وكانت تفسيراته بسيطة ومباشرة.

بعد أن تسبب الزلزال في تكوين البحر، بآلاف السنين -وربما بملايينها، حدثت صدمات وهزات أخرى شرعت على أثرها البراكين تحت الماء في إطلاق الغازات، ثم الثورة والانهيار- وعلى مر الأجيال استوى بعضها مع القاع. غير أن حمم براكين أخرى تراكمت لتكوّن جبالًا تحت الماء، ترتفع آلاف الأقدام فوق قاع البحر، وحتى خمسين وستين قدمًا تحت سطح الماء.

وأصبحت جبال البحر مجمعات رئيسة للحياة في بحر كورتيز، حيث كانت مرتعًا لوليمة دائمة، فاجتذبت الحيوانات من كل نوع يمكن تخيله.

ثم تصطدم تيارات القاع المائية بجبل الماء، فتسبب في تيارات صاعدة، ويندفع الماء إلى أعلى حاملًا معه كل الأجسام الدقيقة (بلانكستون وجيري دقيق وآلاف المخلوقات الأخرى) لتتغذى عليها الحيوانات الأكبر، ثم تسعى تلك الحيوانات وراء الطعام في المياه الضحلة، وبدورها تطاردها تلك الأكبر منها وتتغذى عليها. وتمضي سلسلة الطعام حول جبل الماء كما رسمتها الطبيعة.

قال «جوبيم» قبل أن يستصحبها للغوص عند جبل الماء:

– سترين كل شيء يا «بالوما». أشياء دقيقة تنهش أشياء ضخمة، ووحوش تلتهم كائنات دقيقة، مخلوقات تأكل النبات، وأخرى تتغذى على أحدها الآخر. مخلوقات تستخدم أسنانها، وأخرى لها مرشحات بدل الأسنان. العجيب أن الكل يمضي معًا، مع أن معنى ذلك أن يلتهم بعضها بعضًا. فلقد رأت «بالوما» مع الأيام معرض الطبيعة وسوقها المتجدد والمتعدد، ويختلف دائمًا عن سابقه.

وأخيرًا عرفها «جوبيم» بجبل الماء، لها وحدها. جبل لم يزره أبدًا الصيادون، فلا يعلم أحد بوجوده.

هنالك، على بعد ساعة تجديف واحدة من جزيرة «سانتا ماريا» أصبح بوسعها قضاء الأيام ترقب وتسبح، وتغوص وهي تخال نفسها جزءًا من الحياة الغنية تحت الماء.

كل صباح كانت تمضي إلى الرصيف، كأنما لقضاء بعض احتياجات الصيادين الذين يعدون لرحلة اليوم. والحق أنها كانت تترقب رحيلهم، وتتأكد من ذهابهم قبلها، حتى تنعدم فرص تعقبها

واكتشاف موقعها الخاص. فالصيد فيه -ولو لصباح واحد- كفيل بتدمير التوازن الحساس الذي أرسته الطبيعة على مدى سنين لا تُعد.

وما كان بوسع «جو» والآخرين اكتشاف جبل «بالوما» بأنفسهم، فقد التزموا -كعادة معظم سكان الجزر- بالعادات والتقاليد الموروثة، فدأبوا على الصيد في المناطق الضحلة التي اعتادوها، ولم يستكشفوا مناطق جديدة. ونادرًا ما غيروا مناطقهم بأكثر من بضع مئات الأمتار.

وثمة سبب لالتزامهم الكامل بالمواقع التقليدية، ولعدم تغييرها. دائمًا ما كان الصيد وفيرًا، والمناطق تفيض عليهم رزقًا. حقًّا إن بعض الأنواع أخذت في الانقراض، وعلى الأخص المستوطنة منها، مثل الجزوبر (أسماك المناطق الحارة الضخمة)، لكن أصحاب الزوارق الكبيرة أمكنهم موازنة قيمة الصيد، بتعويض النوع بكمية الحصيلة. كذلك انعدمت وسائل اكتشاف الأماكن الجديدة، فما من أجهزة قياس الأعماق لتحديد مواقع جبال الماء، ولا أجهزة إلكترونية لاستكشاف الأسماك، ومن ثم تعقُّب التجمعات الضخمة. وما دار بخلد أحدهم أن يجره قارب خلفه في البحر ليستكشف جبال الماء من السطح بواسطة منظار الغوص.

لقد أمضوا أوقاتهم فوق سطح الماء، وما من مرة تحته. لم يطل أحدهم بوجهه تحت الماء ما لم يضطر. ادعوا أنهم يجيدون السباحة، غير أنهم كانوا يكرهونها ولم يمارسوها. ولئن وُجد أحد منهم في الماء، فلا بد أنه سقط رغمًا عنه.

«جو» حاول، في حياة «جوبيم»، لكن دون جدوى. عندما بلغ

ثمانية عشر شهرًا، ألقاه «جوبيم» من الرصيف في الماء، وقال له أن يعوم. فَكَرِهَ الماء. كان البحر غامضًا يثير فيه الرعب، واعتقد أن كائناته تتحين الفرصة لالتهامه. ولو تخلى عن حرصه، فإن البحر نفسه يطبق عليه. لقد أوضح له «جوبيم» كل شيء، وعلمه، وامتدحه، بل تملقه، وصاح فيه، على أمل أن يختلف ولده عن بقية الأولاد، وظن أنه بالتكيف قد يتغلب على النفور. وفي النهاية يئس «جوبيم» منه، وتحول إلى «بالوما» التي ما كانت بحاجة للمحاولة، السباحة كانت طبيعة لها كالتنفس، وكلما زاد من جرعة تعليمها، ازدادت رغبة في المعرفة.

طبعًا اعتبرها الآخرون شاذة. وعلى أي حال، ما فائدة إدلاء شيء إلى البحر، ما لم يكن سنارة أو شبكة. ولم تستوعب «بالوما» كيف يعيشون على حافة عالم لم يستكشف، دون أن يساورهم فضول معرفته، تحت أقدامهم عجائب تفوق الأحلام في غرابتها. بيد أنها -في سريرتها- سعدت بأن تركوا لها ذلك العالم بأكمله.

وذلك الصباح حاولت «بالوما» أن تبذل عونًا بأكثر من عادتها، أن تبعث برسالة هدنة إلى «جو». لم تكن تستمتع لألمه، فضلًا عن أن دعاباته الفظة جعلت أمهما دائمة التوتر. ومع توتر «ميراندا» تنتقل عدواه إلى المنزل كله، غير أن «جو» نبذ الهدنة، ورفض يد «بالوما» الممدودة بالمساعدة.

وعندما أصبح مع رفيقيه والمعدات على القارب، شد حبل إدارة الماكينة بشدة جعلته ينفلت مع يده. لم تضحك «بالوما»، وحاولت أن

تبدو متعاطفة، بينما حاول «جو» كبح غضبه للمرة الأولى. أعاد لف الحبل على محور إدارة الماكينة وشده. تلك المرة دارت الماكينة، فحلت «بالوما» رباط المقدمة، ووجه «جو» القارب نحو الشمس الصاعدة وعيناه تضيقان لضوئها، متجهًا نحو مناطق الصيد.

في الماضي انصب اهتمام الصيادين على القرش، قرش أو اثنين كانا يدران عائدًا يوازي حصيلة مئات الأسماك الأخرى. زعانفه تباع من أجل الحساء، واللحم للطعام، والكبد للفيتامينات، والجلد للصناعات الجلدية ولصقل المعادن. غير أن ظهور المواد المصنعة خفض قيمة القرش إلى أقل من الربع. لم يعد كبده الضخم مطلوبًا؛ حيث حلت الفيتامينات التخليقية محل زيت الكبد. وفقد جلده أهميته، فالجلود المصنعة أرخص، وليست بأقل كفاءة من الطبيعية، بل إنها أسهل في القطع والتشكيل.

لكن الزعانف ما زالت تباع في الشرق، وبين الحين والآخر يشتري السائحون فك القرش وأسنانه. وقليل من الناس ما زالوا يأكلون شريحة أو خليطًا من لحم القرش والخضر -إن لم يكن بوسعهم شراء طعام سواه- لكن عمومًا لم يعد صيد القرش مجزيًا.

لذا فمعظم القروش صيدت مصادفة، كأن يلتهم قرش طعمًا مخصصًا لسمك آخر، أو أن تلتقطه الشبكة ضمن كتلة الحصيلة. وركز الصيادون جهودهم على أسماك سهلة التسويق.

كان «جو» وصديقاه «أندريو» و«مانولو» يبدأون يوم الصيد بالخيوط اليدوية. وعلى فترات كانوا يطلون من خلال دلو قاعه من

الزجاج، لاستكشاف تجمعات الأسماك في المناطق المجاورة، ثم يعدون شباكهم انتظارًا لاقترابها، فيجمعونها ويصبونها في قاربهم.

ومع اقتراب وصول «السفينة» من «لاباز»، تلك الليلة أو الصباح التالي، تحفظ الأسماك مبردة لحين تفريغها في عنبر التبريد بالسفينة. فإذا لم تكن متوقعة قبل عدة أيام، لا بد من نزع الأمعاء، ووضع الأسماك نظيفة فوق الثلج بالجزيرة، وإلا فشلت قبل وصول السفينة.

كان الأهالي تحت رحمة الربان، هو الذي ينقل لهم أسعار الأسماك في لاباز، والسعر الذي حدده للرطل، وما كان أمامهم سوى قبول سعره. بيد أنه لم يكن جشعًا، وحتى في المرات التي تشبع فيها السوق، كان يدفع لأهالي الجزر سعرًا عاليًا يمكنهم من الاستمرار في شراء الوقود والفاكهة والخضر والملابس. بذا لم يكن هناك سوى القليل من الشكاوى الجادة ضده.

كما لم تكن «بالوما» تعمل بالصيد، وليست ذكرًا، وما من وضع رسمي لها في المجتمع، فلم يسمح لها باحتلال مساحة من الرصيف لقاربها الصغير. فكانت تحتفظ به تحت الرصيف -بين دعاماته- ليكون بعيدًا عن تحركات قواربهم. ثم مع ابتعاد قارب «جو» بمسافة آمنة، كانت ترقد على الرصيف وتمد يدها لتخرج القارب. لم يكن سوى جذع شجرة مفرغ، طوله ثمانية أقدام وعرضه قدمين، لكنه أعز ما امتلكت. لقد صنعه والدها بمناسبة عيد ميلادها الثالث عشر، ابتاع الجذع الخشبي من «لاباز»، حيث انعدمت الأشجار في «سانتا ماريا»، ووصل للجزيرة على السفينة التي تنقل الأسماك.

ثم أشعل النار فوق الجذع حتى أحدث فجوة، ثم انطلق يحفره بأزميل ومطرقة خشبية. وأخيرًا استخدم جلدًا جافًّا -جلد القرش- لصقل الخشب من الشظايا الخشبية.

طوال فترة العمل فيه، لم يفه بكلمة «لبالوما» عمن له القارب، وافترضت هي أنه «لجو»، وحسدته على المتعة التي تنتظره، والأماكن التي يمكنه ارتيادها، والخبرة التي يكتسبها. بذلك أساءت فهم والدها حتى أهداها القارب، ولم يزد عن قوله: سيتيح لكِ أوقاتًا جميلة.

ذلك الصباح ألقت بقبعة عريضة في القارب، وفيما بعد -حول منتصف النهار- عندما ارتفعت الشمس وجاوزت الحرارة أربعين درجة، كان البقاء فوق الماء دون قبعة بمثابة دعوة لضربة شمس وغثيان. كانت قد راجعت معداتها في حقيبتها الشبكية، قناع الغوص وأنبوبة التنفس والزعانف، وسكينها الحاد على كل جانبيه كالموسى، من صلب لا يصدأ وله مقبض مطاطي. وأخيرًا ثمرة مانجو لوجبة الغداء.

لم تكن تحمل السكين للدفاع عن نفسها ضد حيوان. قبل لقاء الأمس مع سمكة الشراع، ما شعرت أبدًا بتهديد تحت الماء. كذلك من البديهي أنه لو أراد قرش عضها لما كانت للسكين جدوى مع سرعته وخفة حركته. إذن السكين أداة وليست سلاحًا، استخدامها الأساسي هو لاستخلاص القواقع والمحاريات الملتصقة بصخور جبل الماء، ثم لفتحها بعد ذلك في القارب.

السبب الثاني أهم، وإن كان أقل احتمالًا، وهو احتياطها للطوارئ.

على مدى سنوات عديدة، ضاع الكثير من خيوط الصيد المفردة (غير المغزولة) من الصيادين. ولأنها مصنوعة من النايلون، فلم تتحلل في الماء. ولأنها عديمة اللون، تعذرت رؤيتها تحت الماء. وتجمعت خصل من تلك الخيوط حول الصخور، فأصبح الخيط المفرد قرشًا بالغ القوة، ومشتبكًا بإحكام إلى الصخور. قرشًا قد يقتل إنسانًا في بضع دقائق. لو أن يدها أو قدمها اشتبكت بالخيوط، لن يكون بوسعها البقاء دون تنفس فترة تكفي لتخليص كل خيط حتى تتحرر. حينذاك ليست أمامها سوى قطع كل ما يعترض طفوها.

حلت «بالوما» القارب من الرصيف، وجدفت للخلف مبتعدة عن الرصيف، ثم استدارت نحو الغرب.

عندما قفز آخر الدرافيل مبتعدًا نحو الأفق، أجالت «بالوما» البصر حولها تحدد مكانها في البحر المفتوح، ثم غمست مجدافها في الماء متجهة نحو جبل الماء.

لم تكن قمة الجبل في مياه ضحلة، فأقرب نقطة منه إلى السطح لا تقل عن أربعين أو خمسة وأربعين قدمًا، لذا لم يكن ليرى من القارب، كما أن توقيت الوصول إليه لا يعتمد على زمن مغادرتها للرصيف؛ فكل يوم تتغير الريح وكذلك التيار قليلًا عن سابقه. لو أن التيار كان معها لاستغرقت الرحلة وقتًا أقل، والعكس بالعكس. وإن كان التيار معها والريح ضدها لأصبح البحر مضطربًا وتعذر التجديف فيه. فارق خمس دقائق أو عشر قد يؤدي إلى الانحراف كليًّا عن اتجاه الجبل، فمساحة قمته لا تقل عن ألف متر مربع؛ لذا فقد علمها «جوبيم» كيف

تحدد مكان الجبل مستعينة بالعلامات الأرضية.

هناك جزيرة على بُعد بضع أميال إلى الغرب، وعليها نباتات الصبار، من مسافة تظهر صبارة منها على أعلى نقطة في الجزيرة -طويلة وسميكة- لكن مع التجديف اقترابًا للجزيرة، تتغير رؤية الصبارة، فتصبح صبارتان لا واحدة. وطالما هي لا ترى خط السماء الفضي بين الصبارتين، فهي في الاتجاه الصحيح.

ومع ذلك فنباتي الصبار كانا يدلانها فقط على المدى الذي قطعته غربًا، ربما أخذها الريح أو التيار بعيدًا نحو الشمال أو الجنوب. وقمة الجبل تستطيل في اتجاهي الشرق والغرب، لذا فتضاريس القمة أضيق كثيرًا على اتجاهي الشمال والجنوب، بحيث يسهل فقدها. عليها إذن تحديد علامة أرضية أخرى تشير إلى الموقع على الخط الشمالي الجنوبي -لذا- بمجرد رؤية خط السماء بين الصبارتين، كانت تنقل بصرها إلى كوخ على طرف الجزيرة تمامًا إلى الجنوب، لظهر الكوخ كأنه طاف على سطح الماء دون صلة له بالأرض، فإذا لاح الكوخ على طرف الجزيرة تمامًا، لأيقنت أنها فوق الجبل مباشرة.

ألقت بالمخطاف في البحر، وتركت حبله ينساب من بين أصابعها، لم يكن مخطافها سوى قطعة صدئة من الحديد، لكنها كافية لتثبيت قارب صغير، تمامًا كالمخطاف الحقيقي، وهي ليست غالية الثمن، فالمخاطيف معرضة دائمًا للاشتباك بالشقوق والفجوات العميقة بين الصخور، وغالبًا على أعماق تتجاوز كثيرًا قدرة الإنسان على الغوص. عند ذاك يتحتم قطع الحبل والتضحية بالمخطاف. وما

كان ميسورًا لها شراء مخطاف معدني بديل. لكن هناك دائمًا قطع أخرى من المعدن بين المخلفات.

عندما استقر المخطاف، ربطت الحبل إلى بروز حديدي على مقدمة القارب.

غمرت قناع الغوص في الماء ثم بصقت عليه، ونشرت البلل بأناملها على سطح الزجاج الداخلي حتى لا تتكون عليه طبقة ضبابية (حتى والدها لم يملك تفسيرًا لتلك الطريقة، غير أنها كانت ناجحة). ثم عادت تغمر القناع في الماء المالح، وثبتت سكينها في الحبل بوسطها، ودفعت قدميها في الزعنفتين، ثم ثبتت أنبوبة التنفس إلى حزام القناع.

وانزلقت من جانب القارب إلى الماء بأقل ما أمكنها من الرذاذ.

حركت قدميها بهدوء حتى أمسكت بحبل المخطاف. توقفت لحظة تجيل البصر تحتها خلال غيام أزرق تتخلله أعمدة صفراء كالزبد، أعمدة ضياء الشمس.

أحيانًا ما خالت نفسها مدعوة يرحب الجميع بمقدمها إلى الحفل الكبير، حيث بات المئات من المدعوين الدائمين يرون وجودها بينهم أمرًا مألوفًا. يقينًا أنها استشعرت من الألفة بين الحيوانات البحرية بأكثر مما جمعها بأغلب البشر في «سانتا ماريا». العلاقات هنا كلها مباشرة وصادقة ودون تعقيد.

عادة ما كانت تخجل لتلك الخيالات، فتطردها من ذهنها.

ولطالما نصحها «جوبيم» -المرة تلو الأخرى- ألا تفكر في الحيوانات كالبشر، وألا تنسب لها خواصًا وصفات آدمية، لكن عليها أن تنظر إليها وتحترمها كمخلوقات مختلفة تمامًا. ومع ذلك كانت -بين الحين والآخر- تطلق العنان لتلك الأوهام الفجة.

ففي يوم كانت ترى سمكة شراع، وفي آخر ترى قرشًا، وأحيانًا كانت ترى سلحفاة، وربما رأت حوتًا، وأحيانًا -مثل اليوم- لا ترى سوى الغيام، فالماء لم يكن صافيًا. سحابات شاسعة من البلانكتون والأجسام الميكروسكوبية الأخرى عكرته كالضباب. التيارات سحبتها من الأعماق، كان بوسعها رؤية الجبل -قمته- مساحته غير مستوية من الصخور والشعاب المرجانية. كما أمكنها تمييز الحيوانات الكبيرة كخيالات متحركة. لكن كل شيء غلفه الضباب والغيام.

إذا لم يصعد شيء منها إلى السطح، أو تعذر عليها وضوح الرؤية حيث هي، فما من خيار أمامها سوى أن تغوص هي إلى الأعماق.

ولأن سكان الجزر يعرفون القليل عن السباحة، والأقل عن الغوص، فهم لا يعلمون إطلاقًا كيف يعدون أنفسهم لكتم أنفاسهم خلال الغوص هبوطًا. لكن «جوبيم» نفسه تولى تدريب «بالوما» على الغوص على مراحل، خمسة أقدام لكل مرحلة. علمها كيف تستعد لكل عمق، واختلاف أثر كل عمق على رئتيها، وكيف تتجنب الشعور بالخوف. وأثمر التدريب بعد ممارسة امتدت لأربع سنوات، ولاستعدادها الطبيعي المتشوق. لم تقيم إمكاناتها في الغوص، ما إذا كانت قد اكتسبت براعة أم لا. لكنها فقط عرفت أنها تستطيع

حبس أنفاسها مدة كافية للغوص حتى قمة الجبل، وقضاء فترة كافية للاستمتاع، ثم العودة للسطح استعدادًا لمعاودة الغوص.

استلقت بوجهها في الماء، وأنبوبة التنفس ممتدة إلى ما خلف رأسها، فأخذت أنفاسًا عميقة، يزيد كل منها رئتيها اتساعًا عن سابقه. وبعد النفس الأخير استمرت في الشهيق حتى أحست أنها على وشك الانفجار، ثم أحكمت قفل فمها وغاصت. شدت نفسها -يدًا تحت يد- هبوطًا على حبل المخطاف، تدفع جسدها بضربات قوية منتظمة من زعنفتيها. وخلال هبوطها إلى أسفل، سمحت لفقاعات الهواء أن تنساب من فمها حتى أحست براحة طبيعية في رئتيها.

أدركت القاع في عدة لحظات، ولكي تمنع نفسها من الطفو اللاإرادي، ضمت ركبتيها حول صخرة تستمسك بها. كانت تشعر بالاطمئنان والاسترخاء مع امتلاء رئتيها بدرجة مريحة.

للزمن وسيلته في الانقضاء تحت الماء. ربما كان بوسعها البقاء دقيقة ونصف، أو دقيقتين. لكن يقظة مشاعرها وانتباهها جعلت كل صوت وكل مشهد وكل إحساس يسجل واضحًا في ذهنها. على السطح قد تمر الدقيقتان دون ملاحظة شيء، لكن هناك في الأعماق، كل شيء تجربه بذاتها؛ لذا تمضي الدقيقتان كساعة كاملة.

في اللحظات الأولى لنزولها، متباعدة حيوانات الجبل المتنبهة لكل حركة في الماء، واندفعت تنأى بنفسها عنها، ثم بدأت تعود، كأنها -وقد عرفت «بالوما»- قبلتها جزءًا من الحياة.

شيء ما ضربها بعنف من الخلف، فانكفأت إلى الأمام، تمسكت

بالصخرة حيث تجلس، واستدارت وذراعها أمام وجهها يحميه. لجزء من الثانية لم تستطع تمييز شيء خلال سحابة فقاقيع الهواء التي خرجت من فمها أثر الضربة. لو أن قرشًا اصطدم بها -مثلما تفعل القروش دائمًا لاختبار الفريسة- فلسوف يضرب ثانية وتموت. أيًّا كان ذلك الشيء، فلم تكن اللطمة من قبيل المصادفة. تحت الماء، الاصطدام صدفة أمر في ندرة الخطوط المستقيمة في الطبيعة.

ثم -بذراعها ما زال أمام وجهها، وتحدق بشدة خلال الفقاعات، وتجاهد بشدة لكبح ذعرها- وجدت «بالوما» نفسها وجهًا لوجه مع مهاجمها.. وضحكت.

سمكة كبيرة من «الوقار»، ثلاثة أو أربعة أقدام طولًا، وثلاثون إلى خمسة وثلاثين رطلًا، وقفت على بُعد قدم من وجهها، وفكها الأسفل ناتئ عن الأعلى، وعيناها تحدقان فيها. كانت تنتظر بفارغ صبر من «بالوما» أن تفعل ما ظنتها جاءت من أجله، أن تطعمها.

لقد أطعمتها مرات من قبل -لا ثمة خطأ في هذه السمكة- كانت الوحيدة من حجمها في ذلك الجبل، وبها ندوب واضحة خلف خياشيمها، ربما تذكارًا قديمًا لهروب بالكاد من أحد الضواري الأكبر. أحيانًا ما أحضرت لها خبزًا أكلته بازدراء، كأنها تسديها صنيعًا بتناوله، وأحيانًا قطع لحم، أو نفايات سمك من الرصيف كانت تبتلعها على الفور. وأحيانًا -مثل الآن- نسيت أن تحضر شيئًا.

قاومت رغبتها في أن تطلق عليها اسمًا بشريًّا، لكنها لم تستطع التفكير فيها إلا على أسس بشرية، ففكرت فيها على أنها «المتنمرة»

وهو اسم انطبق عليها.

كانت «بالوما» تمسك الطعام متدليًا بين طرفي إصبعين، وعلى الفور تندفع السمكة، فتسقط «بالوما» الطعام في فمها. لم تكن السمكة راغبة في عض إصبعها، إلا أنها كانت آكلة خرقاء تلتهم ما في طريقها. ورغم صغر أسنانها، فإن فكاها بالغا القوة، وأي خطأ طفيف قد يؤدي إلى تهشيم أصابعها أو تمزيقها.

ذلك اليوم لم تحمل معها شيئًا للسمكة، لذا رفعت يدها منقبضة وكأنما فهمت السمكة إشارتها، تظاهرت بالانقضاض على يدها، ثم استدارت خفض ذيلها في وجه «بالوما»، وتحركت بضع أمتار، وانتظرت ربما -على أي حال- قدمت لها شيئًا يؤكل.

رأت «بالوما» فوقها ظلًّا يقطع عمودًا من الأشعة الصفراء، فنظرت إلى أعلى -موكب من القروتين- «رأس المطرقة»- يمر من فوقها واحدًا بعد الآخر، أجسادها الفضية الرمادية ملساء كطلقات الرصاص، وتموجات أجسادها تلمع وقد مستها أشعة الشمس.

أحبت «بالوما» القرش «رأس المطرقة»، كان يبلور أفكارها البدائية عن الله والطبيعة. حيوان عجيب غير مقبول الشكل، له مطرقة تتثنى في مقدمه رأسه، على جانبيها عينان، وتحتها فم مليء بالأسنان. مرة كل حين طويل يهاجم إنسانًا، عدا ذلك فهو بلا فائدة لإنسان أو لحيوان. لذا المؤكد أنه شرير، على الأقل حسب تصنيف «فيجو» له كمخلوق حي.

ومع ذلك لاح لها أنه لو صح حيوان البركة لكان رأس المطرقة.

لقد ظلت القروش لمدى طويل تمثل خطرًا بالغًا لأهل الجزيرة. وعلى مر الأجيال تناقل أهل الجزر الأقاصيص عنها، حقائق أضيفت إليها أساطير من هنا وهناك. وأصبح من المعلومات العامة أن رأس المطرقة ظل دون تغيير لحوالي ثلاثين مليونًا من السنوات، وما لم تتعرض لإصابة أو مرض، فما كان لها من عدو غير الإنسان. لديها الطعام وفيرًا، والحرية كاملة، والصحبة الدائمة والعشيرة.

على كلٍّ، أضاف «جوبيم» منظورًا جديدًا لما تعرفه «بالوما» عنها، فوعت أن رأس المطرقة حيوان كامل الاستعداد لحياته، مخلوق بسيط وسريع وفعال -على عكس الإنسان- لا يشن حربًا ولا يترك شيئًا يضيع هباء.

إذن رأت «بالوما» في رأس المطرقة مخلوقات كاملة، لا يبدو منه سوى جمالها. وتمنت لو أن «فيجو» رآها عندئذ -حيث هي- تمارس دورها في الطبيعة. أما أن يراها تتلوى عذابًا في قارب، أو تضرب بالهراوة حتى الموت، ثم تترك لتتعفن على شاطئ ملتهب الحرارة، فلن تبدو آنذاك إلا مخلوقات مقززة.

دفعت «بالوما» الصخرة بقدميها ومضت تسبح نحو القاع بضعة أقدام أخرى، إلى واد ضيق بين صخرتين هائلتين. هنالك كانت سمكة «قادوح» تندفع دخولًا وخروجًا في هياج، ذيلها يرتعد وزعانفها الخيشومية ترفرف. ظنتها «بالوما» جريحة لغرابة تحركاتها، وللأسماك التي أحاطت بها -ثلاث أسماك ثم خمس ثم تسع أو عشر- كلها بسبيل مهاجمتها.

هاجمتها سمكة «ببغاء» ذات فلوس كالقماش الملون وفم كالمنقار، لكن سمكة «القادوح» الصغيرة تفادت الهجوم، واندفعت بسيل من العضات المتتالية حتى تراجعت «الببغاء». وعلى الفور تقدمت سمكة «ملاك» براقة الألوان وذات زعانف فقرية، وانحرفت تريد الوصول إلى الرمال تحت «القادوح»، لكنها طُردت هي الأخرى.

عندئذ أدركت «بالوما» ما يحدث. لقد اكتشفت الأسماك المكان الذي أودعت فيه «القادوح» بيضها في الوادي الصغير، فأحاطت بها تحاول جذب انتباهها مدة كافية لاندفاع إحداها إلى مخبأ البيض فتحفره وتلتهم البيض. شعرت «بالوما» بحنو غريزي نحو البيض، فسبحت إلى وسط التجمع وأشاحت بيدها فتفرق الغزاة. غير أن سمكة «القادوح» ظنتها لصًّا آخر، فاستجابت بأن عضت شحمة أذنها.

ابتعدت «بالوما» ببسمة حزينة داخلها، أيقنت أنه لن يطول الوقت قبل أن تخسر السمكة معركتها أمام الأكثرية. فطالما اكتُشف مخزن بيض، فقد أصبح في حكم المنتهي. وحدثت نفسها بأن تلك طبيعة الأمور على أي حال، ونموذج للطبيعة وهي تحفظ التوازن. لو أن كل بيضة قادوح فقست وكبر كل الفقس إلى النضوج، لاختنق البحر بتلك الأسماك وحدها.

ثم بدأ الألم في رئتيها، إحساس أجوف بأن الرئتين تبحثان عن الهواء، ثم شرع صدغيها يدقان ضجيجًا. رفست الأرض تحتها نحو السطح تاركة خلفها خطًّا من الفقاقيع.

كان مبدؤها أن تستريح خمس دقائق أو عشر بين فترات الغوص،

بذلك يمكنها معاودته مرات دونما إجهاد أو ألم. فإذا أغفلت تلك الراحة، قصرت فترة كل غوص تال، وازداد ألم رئتيها سوءًا.

تعلقت بحبل المخطاف عند سطح الماء، وسحبت أنفاسًا عميقة من الهواء الدافئ المشبع بالرطوبة. بين الحين والآخر كانت تطل تحت السطح لترى إن كان ثمة وافد جديد إلى الجبل. ربما رأت في يومها «كابريو» ذهبية -النوع النادر من المرجان- بلونها الأصفر النقي دون شائبة. ولو أن السمكة سكنت في الماء لظنتها من الذهب الخالص، ربما شاهدت سحابة مضطربة من «البراكودا»، ظهورها الفضية تلتقط أشعة الشمس وتعكسها فيضًا من إبر ضوئية.

ذات مرة رأت حوت القرش، لقاء لا يتمنى عاقل تكراره. كان رد فعلها الأول هو الصدمة، ثم بعد جزء من الثانية، الرعب. وما إن أدركت حقيقته، حتى أحست برعدة ووخز وموجة حرارة في معدتها. لقد ارتفع حوت القرش في الماء انزلاقًا شديد البطء كأنه معلق. حيوان من الضخامة بحيث تعذر عليها -في الماء المتعكر- رؤية رأسه وذيله في نفس النظرة. لكنها عرفت لونه، أصفر في لون «الكركم» تشوبه نقط سوداء. عندئذ أدركت بأنه ما من خطر يتهددها، فحوت القرش يتغذى على البلانكتون والجمبري الصغير والمخلوقات الدقيقة الأخرى. وتذكرت تحذير «جوبيم» بأنها قد تراه في تلك الأنحاء. كما حاول إعدادها للصدمة التي قد تعتريها عند أول رؤية لذلك الوحش البحري.

تخيلت «بالوما» أنه يطعن بشوكته الظهرية، أو أن أسنانه الطاحنة

تهشم العظام.

قالت لأبيها: خبرني عنه.

- لو كان فمه مفتوحًا وسبحت إليه وحشرت بنفسك داخله..

- أبي!

- لا أظن أنه سيحبك كثيرًا. سيحرك رأسه ويبصقك.

قفزت إلى أبيها وأحاطته بذراعيها، وحاولت عض رقبته.

لذا فعندما عرفت أنه حوت القرش، سبحت نحوه تقترب من أضخم الأسماك جميعًا. أبطأ الحوت حركته المتأنية، فأتيح لها لمس رأسه وتمرير يدها على تضاريس ظهره التي لا تكاد تنتهي.

لم يبد دلالة على إدراك وجودها، واستمر في تجوال كسول بدفعات هادئة من ذيله. وأخيرًا عندما وصلت لذيله كانت تشهق عجبًا، زعنفة الذيل وحدها بلغت ارتفاع «بالوما» طولًا. كانت حركة الزعنفة أمامًا وخلفًا تدفع موجات من الماء بالغة القوة ألقتها بعيدًا تتقلب عاجزة في الماء. ثم اتجه الحوت مبتعدًا خلال العتامة الرمادية الخضراء، كأنه ماض لأداء مهام محددة، أو يتبع مقررًا من خطوط السير وضعته له الطبيعة من ملايين السنين.

أطلت «بالوما» في الماء، تتردد أنفاسها خلال أنبوبة التنفس المطاطية، وتتمنى لو كانت جزءًا من عالم البحر، وليست أسيرة عالم الهواء؛ إذن لشهدت الحياة اليومية النمطية التي لا يعكر صفوها شيء، حياة دائبة الحركة دائمة اليقظة أبدية الحذر وكاملة التناسق.

ثم تغير الضغط تحت الماء، علامة على أن شيئًا ما قد حدث أو بسبيله للحدوث. تغيير طفيف في ملمس الماء حول جسدها ليصبح أشد ضغطًا والتصاقًا، كأن شيئًا هائل الكتلة والجرم يتجه نحوها بسرعة عالية.

بلا تفكير شرعت تدفع الماء بقدميها في محاولة الابتعاد عن ذلك الشيء -أيًّا كان- الذي تحسه دون أن تراه. بيد أنه بدأ كأنه يقترب ويقترب حتى بات الضغط يكاد يرفعها فوق الماء.

ثم رأته، شيء ضخم أسود اللون.

كان أكبر منها، أكبر حتى من قاربها، يحلق نحوها بجناحين يرفرفان صعودًا وهبوطًا بقوة بعثرت كل شيء حولهما. ثم أصبح بوسعها رؤية فمه، كهف أسود على جانبيه قرنان موجهان نحوها، كأنما ليمسكا بها وليحشراها في الفم الفاغر.

حدأة بحرية بالغة الضخامة، ورغم أنها عرفت بداهة ألا مبرر للخوف، إلا أنها لم تتمالك نفسها، نوبة ذعر سيطرت عليها. لماذا تتجه نحوها مباشرة؟ لماذا لا تنحرف؟

كان جسد «بالوما» يرتفع لأعلى بأثر موجة ضغط فرضتها حركة الحدأة.

تجمدت أنفاسها في حلقها، وانطلق ذهنها بشرارات تدفعها إلى تصرف سريع. فكرة تُستبعد لتحل محلها فكرة أخرى، يعود ذهنها لاستبعادها، لقد شلت حركتها.

وعندما أصبحت الحدأة على بضعة أقدام من «بالوما»، مالت بجناحيها وقوست ظهرها، فتغيرت درجة ميلها حتى بدت بطنها شفافة لامعة البياض، وعلى كل من جانبيها خمسة خياشيم هلالية كأنها شطائح من قمر الشتاء. اندفعت الحدأة تخترق الماء لترتفع فوق سطحه. مثلث كامل من اللحم ما كان له أن يطير، لكن ها هو طائر -بعد أن تحرر من البحر- متجهًا نحو السماء.

خف المشهد والمشاعر، ليحل الصوت محلهما، فقد دوى زئير كثيف يصم الآذان، هدير شيطاني يغطي المنطقة، كصوت الريح في قمة إعصار.

ارتفعت رأس «بالوما» تتابع الحدأة وهي تحلق عاليًا، وتقطر ماسات من قطرات الماء. وعندما بلغت أوج صعودها تعلقت مكانها لجزء من الثانية -عملاقًا جبارًا مضيء السواد، تحيطه الشمس بهالة من الذهب، ثم هوت، تلطم بجسمها وجه البحر، فانفجر الماء بعنف الرعد الطائش يتصدع السحاب من حوله. عندئذ فقط استطاعت «بالوما» أن تطلق زفيرها المحتبس، كالخرير من شدة الإثارة. لقد رأت من قبل حدآت تقفز، خصوصًا الصغيرات منها، عامة في الشفق ودائمًا على مسافة منها. كانت الحدآت تتقلب دورات حول نفسها فيما يشبه السعادة، لكن الحدآت لا تشعر بالسعادة، فأهالي الجزر يطلقون عليها «العجوز»، والكلمة تعني الوضاعة والبدائية والغباء. وهي بذلك مع القرش أبناء عمومة. ومن شأن الحيوان العجوز ألا يعرف السعادة والألم والبهجة والحزن. عقولها فعالة، لكنها صغيرة ومحدودة القدرة.

و«بالوما» تتفق مع معظم الرأي، حيث علمها «جوبيم» خطأ التفكير في الحيوانات على أسس آدمية. إلا أن ذلك يحرم الحيوان أهم خواصه، شخصيته الفردية ومكانته في الطبيعة.

كذلك كان «جوبيم» يزدري بشدة من يحاول استئناس الحيوانات، وأن يجعل منها حيوانات مدللة، فيدربها على ما يسمونه «براعة البشر»، تلك -حسب ظنه- وسيلته لتجنب الخوف منها. فالحيوان الذي يتعلم المشي على رجليه الخلفيتين مثلًا، أو أن يتوسل من أجل الطعام، يبدو أقل توحشًا وتهديدًا وأقرب للبشرية. لكنه أيضًا يجعل الحيوان أقل اكتمالًا.

لكن ماذا تفعل هذه الحدأة؟ لماذا قفزت إلى جوارها، بينما البحر خال لأميال حولها؟

حكماء الجزيرة يقولون بأن الحدآت تقفز فوق الماء للتخلص من الطفيليات -الحيوانات الصغيرة التي تلتصق بالحيوانات الأكبر لتتغذى عليها- بعض الطفيليات صغار، كسرطان البحر الصغير والقوقع الحلزوني والديدان، فهي تحفر ثقوبًا في بدن الحدأة لتتغذى على لحمها، ثم هناك ما يُسمى «بالقمل» له ماصات في رأسه تثبته إلى الحيوان المضيف، تلك الأسماك ليست بالطفيليات، لكنها أقرب إلى المتسلعة، فلا تسبب ضررًا للحدأة، بل تتغذى على فتات الطعام المتناثر.

وحسب إيضاح «جوبيم»، القفز في الهواء يحرم الطفيليات من أكسجين الماء، وصدمة نقص الأكسجين المفاجئة تجعلها تتهادى. فإن لم تطردها تلك الصدمة وحدها، فلطمة الماء تلقي بها بعيدًا.

واقتنعت «بالوما» بصحة كلام «جوبيم». غير أنها لم تر طفيليات على تلك الحدأة، بل اتسمت قفزتها بروح العنف والثورة والطاقة.

وحكمة الجزيرة من الحدآت دائمًا ما حثت «بالوما» على خشيتها، قيل إن بعض الصيادين المهملين افترستهم الحدآت، بل صاروا يهددون الأطفال العصاة بإلقائهم وسط تجمع الحدآت.

ثم تذكرت «بالوما» يومًا من أشهر مضت كانت تغوص فوق الجبل عندما رأت حدأة بحرية قرب السطح. كانت تحلق في الماء برشاقة الصقر، فترتفع وتنخفض في التيارات المائية. وتذكرت دهشتها عندئذ، فما من مخلوق حول الجبل أبدى خوفًا من الحدأة. لم يندفع أحدهم بعيدًا عن طريق الحدأة، أو يولي هاربًا إلى الحماية بين الصخور. لاح على الجميع أنهم يعرفون أن الحدأة تتفاداهم، فترفع جناحًا وديعًا لتمر فوق زوج من سمك التونة، أو تخفضه لتمر تحت سرب من الأسماك.

عند حافة الجبل كان الماء رماديًّا عكرًا إثر مرور تجمع كبير. ذلك بالتالي علامة وجود سحابة «بلانكتون» جرفها التيار السفلي إلى الماء الضحل. اتجهت الحدأة إلى البلانكتون، ومع اقترابها عادت الدهشة تصيب بالوما. قرناها الرهيبان انبسطا وظهرت حقيقتهما، زعنفتين خفاقتين، نشرتهما الحدأة واستخدمتهما كالأذرع تجرف بهما الماء الغني «بالبلانكتون» نحو فمها. عادت الحدأة تمر خلال سحابة البلانكتون ثلاث مرات، ثم لاح عليها أنها اكتفت، فطارت محلقة إلى أعلى.

والآن «بالوما» متعلقة إلى قاربها، تحس بعودة نبضها إلى طبيعته وانتظام تنفسها، تنتظر إذا ما عاودت الحدأة القفز، أرادت رؤيتها تشق سطح الماء، وسماع زئيرها، ومعايشة تجربة الانفجار مرة أخرى. وبعد بضع دقائق -عندما لم تظهر الحدأة- وضعت «بالوما» وجهها تحت سطح الماء ودارت دورة كاملة. لا بد أن الحدأة غاصت للأعماق، فقد عادت الحياة حول الجبل إلى سابق عهدها.

قررت «بالوما» معاودة الغوص للقاع.

أخذت أنفاسًا عميقة، وأسرعت تهبط على حبل المخطاف، وعندما أدركت نفس الصخرة عند القاع، أحكمت ساقيها حولها. توقعت -نصف توقع- أن تجد القاع مختلفًا، كأنما تسببت حركة الطيران فوق الماء، في تغييرات تحته. لكن كل شيء ظل على حاله، نفس الأسماك ماضية في «دورياتها» حول نفس الصخور، نفس الثعابين مطلة برأسها من نفس الشقوق، وأسراب بذاتها تتسابق إلى الطعام ذاته.

تغيير واحد حدث، رغم حتميته جعلها تستشعر الأسى، سمكة «القادوح» ظلت على حالها تندفع جيئة وذهابًا، إلا أنها صارت وحيدة، ما من شيء يهاجمها ولا من يسخر منها. لكن تحركاتها اختلفت عما كانت عليه، فأصبحت أقل عدوانية وأكثر يأسًا. وما كانت «بالوما» في حاجة لأن تلحظ أن بيض السمكة اختفى أخيرًا، وأنها تبحث عنه في هياج يائس.

مرت سمكة أخرى أمام قناع «بالوما» بطيئة، سمكة بدينة لها

زعانف صغيرة، صغيرة جدًّا بالمقارنة بجسدها. انتظرت حتى أصبحت السمكة على بُعد بوصات منها، ثم مدت يدًا تقبض عليها. واحتجزتها في قبضة خفيفة وهي تتوقع ما سوف يحدث. ناضلت السمكة لثوان قليلة، ثم شرعت تنتفخ، تمامًا كالبالون. وانتصبت تضاريس ظهرها لآخرها لتصبح أشواكًا بيضاء صلبة، وتقوس فمها وارتدت عيناها داخل الجسد المنتفخ، ثم أخذت زعانفها -التي بدت سخيفة المنظر إلى جانب جسدها- ترفرف في غضب. تقاذفتها «بالوما» بين يديها كالكرة لدقيقة، ثم قربت الوجه المنتفخ إلى وجهها، لم يعد للسمكة مزيدًا من المقاومة، فقد بذلت كل ما أمكنها دون جدوى؛ لذا امتثلت تبادل «بالوما» النظر. ثم أطلقتها برقة في الماء، فاندفعت مبتعدة. وعندما اقتربت من حمى الصخور بدأ انتفاخها يزول تدريجيًّا، واسترخت الأشواك على ظهرها وتهدلت إلى التضاريس السابقة، وما إن بلغت شقًّا مألوفًا، حتى كانت قد عادت إلى حجمها المألوف، فتسللت آمنة إليه.

عاد النبض يدق من جديد في صدغي «بالوما»، دقات لا زالت خافتة لا تدعو للعجلة، وأنه ما زال أمامها وقت كافٍ للوصول إلى السطح. إلا أنها بطبعها -وبتدريب «جوبيم» لها- كانت ضده. الأفضل أن يكون لديها هواء أكثر من كاف لبلوغ السطح، من أن يكون كافيًا فقط وهي ما زالت تحت الماء، لذا فقد رفست القاع بقدميها، فارتفعت مارة بحائط الصخر والشعاب المرجانية.

بعد ارتفاع عشرة أقدام رأت محارة ملتصقة بأسفل صخرة معلقة،

مدت يدها تستل السكين من الحزام عند ظهرها، وبلفة من رسغها استخلصت المحارة.

أصبح الدق عاليًا في رأسها، يستحثها للإسراع إلى حيث تنتمي. ما دامت قد تمنت لو كانت لها خياشيم مثل الأسماك تستخلص بها الهواء من الماء. بيد أنها في تلك اللحظة ما كانت تبغي سوى شيء واحد، الهواء. ضربت بقدميها بشدة في الماء، فدفعتها ساقاها القويتان بسرعة إلى أعلى، حتى التصق شعرها بزجاج القناع، وانبثقت من السطح، فبصقت الماء وأخذت شهيقًا عاجلًا وطويلًا، ثم تعلقت إلى جانب القارب، وأخذت تتنفس بعمق حتى سرى الأكسجين يغذي جسدها. ألقت المحارة في القارب، ورفعت نفسها من الماء لتستلقي على أرضية القارب في مواجهة الشمس ودفئها. سرعان ما سرى الدفء إليها فجف بدنها. قطعت ثمرة المانجو بسكينها وأكلت لحمها السكري، ثم ألقت بالبذرة في الماء وراقبت بانتباه سربًا من الأسماك المخططة يلتهمها. وأسماك «الرقيب» تعيش في كل مكان (سميت بالرقيب لوجود ثلاثة خطوط سوداء على جسدها الأصفر)، تعيش فوق الشعاب المرجانية والصخور، وفي المياه العميقة والضحلة، كانت تظهر بغتة كأنما من فراغ، عند أبسط أثر لطعام، مهما كان نوعه، فهي تأكل الفاكهة والعظام والحبوب والخبز واللحم والخضر والنفاية والورق. وبين الحين والآخر أيضًا «تنقر» قدمي «بالوما». وهي أسماك جسورة ونهمة وسريعة، وطريفة أيضًا ما دامت هي صغيرة. لكن سمكة «رقيب» بالغة قد تصل إلى مائة رطل، وتشكل ذعرًا حقيقيًّا. وتركت خيالها يجول أبعد، فتخيلت سمكة «رقيب» في

حجم حوت القرش. ووجدت نفسها مبهورة مرة أخرى بدقة الميزان الذي استنته الطبيعة لمخلوقاتها عبر آلاف السنين.

التقطت المحارة المتموجة بيد، وبالأخرى أرادت دفع طرف السكين في الفتحة بين الصدفتين، والمحار يختلف عن باقي الصدفيات التي يسهل فتحها بدفع السكين ولفها، فالمحارة طرفها متعرج وتغطيها نباتات زلقة، إذا لم يتوخ المرء بالغ الحرص، فقد يطعن راحة يده فينزف الجرح، ولا يستطيع الغوص مرة أخرى في ذلك اليوم، والاحتمال الأكبر أن يتلوث الجرح، فلا يمكن الغوص لعدة أيام، وربما أدى للمرض والبقاء في السرير، أو حتى رؤية الطبيب في «لاباز». المهم إذن التزام جانب الحذر عند فتح المحار.

بحثت بصبر حول ملتقى الصدفتين حتى وجدت مكانًا لدفع السكين فيه، وأحست بالسكين يلمس العصب الذي يمسك الصدفتين ببعضهما، فحركت السكين ببطء تقطعه.

معظم سكان الجزيرة لا يأكلون المحار، ويعتبرونه غير مأمون. فبعض من تناوله أصيب بمرض شديد في أمعائه، وعلى مر السنين مات بعضٌ آخر بسببه. والواقع أنه لو ترك المحار طويلًا في الشمس لمات سريعًا ولتلف على الفور. والمحارة التالفة هي طبعًا تذكرة دخول المستشفى في «لاباز». أما الطازجة -لتوها من البحر- فهي ترف شهي، طعام غني ونظيف ومملح.

قطعت «بالوما» العصب وفتحت المحارة، وهي تعلم أن ذلك النوع أشهاها.

في داخل المحارة، بين ثنايا اللحم الرمادي، كانت الجائزة مجمدة، وغير مستوية الاستدارة، ومبرقشة اللون، ولا يزيد حجمها على نصف ظفر «بالوما» الصغير، لكنها لؤلؤة على أي حال.

استخرجت «بالوما» اللؤلؤة من الصدفة، ودحرجتها في راحة كفها.

الآن أصبح لديها سبع وعشرين.

لقد استغرق جمع اللآلئ الأخرى أكثر من سنة، لكن تقدمها ظل مطردًا، بتقدير نسبي، بمعدل لؤلؤتين شهريًّا. ومع ذلك فقد مرت أكثر من ستة أسابيع منذ وجدت الأخيرة. كانت قد بدأت تتساءل ما إذا كان الجبل لا يضم سوى ست وعشرين محارة تحمل لآلئ.

أربعون لؤلؤة على الأقل تلزمها، الأنسب خمسون.

ومع وصول الرقم إلى سبع وعشرين تجدد أملها، أقفلت قبضتها على اللؤلؤة الصغيرة، وتوجهت ببصرها إلى السماء قائلة: شكرًا.

كان شكرها موجهًا بشكل مبهم ومركز إلى والدها. هي تعلم أنه ميت، لكنها ترفض أن يعني الموت نهاية أزلية. كانت تشعر بالوحدة وتحتاج أباها، لذا فقد صاغت في ذهنها وجودًا له. لم تفكر فيه حيًّا، ولكن -ببساطة- على أساس وجوده في مكان آخر، وما زال متاحًا لها أن تحدثه وتسأل عنه وتشاركه خصوصياتها، طيلة حياتها كان الوحيد الذي استراحت إلى مشاركته.

ولقد أعانها الإيمان بوجود والدها في مكان ما «بالنسبة لها حقيقة

لا تقبل الجدل». لم تسمع صوته، ولكنها أحست براحة للحضور المتعاطف الذي يستمع بحنان لمشاكلها، فلا يبدي موافقة أو اعتراضًا، ولا ينتقد أو يمتدح. وبشكل ما فإن إدراكها للأحداث والبدائل على تلك الصورة أصبح هاديًا ومعينًا لتحديد اتجاهاتها وإيجاد الحلول لمشاكلها.

بالطبع أحست أحيانًا بأنها بلهاء، وأنها محظوظة حيث لم يرها أحد تحدث الريح أو السماء أو غرفة مغلقة. لكنه كان هناك، أيًّا كان ما أرادته أو خططت له، فلا يهم. المهم أنه هناك، على أي صورة أو في أي مكان.

المؤكد أنها افتقدت أباها، ولا بد أنه يفتقدها هو الآخر، كلاهما فريق واحد.

وقبل وفاة «جوبيم» بقليل أشركها في سر.

خلال أشهر قلائل يحل العيد العشرون لزواجه «بميراندا»، وأراد أن يهدي زوجته هدية ذات قيمة معينة، ولأنه لم يملك مالًا أكبر مما يلزم مأكلهم وملبسهم، فلم يكن بوسعه شراء شيئًا قيمًا. لذا قرر صنع الهدية بنفسه، وأن يصنعها في سرية تامة. لكنه لم يتصور أن يختفي الأمر هذه المرة مثلما أخفاه عن «بالوما» عندما أهداها القارب.

لذا كان لا بد أن تكون هدية صغيرة يمكن إخفاؤها لو أراد إتمام المفاجأة.

ثم الهدية نفسها، هل هي حفر على الخشب، أو شكل من الفخار،

أو تصميم من الأصداف؟ أي رجل بوسعه الحفر على الخشب أو جمع الأصداف.

إذن لا بد من هدية هو وحده القادر على تنفيذها، حتى تكون من القلب إلى القلب.

وذات يوم وجد جواب، اللؤلؤ، عقد من اللآلئ الطبيعية، من بين كل رجال الجزر، هو وحده و«بالوما» التي تعلمت على يديه، الذي تمسك بالمهارات القديمة، من غوص للبحث والتعرف وجمع محار اللؤلؤ وفتحه. لقد حافظ على تلك المهارات من أجل هوايته ومتعته، فما عاد صيد اللؤلؤ مجزيًا. حقول اللؤلؤ استنزفت من أكثر من جيل، وحتى إن عاد الصيد مجديًا، فقد اختفى سوق اللؤلؤ الطبيعي، وفضل الناس عليه اللؤلؤ المزروع، فهو أكمل استدارة وأجمل رونقًا. لم يكن «جوبيم» يحب اللؤلؤ المزروع، ودائمًا ما قال «لبالوما» إنه أجمل ويأتي أيضًا من البحر، وأنهم يصنعون منه عقودًا جميلة، لكنه ليس طبيعي. هناك من يحاول إدخال التحسينات على الطبيعة، لكنها تأتي المعجزة تلو الأخرى. لن يستطيع بشر تحسينها، الله وحده يملك تغييرها إن أراد.

واصطاد «جوبيم» خمس لآلئ قبل وفاته، لكنه أيضًا ساعد «بالوما» على تنمية مهارتها في صيد اللؤلؤ. لذا فقد عاهدت نفسها بإكمال ما بدأه أبوها – استكمال العقد.

هي و«جوبيم» بدآ أمرًا، ومضى هو قبل إتمامه، فبات عليها أن تستوفيه له.

وفكرت كثيرًا في وسيلة تقدمه لأمها، لم تشأ أن تبدو مغرقة في العاطفية، لكنها من جهة أخرى أرادت أن تعرف «ميراندا» بأن العقد هدية «جوبيم»، ولا أهمية لمن جمع أغلبية اللآلئ.

وأحد دروس «جوبيم» المبكرة لطفليه أن الصدق دائمًا يفضل على الكذب، ليس لمجرد الدافع الخلقي، ولكن أيضًا لأن الحقيقة هي التي يسهل تذكرها.

لكن الحقيقة ما كانت مرغوبة في هذه الحالة، لذا عزمت على نسج أبسط كذبة ممكنة، فتقول لأمها إن أباها جمع اللؤلؤ وخبأه لحين نظمه عقدًا قبل يوم الاحتفال.

ثم تقول لأمها: حمدًا لله، لقد جعلني أقسم على بقاء الأمر سرًّا، لكنه دلني على مكانه، فربما حدث شيء.

حينئذ تعم السعادة والحزن والحنين، لكن المهم «لبالوما» ألا تتركز المشاعر حولها، بل أن تتجه إلى أبيها، إلى ذكراه، أو روحه، أو أي صورة ما زالت «ميراندا» تحفظها له في قلبها.

دست «بالوما» اللؤلؤة في شرخ ضيق بين الخشب على جانب القارب حتى لا تتدحرج أو تسقط مع تمايله، ثم رقدت تستريح بعض الوقت، لو أنها غاصت بعد الأكل مباشرة لأصبحت عرضة لتقلص أليم في جانبيها، وربما صعدت الصفراء إلى حلقها، وذلك بالغ الخطورة ومدعاة للذعر. إذا ما ارتفعت الصفراء لأصبح القيء محتمًا، وليس أسوأ من القيء في الماء، فرد فعل طردها هو شهيق لا إرادي يحمل الماء المالح إلى رئتيها، وبالتالي سعال عنيف، ثم شهيق

آخر أشد يؤدي للغرق.

غلبها النوم، وعندما استيقظت بعد أقل من نصف ساعة، تذكرت بوضوح أنها رأت حلمًا عن طائر «نورس» يحوم ويحوم حول قاربها وهو يضحك منها.

راودها فضول بأكثر مما أحست بقلق، فما كانت لتنسب شيئًا مطلقًا لأحلامها، فيما عدا رؤاها عن أبيها، أحيانًا ما أقلقتها، فلم يكن بوسعها الفصل بين تفاصيل حلمها، وتلك التي حدثت في الواقع.

انزلقت «بالوما» من الجانب، ونظفت قناعها، ثم أخذت أنفاسًا عميقة، وبدأت الغوص على حبل المخطاف، وتوقفت بعد عشرة أقدام من السطح.

هناك خطأ ما، لقد تغير الحبل، بل فقدت الاتجاه. هل المشكلة في بصرها؟ هل مر وقت أكبر مما تصورت؟ لم يعد المنظر كما كان. قطاع كامل من الجبل غطاه السواد.

أغمضت عينيها، وأجبرت نفسها على التزام الهدوء حتى تفصل بين الصور المتداخلة. وعندما تمالكت جأشها فتحت عينيها وعادت تنظر إلى أسفل، حينئذ عرفت سبب ارتباكها.

تحتها بما لا يزيد على خمسة أقدام كانت هناك أكبر حدأة بحرية رأتها في حياتها.

تعلقت في الماء كعباءة داكنة أو ملاءة ضخمة سوداء، ومن تلك المسافة القصيرة حجبت معظم الجبل.

لم يكن قربها وحده سبب خداع بصرها، ولكن أيضًا لأن الحيوان بقي ساكنًا لا يتحرك على الإطلاق، يكن في الماء كأنه معلق من سقف خفي، ولا تبدو عليه مظاهر الحياة.

لكن لا بد أنه حي، وإلا فكيف أتى إلى هنا؟

عاودت الهبوط، وهي تتوقع أن تخفق الحدأة جناحيها استخفافًا وتولي مبتعدة. لكنها ظلت ساكنة في مكانها، وأصبح قدما «بالوما» في حدود بوصات من ظهر الحدأة، فلم تعد ترى شيئًا من الجبل تحتها كأنها تهبط إلى حقل أسود ممتد إلى مدى رؤيتها. لا بد أن عرض الحدأة تجاوز العشرين قدمًا، حيث قدرت «بالوما» أن بوسعها الرقود أربع مرات متتالية عبر جناحيها، ولا تجتازها من طرف جناح لآخر.

قالت لنفسها: لا بد أنها الحدأة الأكبر لكل الحدآت. لماذا تنساق مع التيار؟ لا بد أنها تموت!

كان على «بالوما» الصعود طلبًا للهواء، فشرعت ترتفع بأقل حركة ممكنة. ومع زيادة المسافة بينها وبين الحدأة اتسع مدى الرؤية ليشمل الحيوان بأكمله، ورأت سبب تصرفها غير الطبيعي.

أشياء طويلة ورفيعة تتدلى منها، وأخرى مسحوبة خلفها.

شق وجهها الماء، فتنفست عدة مرات كل مرة أعمق من سابقتها، ثم سحبت شهيقًا أخيرًا أحست معه أن الهواء يكاد يصل إلى قدميها. ثم عادت تغوص.

كانت الحدأة في مكانها ساكنة، اقتربت منها هذه المرة من الأمام

وعلى الفور عرفت السبب.

خلف القرن الأيسر كان لحم الحيوان مشقوقًا بجرح ممتد وعميق، وانغرست فيه أحبال بها عقد مغروسة هي الأخرى في اللحم الممزق، وأطراف الأحبال مدلاة حرة كالذيول.

لا بد أن الحدأة وجدت نفسها في شبكة ضخمة فتولاها الفزع، وانطلقت هائمة تتخبط بشدة لتتحرر، فدفعت جسمها الهائل ضد الأحبال المشدودة، لتزداد الأحبال تعمقًا داخل اللحم، وأخيرًا مزقت الشبكة وفرت تاركة خلفها -دون شك- صيادًا حانقًا يلعن حظه البائس، ويقسم على أن الحدآت كلها أسماك شيطان تستحق الموت. بيد أن انتصار الحدأة كان وهمًا، فهو حكم عليها بالموت. لطالما رأت «بالوما» الكثير من الحيوانات الجريحة من أثر السنارة، أو الجروح في جسدها، أو مكشوطة الجانب أو معضوضة. ليس في البحر وقت لهدنة ولا مجال لشفقة. الجرح أنهك الحدأة، ولأن الأحبال بقيت دفينة في اللحم الملتهب، فما كانت ثمة فرصة لبدء الالتئام. ولم تعد الحدأة قادرة على تعقب طعامها، فنقص ما تأكله كثيرًا عما يلزمها، وكلما قل طعامها ازدادت ضعفًا، وكلما ضعفت نقص طعامها.

وقبل مضي وقت طويل تبدأ الحدأة في إرسال إشارات صامتة بعذابها ويأسها، فتستقبلها كل الحيوانات الأخرى في الجبل، وتفهم معناها، خصوصًا الحيوانات الأضخم، الضواري.

تأتي الأسماك الصغيرة، الشرهة منها أولًا مثل سمكة الرقيب. تفسير الإشارة أن بوسعها -آمنة- أن تنهب أجزاء اللحم الميت في

الجرح الغائر فيزيد اتساعًا.

وتزداد الحدأة ضعفًا. شيئًا فشيئًا تبدو -وتكون فعلًا- أقل إثارة للخوف. ولأن مراكز الحس فيها لا تعرف الخداع البشري، فإنها تستمر في إرسال إشارات تجعلها أكثر عرضة للهجوم على نحو متصاعد. بذلك تنتحر الحدأة دون قصد.

وتتجمع القروش، تحوم حولها دوائر على مسافة، ومستقبلاتها تفسر كل إشارة جديدة، حتى يتقدم إحداها -ربما جائع أو هائج، وربما مجرد جريء- فيكسر الدائرة ويندفع كالسهم ليلتقم قطعة مهلهلة من اللحم. بعدها تصبح النهاية سريعة، فورة دماء وسحابة أشلاء اللحم والأعصاب.

سمعت «بالوما» النبض في صدغيها وهي تهبط نحو الحدأة. لقد عرف الحيوان بوجودها، فتتبعتها عينه من تحت الجرح الكبير. لكنه لم يتحرك.

قوة اندفاعها جعلتها تتعدى الحدأة، تتعدى رأسها، مدت يدًا لتوقف الاندفاع، وانقبضت أصابعها حول نتوء صلب فوق الفم وبين القرنين. كان ملمس اللحم صلبًا مثل العضلة المشدودة، لكنه زلق تغطيه مادة مخاطية لزجة. لم يضايقها الملمس الغريب، فقد مست أسماكًا كثيرة وعرفت تلك اللزوجة، إنها درع يحمي من البكتيريا وغيرها في الماء الغني بالأملاح، فلا تصاب السمكة بالمرض.

علمها «جوبيم» أن عليها -إن صادت الشبكة سمكة لا تحتاجها وأرادت تحريرها- أن تنتبه كيلا تزيل أصابعها الطبقة الواقية على جلد

السمكة. لو أزيل الدرع المخاطي، فإن البقعة تتقرح، وبوسع أي من القوارض اكتشافها، ومن ثم الاستقرار فيها والبدء في النخر. السمكة التي تتداولها الأيدي قبل إطلاقها تفقد فرصتها في البقاء.

حدثت «بالوما» نفسها: إنها لا تخشاني. ولماذا تخاف مني؟ إنها لا تعرف أعداء. لكني حيوان غريب يلمسها، وليس ذلك بالأمر الشائع في الطبيعة، أن يسمح حيوان غير أليف لغيره بلمسه على تلك الصورة، لكن الحدآت تتعايش مع العوالق الملتصقة بها وتسحبها معها. ربما رأت الحدأة أني مجرد أحد العوالق الكبيرة.

التيار المائي القوي جعل «بالوما» تثبت في وضع أفقي، وزعنفتا القدمين ترفرفان كعلم في مهب الريح. بيد أن الحدأة -بوسيلة ما- استطاعت البقاء ساكنة تمامًا في التيار القوي دون أن يبدو عليها أثر جهد. ولو أن «بالوما» أرخت قبضتها لجرفها التيار.

عندئذ مدت يدها الأخرى تمسك بنكس العضلة الناتئة، وتثنت ركبتيها لتركع فوق ظهر الحدأة. كان ملمس جلدها هو نفس ملمس جلد القرش، ليس جلدًا متصلًا، إنما أقرب إلى سجادة من ملايين النقاط كالأسنان لدقيقة كلها تتجه للخلف. ولما مررت «بالوما» يدها على الجلد من الأمام إلى الخلف، كان ملمسه في نعومة الشحم على وعاء خزفي. لكنها تقدمت بركبتيها إلى الأمام، عندئذ كان ملمس الجلد «كالسنفرة» الخشنة أحدث كشطًا بركبتيها.

أصبح الشق البشع في متناول يد «بالوما» اليسرى، كانت بعض الأحبال ذات العقد مدفونة لعدة بوصات، ومعظم اللحم بقي على لونه

الرمادي الأبيض، والباقي تراوح لونه بين القاني والأصفر.

ذات مرة قبل رحيل «جوبيم»، اجتاحت الجبل كائنات غريبة هاجمت أسراب ذكور الأسماك، وأحدثت قروحًا بأجنابها. أمسك «جوبيم» بسمكة مصابة وعرضها على «بالوما»، وأشار إلى درجات اللون في لحم السمكة، الرمادي الأبيض لون طبيعي، والأرجواني يعاني الالتهاب، أما الأصفر فدلالة على تكون مادة تشبه الصديد، أي أن الأجهزة الدفاعية في جسد الحيوان قد نشطت.

بعض الأحبال التفت حول الجرح كالأفاعي، وتدلى الباقي منها يدفعه التيار خلفها.

تساءلت بالوما: هل تشعر الحدأة بألم؟ لا بد. ربما كان ذلك سبب تجمدها دون حراك. الحركة تدفع الحبال وتحركها وتقلقها، فتصبح أكثر إيلامًا.

شددت قبضتها على النتوءين بين القرنين بيمناها، وأطلقت اليسرى تمتد إلى الحبل المحشو قرب سطح الجرح. خليط من فوضى العقد والالتواءات تتحرك مع اندفاع التيار خلالها.

حثت نفسها على الإسراع، مثلما يفعل الطبيب عندما يحقن المريض، عليها الإمساك بالحبل وشده خارج الجرح والتخلص منه، كل ذلك قبل أن تدري الحدأة ماذا يحدث.

لفت أصابعها حول فوضى الأحبال، وأحكمت قبضتها حول ما استوعبته، ثم انتزعت بأقصى قوتها، وكأنما أدارت المفتاح الذي

يطلق الحدأة من عقالها، اندفعت على الفور تضرب بجناحيها معًا، وتخفي دمامة هائلة ألقت «ببالوما» من فوق ظهرها تتقلب رأسًا على عقب.

الزمن الذي تطلبه وقوفها واعتدالها ومسح قناعها، ثم انتظار عاصفة الفقاقيع أن تنجلي، كانت الحدأة فيه قد حلقت مبتعدة إلى ظلمة الماء، وبقية الأحبال ترفرف خلفها. لم تأت بصوت ما، لكن «بالوما» تخيلت سماع صيحة ألم مفعمة بالعذاب تملأ أذنيها.

ركلت الماء في طريقها للسطح، وما زالت يدها قابضة على أحبال تتعقبها. تمنت لو أتيح لها الوقت لنزع المزيد. وحداها أمل جارف بأنها -وقد أزالت بعضها- قد زادت من فرصة الحدأة في البقاء.

* * *

- ٤ -

كانت الشمس في كبد السماء عندما غادرت «بالوما» الجبل وطفقت تجدف عائدة.

كانت مكدودة وجائعة ومقرورة، وفوق ذلك تشعر بالوحدة.

تناقض غريب، كلما كان يومها أفضل عند جبل الماء، زادت وحدتها عند النهاية. ولأن اليوم سادته الإثارة، فقد خيمت عليها وحدة ثقيلة.

لم تكن المشكلة في أن تجاربها تتم لها وحدها، فهي تحب الانفراد بها. لكنها لن تجد أحدًا في الجزيرة تشاطره أحداث يومها وعجائبه عندما تعود. ما من أصدقاء يفهمونها، ولا أخت أو ابنة عم تأبه لما تفعله. الواقع أن الجزيرة خلت ممن تستطيع مشاركته تجربة الجبل أو ما فعلته طوال يومها في القارب.

والأغرب هو عدم وجود فتيات من سنها بالجزيرة! لماذا؟ لا أحد يعلم. إحدى خصائص الطبيعة؛ هناك فتيات كثيرات يكبرنها بعدة أعوام، بل وأصبحن زوجات وأمهات، وهناك شبان كثيرون. لكن لا فتيات من سنها، أتاح لها سنها تفهم مشاعر الوحدة، فكانت وحيدة. بالطبع أمها هناك، غير أنه ثمة حدود لما تستريح للحديث عنه معها، وحدود أيضًا لما ترغب «ميراندا» سماعه.

اشتدت «بالوما» في التجديف تخفيفًا للوعة الوحدة، أو محوها بالقوة العضلية. كذلك أرادت الإحساس بالدفء، فقد سرت القشعريرة إلى ذراعيها، وانتصبت الشعيرات الصفراء الخفيفة عليهما.

وهي لم تعان أبدًا من برودة الماء، وكان دافئًا فعلًا، لكن دفئه لم يتجاوز حرارة جسدها، ولذا فإن قضاء بضع ساعات فيه كان مهمًّا لتخفيف الحرارة في داخلها.

وطالما قال «جوبيم»: ليست هذه بالبرودة، بوسعك الحياة أسبوعًا في هذا الماء.

وأضاف مبتسمًا: هذا ما لم تُنضج الشمس لحمك، أو يأكلك شيء.

لكن البرودة لم تكن مريحة.

كان بوسعها دائمًا هزيمة البرد وتخفيف جوعها في نفس الوقت، لو زادت من وزنها، طبقة شحم هي بمثابة عازل جيد، لكنها أبت البدانة أو الزيادة في وزنها طالما لا ضرورة لها. لو أصبحت بدينة لبطؤت حركتها ولولت خفتها ورشاقتها إلى غير رجعة. والأسوأ هو أن البدانة علامة على أنها باتت تمامًا مثل كل نساء قرية «سانتا ماريا».

بالنسبة لهن البدانة دليل على التقدم الطبيعي في الحياة. كفتيات كن رشيقات، ثم مع بداية العشرينيات من أعمارهن صرن ممتلئات. ومن منتصف إلى أواخر العشرينيات أصبحن مكتنزات. وفي الثلاثينيات أمسين بدينات. ثم في الأربعينيات بتن كالجبال (أم «بالوما» كانت

على أبواب الأربعينيات، وخلال السنوات القلائل السابقة اختفى قوامها تدريجيًّا، وضاعت ثناياه في جذعها). أما أولئك اللائي عشن حتى الستين أو السبعين، فقد عدن للانكماش إلى نحافة كلب الصيد. رأت «بالوما» في نفسها اختلافًا، وتمنت ودعت وعرفت أنها متميزة، على الأقل هكذا رآها أبوها.

أشعرها «جوبيم» بالتميز. والواقع أنه أصدر مرسومًا بأن تتميز.

بعد الحادث الثاني «لجو» -أخيها- تحت الماء، الواقعة التي أقنعت «جوبيم» نهائيًّا بأن ابنه لن يطمئن للبحر أبدًا، وأنه يفضل قضاء حياته فوقه، أخبر ميراندا بأنه لا يفضل إجبار ابنتهما على المضي في مسار الأنوثة الطبيعي، ولا التقيد بالبيت والأواني ولوح الغسيل، لقد اتخذ قراره أثناء تدريبه لها، عندما اكتشف سرعتها وطبيعتها في الارتباط بالبحر حتى باتت تنتمي إليه. كان يستصحبها ويعلمها أمورًا عن البحر، ثم يدربها على تعلم البقية بنفسها. بالطبع كان عليها -أولًا وأخيرًا- المشاركة في إدارة البيت. أما كيف وماذا عليها أن تؤدي، فقد تُرك لقرارها.

حاولت «ميراندا» أن تجادل «جوبيم» كان قد استقر على رأيه بحيث تعذر الجدل معه. كذلك عرفت «ميراندا» مقدار أهمية أن يتبعه أحد ابنيه إلى البحر.

ما لم يعرفه «جوبيم» ولم تستطع «ميراندا» إقناع نفسها بقبوله، هو أنه بأخذه «لبالوما» للبحر، فقد أبعدها للأبد عن أمها. حرم «ميراندا» من العزاء الذي تمد به الابنة أمها، وحكم عليها بعزلة يومية تجلب لها

الحزن لآخر أيامها. وعندما رحل «جوبيم» كان استقلال «بالوما» قد ترسخ بحيث عجزت «ميراندا» عن تغييره مهما حاولت. أما «بالوما» فلم يعد الأمر لها استمتاعًا بطريقها في الحياة بقدر ما أصبح التزامًا نحو والدها بأن تحيا كما أرشدها. رأت حياتها في ألا يكون لها حدود. ربما كانت هناك حدود قائمة، فلو صح ذلك عليها مواجهتها، لكن الوقت لم يكن قد حان بعد.

ومع ذلك أقرت «بالوما» بمسؤولياتها نحو والدتها، وهو ما دفعها للعودة مبكرًا بعد الظهيرة، من المهم ألا يظن الناس -في عالم أمها- بأن «بالوما» تترفع عن أداء الأعمال اليومية.

قال لها «فيجو» يومًا: ربما جاز لك الصمت والعزلة، وحتى الغرابة. ربما عزاه الناس إلى فرط الحزن والأسى، وتركوه عند هذا الحد. أما إلغاء وجودك كلية، فلن يفهمه الناس ويكرهونك ويحتقرونك ويعادونك. لعلك لا تبغين أعداء بأكثر مما تطيقين.

وما كانت «بالوما» لتريد أعداء على الإطلاق؛ لذا كانت -بين الحين والآخر- تعود في وقت مناسب لمساعدة والدتها في نشر الغسيل أو إعداد الطعام أو تنظيف المنزل، إن أداء تلك الأعمال المنوطة بالنساء يستوي تقريبًا في أهميته مع رؤية الناس لها وهي تؤديها. فتقرقع النساء الأخريات بألسنتهن ويثرثرن عن كم أن «بالوما» فتاة طيبة، وكيف تحس بفداحة الكارثة التي تعانيها أمها، وبأنها قد تتحول لتصبح خير عزاء لأمها في كهولتها. وتستمر الثرثرة على ذلك المنوال.

ما كانت تفعله هو مجرد بادرة.. رمز. و«بالوما» تعرف و«ميراندا» تعرف، فلا ميراندا احتاجت عونها، ولا فعلت «بالوما» الكثير، أرادتا فقط أن تكف الأخريات عن تعاطفهن، فحمدت الأم البادرة، وزهت بوجود ابنتها معها.

وصلت «بالوما» إلى الرصيف لتجد أمها مع الأخريات يغسلن الملابس، فهناك بجوار الرصيف صخرة مستوية كالرف تنحدر نحو الماء، تتجمع حولها النساء فيغرقن الملابس ويقرعن الصابون منها بالأحجار ثم يغسلنها. وتوضع الملابس النظيفة في السلال إلى أعلى التل لإعادة غسلها بالماء العذب.

ركعت «بالوما» إلى جوار «ميراندا» وشرعت تدق الملابس. وما أبدى أحد معرفة بوصولها، وظلت النساء تثرثرن من حولها، لم يكن تجاهلًا لها، على العكس، كان قبولًا هادئًا وعفويًّا كأنها بقيت بينهن طيلة الوقت. تلك بادرتهن «ميراندا». فمعنى تحية «بالوما» وسؤالها، توجيه الانتباه إلى ما يعتبرنه غرابة تصرف «بالوما». ما من فتاة تذهب وحدها إلى البحر اليوم بطوله؛ لتفعل ما يعلمه الله وحده!

أحيانًا ما اتخذت «بالوما» مظهر الأسى الطويل، كالتشنج المستديم. ورأى الناس:

- يا للمسكينة. يحدث لها رغمًا عنها، فلنتجاهلها.

زادها سلوكهم إحساسًا بالوحدة. بيد أنها -من جهة أخرى- رحبت به، فهو يدعم شعورها بالتميز. لم تتطوع أبدًا برواية ما رأته أو فعلته خلال يومها، فما كانت معظم النساء ليصدقنها، وهو ما قد يزيد

من حرج «ميراندا». اللائي يصدقنها لم يردن سماعها، فهي تناقض كل ما عرفنه عن البحر.

كل أطفال الجزر -ومنذ مولدهم- تعلموا أن البحر عدائي. ومع أن الناس عاشوا على البحر، ولم يكن وجودهم ممكنًا منه، إلا أنهم اعتبروه دائمًا خصمًا وعدوًّا، لم تكن تلك بالنظرة المنصفة، بالنسبة «لبالوما» التي تعلمت النقيض.

ذات مرة سألت فيجو: أين ذلك العداء؟

أجاب بهزة من كتفه: موجود دائمًا. البحر لا يعطي، لكن الإنسان يأخذ منه. ربما ساعد ذلك الإنسان على الإحساس بأنه الأقوى والمسيطر، مثلما يحس نحو الدواب.

ردت «بالوما»: أظنها فكرة سخيفة.

أطرق «فيجو»: ربما هي كذلك. بيد أنها السبب الذي تسير عليه الحياة.

أما بالنسبة للنساء اللائي يغسلن ويطهين وينظفن، ولم يذهبن أبدًا فوق الماء، فالبحر شيء أجنبي، وخطير، تقطنه مخلوقات مفترسة وقذرة وسامة ومتعطشة للحم الآدمي. لكن قانعات بتلك الفكرة عن البحر، وما كن ليرحبن بما يناقضها من فتاة صغيرة.

ورغم الإثارة التي كانت تتأجج في كيان «بالوما» عند عودتها إلى الرصيف، ورغبتها في أن تقص على الجميع عجائب يومها، إلا أنها كبحت حماسها. ربما انتظرت حتى تنفرد بأمها فتخبرها.

انتهى الغسيل، فرفعت «بالوما» السلة الثقيلة بالملابس الرطبة وتبعت «ميراندا» صعودًا للتل، وغسلتا الملح عن الملابس تحت طلمبة يدوية، ثم علقتاها على حبل خلف المنزل. عملتا بصمت، لكنه صمت مشحون. أرادت «بالوما» أن تروي لأمها ما حدث مع الحدأة البحرية، ولاحظت «ميراندا» أن ابنتها لديها ما تريد روايته، وأنها تتحين مدخلًا تبدأ به.

لم تشأ «بالوما» بث الخوف في نفس أمها، لذا قررت تجاهل حجم الحدأة ومدى قربها منها، لتنس تمامًا أنها ركعت على ظهرها، وأن الحدأة دفعتها بعنف عنها. عليها التأكيد «لميراندا» بأنه ما من أحد سواها عرف بما فعلته، وما من أحد سيعرف، حتى لا تصبح موضوعًا عامًّا للثرثرة. يكفيها ما كانت تفعله كل يوم. أما العبث مع سمكة شيطان عملاقة، كفيل بوصمها بأنها ساحرة شريرة. ولقد اشتهر زوج «ميراندا» الراحل بأنه محب للمتاعب. ولديها ولد يقضي وقته في تخطيط أهوج من أجل الحصول على المال، مال يكفيه لهجر الجزيرة إلى المدرسة الصناعية في نيو مكسيسكو، الله وحده يعلم ما قد يحدث له. فإذا أضيف للاثنين بنت ساحرة شريرة، لتعدى الأمر قدرة تحملها.

انخفضت الشمس تلامس الأفق ضاربة إلى الحمرة، وهب النسيم يمر خلال الملابس المعلقة، فتصدر حفيفًا ناعمًا. استنشقت «ميراندا» الهواء وأطرقت برأسها وسعدت. كان النسيم عليلًا غريبًا.

النسيم يهب على «سانتا ماريا» بثلاث صور مألوفة، إحداها شيء

لتجفيف الملابس، والثانية لنسيم صاف، والأخيرة لنسيم طيب وعليل. النسيم الشرقي سيئ، يمر عبر المناطق الشرقية من الجزيرة الجافة المتربة، فيحمل معه التراب والأقذار، وتمتلئ الملابس الجافة بذرات خشنة تثير الحكة. والنسيم الغربي صاف، يمر فوق الماء، ويحمل معه في الأيام الجافة رائحة خفيفة للبحر. أما الأيام الرطبة فهو ثقيل ضبابًا وذرات من الملح. ولكي تجف الملابس يلزم تركها للأبد، ومع ذلك تظل رطبة. ثم النسيم الشمالي، جاف ومنعش وحلو، حيث مر فوق أعلى نقاط من الجزيرة، حيث تنمو الزهور البرية ونباتات الصبار.

تلك كلها أمور صغيرة، غير أن حياة «ميراندا» صيغت من أشياء صغيرة، حسنة ورديئة. ولأن النسيم كان لطيفًا، شعرت بالسعادة.

دخلتا المنزل، وشرعتا في إعداد النار لوجبة المساء.

أخيرًا قالت «بالوما»: لقد رأيت حدأة بحرية كبيرة اليوم.

- هذا جميل.

قالتها «ميراندا» دون أن ترفع بصرها عن الفرن، حيث انهمكت في تمهيد الرماد قبل وضع خشب جديد.

- كانت جريحة... أظنها وقعت في شبكة صياد.

كادت «ميراندا» أن تقول (هذا جميل) ثانية، لكنها بدت غير مناسبة، فقالت: آه.

- حركتها كانت صعبة، وتدلت أحبال من جراحها. لا بد أن آلامها كانت رهيبة.

هذه المرة لم تجد «ميراندا» تعليقًا مناسبًا، فهزت رأسها.

– أردت مساعدتها.. ولكن...

قالت «ميراندا»: الله يرعاها. هو الذي يحدد مصيرها.

قالتها بسرعة كأنها تبصق الكلمات بعجلة تضيف لها تأكيدًا، عسى أن تقنع «بالوما» بعدم التدخل.

كانت كشخص في مناقشة عرف أنه لن يكسبها، فقرر كمحاولة أخيرة رفع صوته.

قالت «بالوما»: إذن يبدو أنه قرر أن يدع الحدأة تموت في عذاب أو تأكلها القروش.

– إذا كانت تلك مشيئته، ليحدث.

كررت بالوما: ليحدث!

لم تكن تنوي مجادلة أمها، ذلك النوع من الجدل ليس له منتصر، مهزوم فقط.

ارتفع صوت «جو» من خلف «بالوما»: أي قصص خرافية ترويها الآن؟

كان مستندًا إلى الباب بتكاسل، وعلى فمه ابتسامة متكلفة.

لم تعرف «بالوما» قدر ما سمعه «جو»، لكنها لم ترد بحث قصة الحدأة معه، فالحيوان الضخم الجريح بالنسبة «لجو» هو مجرد سعر الرطل منه.

أطلق ضحكة نصف مكتومة، وتقدم داخل الغرفة.

- سمكة شيطان جريحة ودامية ترعاها الممرضة «بالوما»! لماذا تستمعين لتلك السخافات يا أمي؟

بدأت «ميراندا» تجيب، متظاهرة بالانهماك في الموقد: اسمع يا جو!

استدار «جو» إلى «بالوما»: أحيانًا ما أتساءل إذا كنتِ تتركين الرصيف على الإطلاق. أظنك تجلسين طيلة اليوم تخترعين الأقاصيص.

قالت «بالوما»: لتظن ما شئت.

بعد لحظة صمت عاد «جو»: هل رأيت حقًّا حدأة ضخمة؟

- نعم.

- ولم تهاجمك؟

- لا.

- لا بد أن إصابتها بالغة، فأسماك الشيطان خسيسة.

لم تشأ «بالوما» الدخول في جدل. إن أراد «جو» الاعتقاد بذلك، فلن تعترض أوهامه.

- كيف كان حجمها؟

أجابته: ضخمة. أضخم من هذه الغرفة.

أطلق «جو» صفير دهشة: لعلها تدريجًا خياليًّا.

قالت «بالوما»: أتسمعين يا أمي؟ يسمع عن حيوان جريح وعلى الفور يريد قتله.

قالت الأم: حسنًا يا «بالوما». ذلك سبيلنا في الحياة.

قال جو: وتعودين للبيت خالية الوفاض. هل سبق أن أحضرت سمكة واحدة؟

رفع أصبعه مؤكدًا: سمكة واحدة! مجرد واحدة!

- أنا...

- أنتِ ماذا؟ أنتِ لا شيء. أين كانت الحدأة؟

أشارت «بالوما» بغموض: هناك.

- هناك أين؟

- في البحر.

- أعرف أنها في البحر، ولكن أين؟

- لم يعد يهم، فقد ذهبت.

- كيف تعرفين؟

- لأني آلمتها ففرت.

- كيف آلمتها؟

لم تفكر «بالوما» قبل أن تجيب: شددت بعض الأحبال عن جرحها، وآلمها ذلك.

نهضت «ميراندا» ذاهلة: أنتِ فعلتِ ماذا؟

قال «جو»: تعنين أنك اقتربت لهذه الدرجة؟ لا أصدق!

عرفت «بالوما» أنه صدق كل كلمة: إذن لا تصدق.

عادت «ميراندا» تسأل: فعلت ماذا؟

أجابت «بالوما»: لا تقلقي يا أمي، لم يكن هناك ثمة خطر.

قال «جو»: حقًّا يا أمي، لم يكن ثمة خطر؛ لأنه لم يحدث أصلًا. بيد أنها أيقنت...

جالت «ميراندا» ببصرها فيما بينهما، وهي لا تدري ماذا تصدق. لكنها أيقنت بأن لديها ما يدعو للقلق.

لو كانت «بالوما» قد فعلت ما ذكرته، فهناك الخطر على سلامتها، فإن لم تكن، فما زال على الأم أن تخشى على ابنتها مما تفتعله من أقاصيص.

وأدركت «بالوما» ارتباك أمها، فعادت تقول:

- لا مبرر للقلق يا أمي. المهم أننا جميعًا سالمون.

ولأن «ميراندا» أرادت تصديقها، فقد آمنت لرأيها واستدارت للعمل.

لم يعد «جو» للحديث عن الحدأة. وخلال العشاء تكلم دون انفعال عن صيد اليوم، عما أمسك به وما أوشك أن يصيد، عن ارتفاع سعر التونة، وعزاه إلى قلة الأسماك التي ربما انتقلت إلى مناطق أخرى.

سأل جو: هل ترين أسماك التونة حيث تذهبين؟

- بعضًا منها.

- أكثر أو أقل من ذي قبل؟

هزت «بالوما» كتفها: نفس القدر.

- كان الواجب أن تحضري بعضًا منها.

- أنا لا أصطاد.

صمت «جو» برهة: ربما أتيت معك يومًا لإلقاء نظرة.

شعرت «بالوما» بنظام الإنذار داخلها ينطلق بأقصاه، لكنها ظلت مسترخية في كرسيها دون مبالاة.

- لا، لا يستحق وقتك.. ما من كثير.

- إذن ماذا يجعلك تستمرين هناك؟

ألقت نحوه نظرة خاطفة: أدرس مختلفة الأحوال، أمور أراد أبي أن أدرسها.

استدار «جو» قائلًا من بين شفتين مطبقتين: طبعًا.

بعد العشاء غسلت «ميراندا» الأطباق والأقداح، ومسحت «بالوما» المائدة بخرقة مبللة، و«جو» جالس يرقبها.

سادت فترة صمت قطعها جو: لقد استقر رأيي، أحب أن تعلميني الغوص.

- حقًّا؟

كانت المرة الأولى التي يسأل «جو» فيها أن تعلمه «بالوما» شيئًا

على الإطلاق.

- لماذا تريد الغوص؟ دائمًا ما قلت إنه مضيعة للوقت!

- نعم، ربما كنت مخطئًا.

نظرت «بالوما» إلى أمها وقالت: أظن أن «جو» مريض.

قالت «ميراندا» عابسة: إنه يطلب عونك، وهي بادرة طيبة.

- الآن ما قولك؟

نظرت «بالوما» إليه: لكنك تعرف الغوص. على الأقل غصت مرة.

احمر وجهه خجلًا: نعم. لكن.. المحاولة لم تنجح.

«بالوما» كانت تعرف القصة، كيف قاده «جوبيم» للغوص خطوة بخطوة، أولًا في مياه بارتفاع الركبة، ثم في مياه تصل إلى ذقنه، وبعدها في مياه فوق رأسه تمامًا، وأخيرًا في عمق عشرة إلى خمسة عشر قدمًا.

تلقى «جو» كل الدروس، وعرف كل القواعد، وفعل كل ما أمره به والده، لكنه كره كل دقيقة من المران. لم يشعر أبدًا بالاطمئنان، ولا كان على طبيعته في أي وقت، بل سيطر عليه إحساس بالتهديد في الماء العميق. ولم يجرؤ على إبلاغ والده، فرضاء «جوبيم» عنه كان أهم ما تَطَلَّبه، يليه في الأهمية أن يظل معه، وأن يمضي الأيام برفقته. الوسيلة الوحيدة لذلك كانت الغوص، لذا صمم «جو» على أن يجبر نفسه على المران.

وذات يوم أخذه «جوبيم» للمرة الأولى إلى البحر المفتوح. مضى معه إلى حيث القاع أبعد من أن يرى، حيث أراد له «جوبيم» أن يتعلم

كيف يقدر العمق بالإحساس بضغط الماء على بدنه، وقياس المسافة من تحت الماء إلى السطح.

هبطا مستخدمين حبل المخطاف، وبعد ما يقرب من أربعين قدمًا سيطرت على «جو» نوبة من خوف الأماكن المغلقة. بعض الناس يشعر بالتحرر والانطلاق تحت الماء، لكن «جو» -على العكس- شعر بأنه سجين مصيدة، كان الماء يضغط على كل أجزاء بدنه فيقيده ويرعبه. ما من قاع في اتجاه، لا تحته ولا حوله ولا حتى فوقه. كل شيء أزرق وثقيل وخانق.

لا بد أن يعود، عليه أن يصعد على الفور.

صرخ تحت الماء، ولوح بذراعيه، وأنشب أظافره في حبل المخطاف، فانحشر الحبل بين القناع وأنبوبة التنفس. وفي صراعه لتحرير نفسه ازداد الحزام المطاطي تشابكًا بالحبل.

أمسك به «جوبيم» محاولًا تهدئته، غير أن الفزع أحال «جو» بأقوى من طبيعته، فرفس أباه ولكمه، وشد القناع عن وجه.

كان حريًّا بذعره أن يتسبب في غرقهما -كليهما- لولا أن أطبق «جوبيم» بيده على عنق ولده دون تردد، وضغط حتى غاب عن الوعي، ثم أسرع به إلى السطح.

والآن، وقد تذكرت «بالوما» تلك الواقعة، لم تستطع أن تفهم لماذا -فجأة- أراد «جو» معاودة الغوص. لماذا -فجأة- ظن أن يعاوده الرعب.

لكنها قالت: لا بأس إن شئت.

- عظيم. أود معرفة كل ما تعرفينه.. باكر؟

أسرعت تقول: لا، ليس باكر، لديَّ أمور كثيرة أؤديها.

لم يكن لديها ما يشغلها، لكن «باكر» قريب جدًّا، ويلزمها الوقت لتتدبر ما عساه يخطط له. فما كانت لتعتقد بأنه يعني مجرد ما طلبه. الكثير مما أراد يناقض طبائعه.

- قريبًا إذن؟

- نعم قريبًا.

نهض «جو»، وتثاءب، ثم ألقى تحية المساء. خرج من الباب الأمامي وابتلعته ظلمة الليل. كانت غرفته عند طرف البيت، جزءًا منه، لكنها منفصلة حيث يفتح بابها من الخارج فقط. تلك إحدى الميزات التي يكتسبها الفتى ببلوغه الرابعة عشرة، وهو يجتاز الطقوس العتيقة الغامضة في التطور نحو الرجولة، بقدر ما علمت «بالوما»، كل ما حققته تلك الطقوس، أن حصل الفتيان على ميزات لم تجعل منهم رجالًا، فقط أسمتهم رجالًا.

كانت «بالوما» تشارك أمها ركنًا من الغرفة الرئيسة في البيت، لم تكن لإحداهن عزلتها الخاصة في بيتهما في أي وقت من نهار أو ليل.

حينذاك فكرت «بالوما» في مدى غرابة أن يطلب «جو» عونها في أي من الأمور. ذلك تنازل له مغزاه، وأمر رائع أن يعترف لها -وهي الفتاة- بأنها تعرف أكثر منه في أمر بتلك الأهمية؛ عليها أن تلزم جانب

الحذر، وأن تتنبه لكل خطوة تخطوها، وأن تحاول مطابقة خطاها على الشكل العام لعلاقتهما ببعضهما.

أدهشها أنها باتت تهتم حقًّا بما قد يعنيه تغير أفكار «جو». لكنها أيقنت أنه انعكاس لشعورها بالوحدة واليأس الصامت، وهي تجدف عائدة من جبل الماء.

ربما كان تطور نحو الأفضل، أن تتفق معه، وأن تقيم علاقة ربما تصل إلى الصداقة، وهي التي تمضي في حياتها دونما صداقة على الإطلاق.

* * *

- ٥ -

المرة الأخيرة التي قربت علاقتهما من الصداقة، كانت «بالوما» في الخامسة و«جو» في الرابعة من عمريهما. تلك الأيام كانا يلعبان معًا في سعادة بريئة. لكن «جو» سرعان ما وجد زمرة من الصبية يجري معهم، وأصبحت «بالوما» إما مستبعدة منهم، أو هدفًا لسخريتهم، فبدأت تكره كونها أنثى.

ثم استصحب «جوبيم» ولده، وترك «بالوما» لأمها تنشئها على شاكلتها. بذا انكمش ما بين الطفلين من أمور مشتركة أكثر فأكثر، حتى انعدم التفاهم بينهما.

ثم حدث الشرخ -رد الفعل الذي لم يشف منه «جو»- عندما أعاده «جوبيم» إلى ميراندا، وأخذ «بالوما» بدلًا منه ليجعل منها صورة فريدة في تميزها. ورغم ذلك ظلت «بالوما» فترة طويلة تؤمن بسوء طالعها لكونها فتاة، وأمضت مدة ترتدي ملابس الصبية وتقص شعرها مثلهم. تعلمت أن تضحك للنكات التي أطلقوها عليها، وكأنها تضحك من شيء بعيد عنها.

كانت تقول: من المضحك حقًّا أن أكون فتاة، شيء أبله حقًّا. لن أظل فتاة طويلًا، وسوف نضحك عندئذ على ما كنت عليه.

ولم يفهم «جوبيم» -بصفته ذكرًا لم يرد أن يكون شيئًا آخر- أبعاد قلق «بالوما» وارتباكها، لكنه كون فكرة عامة عن السبب. حدس أن مصدره كونها فتاة وحيدة من سنها على الجزيرة، وأن مشاعرها عن نفسها وجنسها ارتبكت واختلطت عليها.

إذن فقد أخذها «جوبيم» معه للصيد. كانت صغيرة لم يسبق لها الذهاب للبحر، والواقع أنها نادرًا ما ركبت قارب «جوبيم»، سوى خلال رحلات العطلات لزيارة أماكن توالد سبع البحر، وبعض رحلات التسوق إلى «لاباز».

كانا وحدهما في القارب، والإثارة تملؤها. ولم تسأل عن سبب إعفائها من واجباتها المنزلية، أو إلى أين يتجهون؟ هي في البحر مع والدها، وهذا يكفيها. آخر ما كانت تفكر فيه، أنه قصد بالرحلة تغيير نظرتها إلى نفسها.

كان البحر هادئًا كالمرآة، أملس كالزيت، ولاحت تموجاته الهينة كانتفاضات على طبقة من الحلوى الهلامية (الجيلي). وركعت «بالوما» على المقعد الأمامي تتدلى من مقدمة القارب، وترقب المقدمة الخشبية المدببة تشق الماء كالنصل في الجسد. تخيلت سطح البحر جسد سمكة ضخمة، ومقدمة القارب سكين يشقها لشرائح استعدادًا لبيعها.

ألقى «جوبيم» مخطاف القارب، وظنت «بالوما» أنه منتصف المحيط. والواقع أن القارب كان فوق جبل الماء مباشرة، لكن «بالوما» التي ما سبق لها الغوص تحت الماء، ما كانت لتعلم بأن قاع

البحر هو امتداد طبيعي لمختلف التضاريس على اليابسة. كل ما ظنته أن القاع بعيد وخطير، مثل الموت.

وضع «جوبيم» الطعم -نصف سمكة «مكرونة» في سنارة كبيرة، لكنه لم يدل بالخيط إلى الماء. بدلًا من ذلك، أعطاها قناع غوص وأنبوبة تنفس، وطلب أن تلبسهما، وقناعه هو نفسه مستند إلى جبهته. طلب منها القفز من القارب والتعلق بحبل المخطاف.

صدمت «بالوما: هنا؟ في منتصف البحر؟ لماذا؟

أجاب «جوبيم»: أريدك أن تشهدي بعض الأمور عن الإناث.

ورغم أنها لم تفهم، فإنها أطاعت وانزلقت من الجانب.

قفز «جوبيم» إلى الماء وتعلق بجانبها بحبل المخطاف، ثنى ذراعًا حول الحبل حتى لا يجرفه التيار، وترك خيط الصيد ينساب ببطء من بين أصابعه، لتهبط السنارة المطعمة نحو جبل الماء.

أول مشهد للجبل رأته «بالوما» كان أخاذًا، اكتشافًا من الإعجاز كأنها أطلت سرًّا على ما في السماء، عالمًا ما كانت تدري شيئًا عن وجوده، عالمًا غريبًا شديد الفعالية وبالغ الصمت.

ما أدهشها -عندما استرجعت أحداثه فيما بعد- إنه لا يمثل تهديدًا على الإطلاق، كأنها تشهد تتابعًا سينمائيًّا. ورغم أن الحياة فيه تمضي على مقربة منها، فإنها كانت منفصلة تمامًا عن عالمها، عالم لا يحتمل التساؤل، جديد الروعة وساحر الفتنة.

استلقيا متجاورين على سطح الماء، وجههما تحته، ويتنفسان من

خلال الأنابيب المطاطية، خاطبها «جوبيم» بأن أدار وجهه ربع دورة حتى خرج من الماء، والتقطت «بالوما» كلماته واضحة دون أن تتحرك عن وضعها. لم تستطع الجزم ما إذا كانت تستقبل صوته من خلال أنبوبة التنفس وعبر فمها، أم أن الصوت اخترق الماء الذي يفصله عن أذنها. لم تستقر على أي من الاحتمالين، لكن لا يهم. كلماته وصلتها جلبة، وإن بدت جوفاء وصادرة من بعيد.

سرعان ما اختفى خيط الصيد -من النايلون- في الماء، وظل الطعم ظاهرًا دون لبس. قطعة شهية من السمك الأبيض تتدلى بإغراء فوق القاع، وتتحرك بإيقاع خاص يستجيب للتيار، وإن كانت السمكة ميتة ومثبتة بالسنارة.

اقتربت الأسماك الصغيرة من الطعم وحامت حوله، كأنما توازن بين لذته وخطورته، و«جوبيم» لم يحاول إخفاء السنارة، فكانت تلمع بين الحين والآخر في أشعة الضوء. هل قصر الطعم عن إغراء الأسماك، أم هو الخوف من السنارة؟ لم تدر «بالوما»، ما من واحدة حاولت اقتطاع جزء تلتهمه.

وذهبت الأسماك الصغيرة واختفت، وبقي الطعم يتأرجح مع التيار معلقًا ومهجورًا.

- أين ذهبت الأسماك؟

- انظري. راقبي فقط.

لم يحدث شيء لدقيقة أو اثنتين، ما كانت تراه عالمًا دائب الحركة

والنشاط، بات عندئذ فراغًا قاحلًا دون حياة. ساورها نصف توقع أن تسمع دوي الرعد أو أن ترى وميض البرق، مثل ذلك التغير لا بد أن ينتج عن ثورة الطبيعة.

ثم وصلت القروش من وسط الظلام عند حافة الجبل، رأس المطرقة، ثلاثة منهم، أحدهم ضعف حجم الآخرين، يفتشون في صمت ويتحركون بغطرسة قاسية دلالة على سيادتهم على الجبل، رؤوسهم الغريبة على شكل مطرقة تتمايل ببطء من جانب لآخر، بدوا كأنهم يجمعون الإشارات المتناثرة في البحر، يلتقطونها ويرسلون إشاراتهم الخاصة تسبقهم إلى كل مكان، فتعطي إنذارًا كافيًا عن وصولهم، وتمنح الجميع فرصة الرحيل بسلام عدا الفريسة المناسبة.

أرجح «جوبيم» الخيط يهز الطعم، ومع أن «بالوما» لم تسمع جديدًا، فقد رأت القروش تتفهم الرسالة واضحة، حيث استدارت في تشكيل نحو اللحم المتراقص. دارت حوله دورة ثم ثانية، وانفعل أحدها -الأصفر- فاندفع إلى الطعم كالسهم. رج «جوبيم» الخيط، فقفز الطعم إلى أعلى بعيدًا عن فم القرش.

دارت القروش من جديد، أسرع الآن، كلٌّ يهز رأسه بقلق وفظاظة وارتباك. هناك شيء ليس على ما يرام، هم يلتقطون إشارات عن لحم ميت، لكن الفريسة لا تتصرف كشيء ميت.

انطلق ثاني الصغيرين نحو الطعم، وللمرة الثانية رج «جوبيم» الخيط، لكنه لم يتركه ليهبط هذه المرة، بل ظل يشده لأعلى نحو السطح، يتحدى القروش أن تتبعه. واحد فقط تبعه -الأكبر- ولزم

الآخرون مكانهما بأسفل يدوران بغضب حول فراغ. لم يهاجم القرش الكبير الطعم، بل تبعه بصبر على خط رشيق التعرج. وعندما بات قريبًا، رأت «بالوما» الحيوان الذي ظنته على القاع سمكة كبيرة. كان في حقيقته بالغ الضخامة، أكبر منها، ومن أبيها، بل يكاد يتساوى مع قارب أبيها حجمًا.

ذعرت بالوما، كانت تأتمن أباها كلية، ولعلها أطاعته لو طلب منها القفز من جبل أو حتى ابتلاع الإبر. أما أن تعابث قرشًا ضخمًا من أكلة البشر..

باتت غير قادرة على تحويل بصرها عن القرش المقترب، ثم دون وعي مدت يدها تلتمس جانب القارب والصعود إلى الأمان.

قال «جوبيم» محذرًا: توقفي، اهدئي مكانك.

لزمت «بالوما» رقدتها على الماء، لكنها أيقنت أن القرش يسمع دقات قلبها، كل القروش كالكلاب تشتم الخوف. حبست أنفاسها ترجو كبت الطبل في صدرها، لكن الدقات بدت كأنما تعلو. أصبح الطعم على بُعد ستة أقدام أو ثمانية منها، والقرش خلفه بقدم. ظل «جوبيم» يشد، لكن القرش توقف فجأة، وشرع يدور في حلقات، وعيناه السوداوان على حافتي المطرقة ترقبان «جوبيم» وهو ينتزع الطعم من السنارة. وشرعت «بالوما» تلف مع القرش الذي يدور كزهرة في دوامة، والخوف يعتصرها من أن يختفي عن بصرها. ما كانت لتحتمل وجوده قريبًا منها دون أن تتمكن من متابعته.

واسترعى بصرها حركة من أسفل، بدأ القرشان الآخران في

الصعود، لكنهما احتفظا بمسافة من الأكبر، كأنما التزما بها. فقط ازدادا جرأة.

ورغم أن أباها كان يبلغ ستة أقدام طولًا، فإن أيًّا منهما ما كان ليقل عنه.

أمسك «جوبيم» بالطعم ولوح به بين أنامله للقرش الأكبر. أخذت حلقات دورانه تنكمش، فيمر «ببالوما» على مسافة تقصر حتى بلغت ثلاثة أقدام أو أربعة، ورأسه تهتز بعنف، وفمه الهلالي ينفرج ويقفل بإيقاع طعام وشيك. دفع «جوبيم» سمكة الطعم في الماء وتركها، ثم سحب يده بسرعة. مر القرش قريبًا، فاختفت السمكة. لم يحدث انتزاع أو عض أو ارتجاج، سحبها ببساطة كالشهيق.

عاد يدور حولهما دورتين ضيقتين، ثم خفف بالتدريج سرعة المناورة، مثل زنبرك يكاد ينفرج في أي لحظة. لم تتحول عينيه السوداء عنهما، لكن دون إلحاح، مجرد ترقب.

مد «جوبيم» يده في سرواله، وحل ربطة داخله، وعادت يده تحمل سمكة «مكرونة» كاملة. قبل نزولهما إلى الماء، دس كيسًا من «النايلون» مليء بتلك الأسماك في سروال، بعيدًا عن أنظار القروش. ولأنه عقد الكيس، فقد أصبح خارج نطاق شمها أيضًا.

وعلى الفور عاود القرش دوراته الضيقة المقتربة.

هذه المرة قطع «جوبيم» السمكة نصفين، ولوح بكلا القطعتين، ثم أسقطهما. وخلال هبوطهما -خلف فتات اللحم والدهن- ربت

«جوبيم» ذراعها وأشار لها أن ترقب.

استشعر القرشان الصغيران الطعام، فارتفعا نحوه بتلهف وجوع، ورأساهما تتأرجحان بسرعة. وفي اللحظة نفسها خفض القرش الكبير رأسه، ونشر زعنفته الصدرية، ثم ضرب بذيله أمامًا وخلفًا، فاندفع جسده إلى أسفل كالصاروخ.

رأت «بالوما» الصغيرين على وشك الفوز، فجزئي السمكة يسقطان نحوهما بعيدًا عن القرش الأكبر. وعندما بات النصفان على بعد قدم من الفمين وأصبح الفوز محتمًا، استدارا -كليهما- في الوقت نفسه -لسبب غامض لا تفسير له- مبتعدين. وانقض القرش الأكبر، فامتص إحدى القطعتين إلى فمه، واستدار مبتعدًا في دائرة كبيرة تاركًا النصف الآخر لسقوطه. ثم -بطريقة عرضية خالصة، وبثقة ألا موجب للعجلة فالطعام ينتظره- جنح أخيرًا وانحدر يلتهم القطعة الثانية.

ظل القرشان الصغيران بأسفل، بعيدًا عن الكبير، بمسافة عن الطعام، بمنأى عن الاختلاف. هزا رأسيهما، وقوسا ظهريهما، ولوحا بذيلهما.

رأت «بالوما» فيهما جروين جائعين وغاضبين، لكنهما لا يستطيعان شيئًا غير ما فعلاه، لذا فهما يجريان دون هدف، يطارد كل منهما ذيله، وينبح.

عاد القرش الكبير يدور. أشار «جوبيم» لها بالصعود إلى القارب، لم تتردد. بعينها على القرش مدت يدها وتعلقت إلى جانب القارب ورفعت نفسها. أخذت شهيقًا عميقًا، ثم اختبرت قبضتها على

الخشب. فعندما علمها «جوبيم» السباحة للمرة الأولى، قال إن النزول إلى الماء والخروج منه يجب أن يكون سريعًا. تلك لحظات حرجة للمرء -نصفه في الماء والنصف خارجه- فيكون أكثر تعرضًا لهجمة القرش، وقتها يبدو فريسة مناسبة، معظم الجسد خارج الماء، فيلوح الباقي منه كائنًا صغيرًا. هذا إلى جانب أن البقية تحت سطح الماء -ساقين وقدمين- تضرب الماء بشكل غريب ومضطرب- كالسمكة الجريحة.

لفت جسدها، وأمسكت جانب القارب بكلتا قبضتها، ورفعت نفسها خارج الماء إلى القارب في قفزة واحدة، حيث قبعت كومة على أرضيته. ظلت للحظات تتنفس بصعوبة، وعندما أدركت أن «جوبيم» لم يتبعها، تدفق «الأدرينالين» خلال ذراعيها إلى صدرها يتجمع في معدتها. كان القناع على وجهها، فمالت تطل في الماء.

كان «جوبيم» لا يزال متعلقًا بحبل المخطاف، يلف في مواجهة دورات القرش.

عادت «بالوما» تفكر في الكلاب، ذكرين، أحدهما دخيل على منطقة الآخر، يدوران حول أحدهما الآخر بحثًا عن نقطة ضعفه.

وعندما أصبح القرش على أبعد نقطة في دورته من القارب، أخرج «جوبيم» كيس السمك وأسقطه. غاص الكيس بطيئًا يتأرجح كورقة شجر ساقطة. انتظر «جوبيم» حتى تأكد من أن القرش قد رأى الكيس وانطلق نحوه، فرفع نفسه إلى القارب.

وتناولا طعام الغداء- مانجو وموز وقديد سمك مملح- أكلا

السمك أولًا حتى تغسل عصارة المانجو آثار الملح. لم يتكلما خلال الطعام، فلم تعرف «بالوما» ماذا تقول. كانت واثقة من أنها قد تعلمت شيئًا، لكنها لم تدر ما هو. أرادت استعادة كل الأحداث في ذهنها قبل التوجه بالاستفسار. ولاحظ «جوبيم» بحثها عن المغزى الذي عليها إدراكه، لكنه أراد للتجربة أن تنضج في ذهنها قبل تفسيرها.

غمس «جوبيم» أصابعه يغسلها في البحر وسأل: هل شعرت بالخوف؟

أجابت قلقة: نعم. هل هذا خطأ؟

ضحك «جوبيم»: كلا طبعًا. لا أظن أن خطرًا كبيرًا كان يتهددنا. لكنها مخلوقات رهيبة.

كادت «بالوما» أن تصاب بخيبة أمل: ما من خطر؟

– ليس البشر طعامها المألوف. عادة ما تترك الإنسان وشأنه، طالما لا ينزف وليس ميتًا.

كررت «بالوما»: عادة!

ابتسم «جوبيم»: عادة. والآن هل تعين الدرس؟

– كلا. فقط عرفت أن من الصعب الحكم بما يفعله القرش. كان الصغيران على وشك التهام قطعتي السمك قبل الكبير، لكنهما لم يفعلا ذلك.

– أتعرفين لماذا؟

– أهناك سبب؟

عاد «جوبيم» يبتسم: قلت إني سأريك شيئًا مهمًّا عن الإناث. القرش الكبير أنثى- صغيرة جدًّا. فتاة صغيرة في عرف القروش.

- كيف عرفت؟

- كيف عرفت أنها الأنثى؟ كما في البشر تقريبًا. في الذكر يوجد امتداد يثبته عند التناسل، وليس للأنثى ذلك الامتداد. أما عن كونها صغيرة، فلأنه لا خدوش بجسدها على الإطلاق. وكما في البشرة كلما تقدم العمر بالمرء لوحه الطقس، وازدادت الجروح والندوب. القرش العجوز يشبه «فيجو»، لكن الأنثى عليها ندوب أكثر، فخلال التزاوج يعضها الذكر في ظهرها ليمنعها من دفعه بعيدًا.

- كم تظن عمرها؟

- لا أعلم. أظنه ثلاث سنوات أو أربع. ما من أحد يعرف كم تعيش تلك الحيوانات وماذا يقتلها. من الصعب تصور قرش يموت من الكهولة. بيد أنه قد يحدث.

- وماذا عن الاثنين الآخرين؟

- ذكران، كلاهما أكبر سنًّا. أرأيت كيف استدارا وابتعدا عندما اتجهت الفتاة نحوهما.

وانتظر «جوبيم» وهو يعرف ما يدور بذهنها.

عبست قائلة: هذا لا يعقل!

- نعم، بالنسبة للبشر؛ لأنهم حددوا لنا كل القواعد الأساسية لفارق الذكور عن الإناث، والترتيب الطبيعي له. الذكور أكبر حجمًا،

ويقومون بمعظم الجهد البدني، ويعولون أسرهم ويتخذون القرارات، ولهم الطاعة والاتباع؛ لأن.. لأن ماذا؟ لأن الطبيعة؟ كلا!

منذ زمن بعيد، لا بد أن سببًا مهمًّا جعل السيادة في يد الرجل، ربما لقوته، ولأنه يقوم بالصيد. تلك الأيام كانت القوة فيها هي كل شيء، وزيادتها تكسب المزيد من الأهمية.

ذلك ينطبق أيضًا على الحيوان، فالأكبر والأقوى هو الأهم. أنثى القرش غالبًا هي الأقوى والأعنف والأشرس. والقروش لها نظامها في تناول الطعام، مثل الدجاج في المنزل، ولقد رأيته لتوك. الأقوى يأكل أولًا، يأكل حتى يمتلئ، ويتبعه الباقون بنفس الترتيب، حسب حجمها وسوء طباعها. ذلك هو السبب أنك لا ترين الذكور والإناث معًا دائمًا، وإلا لماتت الذكور جوعًا.

قالت «بالوما»: لكن في عالم البشر، النساء لسن الأقوى أو الأعنف أو الأشرس. إنهن...

قاطعها «جوبيم»: من قال ذلك؟ القوة ليست الضخامة وحدها، والأعنف ليس بمن يحطم شيئًا بيديه العاريتين. القوة تعني الذكاء والبراعة والإبداع، والأعنف قد يكون من يعرف كيف يحيا دون تبديد جهده، أو أن يسبح ضد التيار من هنا لهناك دون أن يتملكه الإجهاد فيغرق. لا بد أن يكون الحيوان كما أرادت له الطبيعة، كبيرًا أو صغيرًا، قويًّا أو ضعيفًا. ذلك ما يحدد مكانه في عالمه. أما الإنسان فيحدد مكانه بنفسه، إذا قصر عن شيء عوضه بشيء آخر، بالمعرفة والخبرة. أتفهمين؟

أطرقت بالوما.

ركع «جوبيم» إلى جوارها يتكلم بصوت هادئ، وانطبعت جبهته القمحية وحاجباه السوداوين وكتفاه العريضتين على صفحة السماء، وأضاءت الشمس ملامحه لتحفرها في ذهن «بالوما» إلى الأبد.

وانخفض صوته إلى همس أجش، فباتت تذكره بعد رحيله كلما حدثته.

– ما أود قوله، وأن تذكريه دائمًا، أنه لا يوجد في الحياة ما يسمى «بالحتمية». لا شيء قاطع. لست «محتومة» بطهي الطعام وتنظيف البيت وإنجاب الأطفال. أمر رائع أنك فتاة، وأروع منه أنك فتاة شابة، ومنتهى الروعة في كونك إنسان، يقرر لنفسه ما يراه لحياته. ولسوف يعتاد الناس احترامك لرأيك. من يرى خلاف ذلك غبي يستحق الشفقة.

ما عادت بعد ذلك اليوم تتمنى لو كانت ولدًا، وتركت شعرها ينمو حتى انسدل على ظهرها، وتابعت بانتباه وكبرياء وافتتان كل تغيير يطرأ على جسدها.

وبعد رحيل «جوبيم» بعدة أشهر هبت عاصفة هائلة، في ضخامة وفجاءة الإعصار الذي أخذ «جوبيم» (إعصار لم يعط إنذارًا على الإطلاق. فعندما طفا «جوبيم» من غوصه وجد قاربه تتقاذفه أمواج كالجبال. لا بد أنه سعى لركوب القارب، فاصطدمت رأسه به أو بالماكينة، وفقد وعيه. فقد وُجد صريعًا على الشاطئ، وفي جبهته كدمة زرقاء كبيرة).

أما العاصفة الأخيرة، فقد انتزعت كل الأشجار والنباتات، وأغرقت الجزيرة بسيل أمطار متدفقة حجبت الرؤية خلالها.

بدأت الآلام الأولى لأنوثتها لحظة هبوب الإعصار، وبدت تقلصاتها كأنما صدى للرعد. شعرت بالخوف يغمرها لفترة، وقد ظنت أنها تعاني مرضًا شديدًا، بيد أن خوفها ذاب في إدراك غامض.

لم تحذرها «ميراندا» بما يصحب التغييرات الأنثوية داخلها. فقط حدثتها عن عموميات مبهمة خجولة، ثم أخيرًا عزت كل شيء لإرادة الله. وبذل «جوبيم» وسعه لإعدادها، لكنه لم يعرف ما هو منتظر، بماذا تشعر؟ وماذا عساه يحدث؟

رغم ذلك أعدَّها إعدادًا مناسبًا، حتى إنها سرعان ما ارتاحت بقناعة أن ما يحدث هو أمر طبيعي وصحي، وتذكرت تعبيره: «ورائع».

أرادته أن يعرف ما يحدث لها، واستجابتها له. عرفت أنها تتحول للأنوثة، وكانت فخورة بالتحول. ورغم أن هبات الريح دفعت المطر في أستار أفقية تلفح ما في طريقها، فقد ناضلت «بالوما» لترتقي صخرتها على الطرف الغربي من الجزيرة، ووقفت عارية فوق الصخرة، ترفع ذراعيها للماء ولأبيها؛ لتعلن إشراقها وإشعاعها بالحياة، وتركت للمطر أن يغسل الدماء على ساقيها، فتنحدر فوق الصخرة لتنساب إلى البحر.

* * *

- ٦ -

جففت «بالوما» الطبق الأخير، ثم خرجت إلى الليل الساكن.

لقد باتت تستمتع بأنوثتها، وتعجب بين الحين والآخر من أنها تمنت يومًا لو لم تكن فتاة.

بيد أنها أحيانًا ما تمنت لو محيت الفوارق بينها وبين الذكور. كانت واثقة من أن تلك الفوارق هي التي جعلت اكتساب الأصدقاء عسيرًا، وغاب عنها أن السبب الحقيقي تركز في عدم وجود فتيات من سنها، وأن تلك الفوارق صدفة محضة.

لذا فإن تلميح «جو» إلى التغيير نحو قبول صداقتها منحها جرعة أمل.

أخذت تشغل نفسها في المطبخ دون هدف معين، والحق أنها كانت تلوم نفسها على عدم استجابتها الكافية لمبادرة «جو» الجديدة. لقد عاملها بلطف تلك الليلة، لكن ردها الساخر دفعه للاستياء. لقد عرض شيئًا ولم تقدم هي مقابلًا له.

لذا رأت أن تذهب إليه في غرفته، وتقول له -إن وجدته مستيقظًا- إنها أخطأت، وإن الغد مناسب للتدرب على الغوص.

وبينما هي تستدير حول ركن المنزل، سمعت ما جعلها تتوقف. انتظرت، ثم أطلت حول الركن؛ لترى «جو» متجهًا إلى غرفته. تصورت أنه ذهب لنزهة، واستدارت لتعود، لكنها توقفت، لم تكن واثقة ماذا تنتظر، مجرد أنها لم تشأ العودة. شعرت بخطر لا تدري كنهه، لكنه يبعث فيها خوفًا شديدًا، ثم لامت نفسها للاستسلام لخرافات لا أساس لها. لكن مهما بدت مخاوفها سخيفة ودون أساس، فإنها لم تجرؤ على التقدم خطوة واحدة.

بعدها بدقائق عادت للبيت وذهبت لتنام، وهي ترجو أن يعيد النوم صفاء ذهنها. لكن النوم استعصى، فقد دارت معركة في رأسها، بين نصف ذهنها الذي يحن لصديق، ويتهمها بالتشكك والارتياب، والنصف الآخر الذي يستمسك بحريتها، ويرتاب في كل من حاول التطفل عليها.

وفي الصباح صممت على قضاء اليوم بحثًا عن حل لذلك الصراع، ومن ثم -ورغم محاولات «جو» التلطف معها- فلم تسمح لشعورها بالذنب أن يغير تصميمها.

اصطحبت «جو» وصديقه «أنديو» حتى الرصيف مثلما تفعل كل يوم. وبينما «جو» يحل القارب سألها بشكل عرضي: ألا تريدين القدوم معنا اليوم؟

ماذا؟ لم يسبق «لجو» أن دعاها لقاربه سواء للصيد أو للنزهة، أو حتى لجمع أخشاب الفرن من جزيرة قريبة.

- لكن صديقاك معك.

- «مانولو» يشعر بتوعك.

- توعك؟ ماذا به؟ لقد كان بخير ليلة أمس.

- لا أدري. يقول إنها معدته. لو صح ذلك، فلست أريده معنا في القارب.

فكرت أنها طالما لم تقدم له بادرة طيبة، فلا أقل من قبول بادرته.

غير أنها -بشيء من الأنانية- لم تشأ القبول. هي لا تحب الصيد، ولم تحبه يومًا إلا مع «جوبيم»، لوجودها معه بأكثر من رغبتها في الصيد نفسه. فالصيد مرهق وممل وأليم، ودائمًا ما عض الخيط على أصابعها أو كشطها. أكثر من ذلك، كرهت الصيد من حيث كونه قتلًا -صحيح سبب نافع لا بد من الاعتراف- لكنه ما زال قتلًا. وما أمكنها الجمع بين أحاسيس المشاركة مع حيوانات الجبل، وبين خوف ينعكس عليها عندما تراها دون حياة، ودون لون ومكوَّمة في قاع القارب.

ولكن طالما أن «جو» يحتاج عونها، وأن الصداقة في طريقها بينهما، فمن التفاهة أن ترفض.

قالت: إذن سأصحبكما.

بدت الدهشة على وجه «جو»: أعني إذا شئت.

- لو احتجت لمساعدة فأود المساهمة فيها.

عاد «جو» يبحث عن شيء يقوله: نعم، بالطبع. الحق أني لست في حاجة لعونك.

- لكن، ظننت أن «مانولو»...

- طبعًا، ولكن.. أعني أنني و«أنديو» نستطيع.. «مانولو» لم...

ثم احمر خجلًا: يمكننا تدبر الأمر. ظننت أنك ربما.. أعرف ما تشعرين به نحو الصيد. أعني كل ما نفعله هو قتل السمك.

وتجهم «جو» كأن فكرة السمك الميت أصابته بالغثيان.

قالت «بالوما»: أعرف، لكننا نعيش على ذلك. حان الوقت لأن أقوى على مواجهة الواقع.

قال «جو»: هذا صحيح. لكن اليوم ليس مناسبًا.

- ليس مناسبًا؟

- نعم. أنت قلتها، أتذكرين؟ كلانا أمامه عمل كثير يؤديه.

- ولكن...

- بوسعنا تدبر الأمر. قومي بأداء عملك، ثم نقضي يومين معًا، ربما أكثر، وقد تستطيعين تعليمي الغوص خلال تلك الفترة. اليوم التالي تصحبينني. اتفقنا؟

هزت «بالوما» كتفيها: ليكن.

لم تكن تعرف ما يجب قوله. هل المفروض أن تعقب؟ ما هو الأسلوب الصحيح؟

- الأمر بسيط. سألها «جو» إن كانت تريد الانضمام لهما، بل أكثر، اقترح عليها مساعدتهم. بدا أنه يطلب عونها. أجابت بالموافقة،

وكانت مستعدة لمد يد العون، ثم تعقد كل شيء. سحب دعوته، وبالأحرى أنكر طلبه. أيًّا كان، فهل يقول بأنه لا يريدها معهما؟

أو - هل يتفهم مشاعرها؟ صوته حمل رسالة. هو ليس من الأنانية بحيث يبعدها عما أرادت أداءه. إن كانت تلك حقًّا رسالته، فهو يتصرف بطيبة، وعليها الاستجابة بطيبة هي الأخرى. ربما أقنعته بأن ما وراءها ليس بذي بال، تؤجله راضية من أجل مساعدته.

لكنه ربما قد غير رأيه. إن كان الأمر كذلك فهي لا تبغي فرض نفسها عليه.

هل تتخذ بدايات الصداقة هذا المساء؟ إذن فالاحتفاظ بالصداقة مهمة تتطلب كل وقت الصديق. على أي حال، ربما كانت الصداقة تستحق ذلك. عليها -على الأقل- أن تتعلم الممارسات والشعائر، وأن تعطيها الفرصة في النمو، وبصرف النظر عن الارتباك الذي ساد حديثهما معًا، فالمهم أنهما أصبحا مهذبين تجاه أحدهما الآخر، مما أوضح عزمهما -كلاهما- على المحاولة.

حلت «بالوما» رباط المقدمة ودفعت القارب، بينما قفز «جو» و«أنديو» إليه، ثم أمسكت بالمقدمة حتى لا تدور مع المد، إلى أن أدار «جو» الماكينة فأصدرت هريرًا كقطة تأكل، ثم توقفت. عاد يشد حبل البادئ فارتفع هرير أشد وتوقف فجأة. سب «جو» الماكينة، وضرب بقبضته على غطائها، ثم تنهد وهو يرفع الغطاء ليعبث بالماكينة.

كثيرًا ما راقبت ثورة «جو» على الماكينة، بنوع من التسلية. والآن -للمرة الأولى- شعرت بالتعاطف نحوه، فهو يعرف عن الماكينات

بقدر معرفتها عن الأسماك -كلاهما يتقن مجاله- لكن أصدقاء «بالوما» يزدهرون تحت بحر كورتيز، بينما ماكينة «جو» تذوي وتموت، البيئة نفسها تعادي ماكينات الاحتراق الداخلي، كأي بيئة أخرى على الأرض. الملح يسبب صدأ أجزائها الداخلية، والشمس تحرق حشو فواصل الماكينة وخراطيمها، والرمل يسد المرشحات ويتلف زيوت التشحيم.

لم يكن هناك عمال إصلاح متخصصون ولا قطع غيار. فإذا عطلت الماكينة كان على المرء إصلاحها بنفسه وتبديل التالف، أو أن ترفع كلية من القارب واستخدامها كأجزاء لإصلاح الماكينات الأخرى. تذكرت «بالوما» كيف قضى «جو» الساعات يقطع بسكينه إطار سيارة نقل، والإطار كان حاجز اصطدام في أحد قوارب «لاباز»، كان يحفر ويشكل من المطاط السميك مروحة صغيرة لطلمبة الماء في الماكينة الخارجية.

لا غرابة إذن في أن «جو» أراد الرحيل إلى حيث يدرس. كانت لديه موهبة لا مجال لها في الجزيرة سوى لماكينتين خارجيتين يصلحهما. لا شيء كبير يشغله أو يتيح له التقدم، أو حتى فيه تحدٍّ حقيقي. لم تكن له من وسيلة يشحذ بها مهاراته، أو تدر عليه مالًا وتقديرًا. كان كالجراح الذي لا يجد مجالًا للممارسة.

حل شيئًا من الماكينة ونظفه ونفخ فيه، ثم أعاده وأقفل الغطاء. احتضن الماكينة يهمس شيئًا يحمل تهديدًا، ثم فتح صمام الهواء عاليًا، وشد حبل التشغيل. أصدرت الماكينة صوتًا مختنقًا، وأصبح

عاليًا قبل أن تدور بسحابة دخان أزرق رمادي.

في الأيام السابقة، ربما ألقت حبل الرباط إلى القارب وانصرفت، تاركة «لانديو» تحرير الحبل من أدوات الصيد. لكنها اليوم لفت الحبل بعناية وركعت على الرصيف تناوله «لأنديو»، ثم دفعت مقدمة القارب بعيدًا. اتجه «جو» شرقًا، وسرعان ما أصبح هو و«أنديو» والقارب خيالات على صفحة الماء الوردية. لوح «جو» وردت «بالوما»، ثم مال «جو» يكلم «أنديو»، فلوح الأخير أيضًا. وبدا ذلك لبالوما غريبًا.

عادت «بالوما» إلى المنزل لتأخذ بعض الطعام وقارورة ماء، وتركت أمها تلف لها شريحة سمك مملح وقطعة كعك، لتأخذهما مع المانجو. لم تشأ أن تثير جدلًا.

عادت إلى الرصيف، واستقلت قاربها، ودفعت الرصيف مبتعدة، ثم جدفت نحو الغرب.

لم تنظر خلفها، حتى إن فعلت، ما كان محتملًا أن ترى الشخص القابع بين الشجيرات على قمة التل، يتابعها من خلال منظار مكبر.

* * *

- ٧ -

المفروض أن «مانولو» كان يتلوى ألمًا في سريره من تقلصات معوية، لكنه كان مختفيًا بين الشجيرات، وقد اتخذ الحيطة حتى لا يراه أحد. خلع صليبه الفضي والخاتم النحاسي حتى لا يلمعا في ضوء الشمس، وغطى نفسه بالأفرع والأوراق، أما المرآة الصغيرة التي أحضرها معه، فقد دسها بين أوراق الشجر على سطحها العاكس، إلى أن يحين وقت استخدامها.

ظل يراقب «بالوما» وهي تجدف نحو الغرب. لم تكن حرارة اليوم قد بلغت ذروتها، ومع ذلك أحدث تشبع الهواء ببخار الماء اضطرابًا في الرؤية. ومن خلال المنظار المكبر، كان المجال حول قبعة «بالوما» ومجدافها يشع بالوميض كلما تحركت.

جرفت «بالوما» لفترة، واختبرت العلامات على البر، ثم ألقت المخطاف وتركت الحبل ينساب من يدها حتى شعرت بالحديد يستقر بين الصخور. ارتدت قناعها وزعنفتيها وأنبوبة التنفس، وثبتت السكين في حزامها، ثم انزلقت من فوق جانب القارب.

حتى تلك اللحظة ما كان بوسع «مانولو» مغادرة الشجيرات دون أن ينكشف وجوده.

أمسك بالمرآة مواجهة لشمس الصباح، وأرسل ومضتين في اتجاه الشرق.

نظفت «بالوما» القناع، ونفخت في أنبوبة التنفس تطرد منها الماء، ثم لزمت مكانها معلقة بيد إلى حبل المخطاف تمسح جبل الماء من جانب لآخر. كان بصرها محدودًا بحافتي قناعها وتعكر الماء، فلم تر مساحة كبيرة في كل نظرة. على السطح حيث لا يعوق شيء مدى رؤيتها، وحيث الأغراض البعيدة محدودة وواضحة لعدة أميال، كان بوسعها الرؤية حتى مائة وأربعين درجة في كل نظرة. ولربما رأت المزيد لو أنها حاولت، لكن تركيزها يقصر عن ملاحظة كل شيء. وبتعبير واقعي أنها ترى كل شيء على السطح في الدائرة حولها حتى الأفق، في نظرتين أو ثلاث. أما تحت الماء، فكانت تحتاج لتسع مسحات كاملة حتى ترى نفس الدائرة، وما كانت مسافة الرؤية لتزيد على خمسين قدمًا أو ستين.

أول قطاع ركزت عليه لم تر خلاله إلا الصخور. وفي الثاني رأت بعض الخيالات المتقطعة، ربما قروش «رأس المطرقة» تتجول قريبًا من القاع، وألوان ظهورها تعلن عنها.

لم تكن «بالوما» تفتش عن شيء بعينه، كانت تفعل ما تفعله كل يوم، تطل على الجبل لترى ماذا هناك. ولو أنها بحثت في أعماق ذهنها نصف خطوة أبعد؛ لأدركت أنها تفتش عن الحدأة الجريحة. كانت ترجو -دون أن يتخذ رجاؤها تعبيرًا- لو أن الحدأة وجدت طريقها عائدة للجبل.

ظلت عيناها تتفحصان نهجًا لباقي القطاعات، والأمل يفسح مجالًا متزايدًا لليأس.

الحدأة ليست هناك، ولن تجدها هناك، ومن الغباء أن تتوقع وجودها. الحدأة حيوان البحار المفتوحة، تجول خلف الطعام دون توقف، ووطنها -مثل طيور النوء- هو جناحها. وهي ليست إقليمية، وما من سبب يدفعها للعودة إلى بحر بذاته. وحتى لو خالفت الحدأة القاعدة، وأصبحت تنتمي إلى بحر معين أو منطقة معينة، فإن المعاملة التي لقيتها تلك الحدأة منها لا بد قد دفعتها للابتعاد.

وفي خلال بحثها رأت حدأة، لم تكن هي التي تبحث عنها، بل أصغر بكثير. ومن تلك المسافة لاحت كقبعة مثلثة سوداء، وأوشكت أن تنقل بصرها لقطاع آخر، إلا أن عينيها تبطأتا. وسرعان ما أخذت الصورة تحتها شكلًا محددًا، فأيقنت أن الحدأة تحتها هي الجريحة.

المسافة هي التي خدعتها، فالحدأة على عمق كبير، غير أن بصيرتها أوضحت لها الحقيقة، فبقدر ما بدت الحدأة صغيرة، كانت المنطقة المحيطة كالقزم، الأسماك المروحية -في نصف طول الإنسان- لاحت كطوابع البريد مقارنة بالحدأة، وقرش المطرقة الذي مر بجوار الحدأة ظهر كأنه سمكة «جرو». ثم مع التركيز على ظهر الحدأة، رأت شريطًا أبيض خلف قرنها الأيسر.

حدست أن الحدأة التزمت القاع حيث التيار أضعف، فالصخور المحيطة والوديان تعترض كتلة الماء المندفع فتبطئه. وحيث يضعف التيار يخف الشد على الأحبال التي مزقت لحمها منذ البداية وحشرت

فيه. كانت الحدأة تحوم في ملجأ مؤقت حيث لا تضاعف التيارات من آلام جراحها.

عزز ذلك افتراض «بالوما» بأن الحدآت تشعر بالألم، لكنها كبحت نفسها من المضي في ذلك التفكير. لقد أخبرها «جوبيم» أن بعض الحيوانات لا إحساس لها كالذي يسميه الناس الألم. بالغريزة هي تستشعر الخطر أو الصدمة أو فقدان أحد أطرافها أو سائل حيوي لها، لكنها لا تشعر بالألم. الألم آدمي لإحساس إنساني. بيد أن «بالوما» أصبحت واثقة من أن ذلك الحيوان يحس بشعور من «عائلة» الألم، شيء يبعث فيها كربًا وذعرًا. ففي اليوم السابق -عندما انتزعت الأحبال من جرحها- هبت الحدأة كالكلب الذي وطأ خلية النحل، كذلك تصورت «بالوما» أن الغريزة هي التي أوحت للحدأة باللجوء إلى مكان أضعف تيارًا، وأن التيار ضعيف عند القاع. وكأي حيوان يتعذب (مثلما مع الإنسان) بحثت الحدأة عن وسيلة تخفف محنتها. ربما مضت تتجول في كل مكان، في العمق والضحالة، قريبًا من الجبل وبعيدًا عنه، ثم توقفت في المكان حيث أحست بأقل ألم.

كل ذلك معقول، لكن بقاء الحدأة -في راحتها- حيث هي فرض مشكلة. فلم يعد بمقدور «بالوما» مساعدتها إذا بقيت هناك، على عمق ستين قدمًا وربما سبعين. بوسعها الاحتفاظ بالهواء حتى الوصول إلى ذلك العمق، لكنها لا تحلم بالبقاء مدة كافية لتحقيق شيء له أثره قبل الإسراع بالصعود إلى السطح.

حقيقة أساسية على سطح الماء، وأكثر حدة في العمق. مزيد

من الجهد يستهلك المزيد من الأكسجين، فالعدَّاء يتنفس أسرع من السائر، حيث يستهلك الأكسجين أسرع، فتلزمه استعاضة أقرب. أما تحت الماء حيث لا تنفس -أسرع أو أبطأ- ليس للمرء سوى ما غاص به من أكسجين، ولا أمل في مزيد لحين العودة إلى السطح.

حين شرح «جوبيم» تلك البديهية، استجابت «بالوما» بتنهيدة ضجرة، كأنما أباها قد استهان بذكائها، فلا يحتاج المرء لعبقرية حتى يعي الأهواء تحت الماء، لذا فهو يحتجز نفسًا عميقًا قبل الغوص يكفيه لفترة غوصه.

وبعدها، ومع تكرار الغوص وتعدد الأعماق، خبرت «بالوما» مختلف استجابات جسدها للعديد من الأنشطة والجهود والضغوط والإثارات. عند ذلك فهمت ماذا عنى والدها. على المرء أن يعرف مقدمًا العمق الذي يقصده، والأعمال التي ينتويها. أما أن يغير رأيه في اللحظة الأخيرة على عمق كبير، فذلك دعوة للارتباك والإرهاق، ومن ثم الذعر والموت. عرفت -مثلًا- أن بمقدورها الغوص بسهولة لستين أو سبعين قدمًا، إذا كان عليها فقط أن تلف ساقيها حول صخرة، وأن تراقب حيوانات الجبل، وربما أن تسبح بهدوء من مكان لآخر، وعرفت كيف تفسر إشارات جسدها، ومتى تستجيب صعودًا إلى السطح. أما أن تغوص إلى نفس العمق لتصل إلى حوض قواقع ومحارات بعده بعشرة أقدام، فتستخلص بعضها وتحشوها داخل كيس، فإن إشارات الصعود العاجل تنطلق على الفور. ولأنها تكون قد غاصت أبعد، وأجهدت نفسها بأكثر مما قدرت، بل واستهلكت

جزءًا من الأكسجين اللازم لرحلة الصعود، فحين تنطلق الإشارة يكون الأوان قد فات. فتبدأ صعودًا مختلفًا عما تعلمت أنه الأفضل، ليس باسترخاء أكسجين كاف، وركل الماء برفق مع السماح لجسدها بالطفو الطبيعي يحمله إلى أعلى، بل على النقيض: نضال بالغ الهياج، وتلويح مجنون بذراعيها، وركل يائس للماء. بذا تفقد أكسجينًا ثمينًا لا يعوض، ويتحول الألم في رئتيها من ضيق كليل إلى طعنة ألم صارخ، قبل الدنو من السطح بكثير، ويتوقف النبض في صدغيها لتحل محله عقدة ألم دائم. حينئذ تكون على شفا الانفجار.

نظرة إلى أعلى ترى فيها كتلة ماء سمكها عشرات الأقدام، وفي لحظة غير محددة تدرك أنه لم يعد لها سبيل نجاة، فيأخذ مخها في التوقف بعد أن حُرم الأكسجين، فتفقد الوعي.

ما يحدث بعد ذلك مرجعه كلية للحظ.

لو كان الحظ إلى جانبها لفقدت الوعي قريبًا من السطح بما يكفي لأن تبرز رأسها خارج الماء، قبل أن يصدر رد الفعل اللاإرادي للتنفس أمره بسحب شهيق.

ولو كانت أكثر حظًّا لارتفعت طافية على ظهرها ووجهها إلى أعلى، بدلًا من الطفو على معدتها ووجهها في الماء. بذلك تتنفس الهواء مع رد الفعل بالشهيق. وبعد عدة أنفاس فإن مخها -كماكينة أُعيد تزويدها بالوقود- يعاود تشغيل وعيها، فتستفيق.

ورغم أن جزءًا من ذكرياتها يكون خاويًا، فإنها تعود بعد فترة كما كانت إلى التوافق، من ثم قادرة على استئناف السباحة والغوص.

فإن لازمها سوء الحظ لحاول جسدها التنفس تحت الماء فتتضخم رئتيها، وتأخذ شهيقًا من الماء المالح، فتكح لطرده، ثم تشهق فتكح.. وتغرق.

ومع وصولها للسطح، لن يكون هناك من يدق على صدرها، أو يضغطه لطرد الماء وإعادة التنفس إلى رئتيها. شيئًا فشيئًا يتوقف عمل المخ حتى آخر وظيفتين تحكمان التنفس والنبض، فتقفل دائرتيهما للأبد، ولا تستيقظ بعدها. وتعرف ما يعرفه كل من يموت.

لكن «بالوما» تعرف حدودها، وتعلم أن محاولة تقديم المساعدة للحدأة حيث هي، تجاوز كبير لقدراتها البشرية. لذا طفت عائدة إلى السطح وانتظرت.

لم تتحرك الحدأة، ولم تحرك أجنحتها أو تغير من وضع ذيلها.

وخطر «لبالوما» أنها كانت ميتة، وربما ليست عائمة فوق القاع، بل منبسطة عليه.

مستحيل. لو كانت ميتة لالتفت حولها الحيوانات الأخرى تتغذى عليها. تلك حقيقة أخرى من حقائق الحياة، بمجرد موت أحدها يأكله الآخرون.

تذكرت يوم شاهدت ذبح شاة، وقفت الشاة مستسلمة وغير مدركة، تهز ذيلها وأذناها وشفتاها لطرد الذباب عنها، وابتعد الذباب، ثم ذُبحت الشاة.

ظلت واقفة لحظات على أقدامها تدمي نحو الموت، ولا بد أنها ماتت فعلًا واقفة. وعندما سقطت أخيرًا، وقبل أن تصل للأرض، كان

الذباب ينخر عينيها.

الحيوان يعرف عندما يموت حيوان.

ساعتها لم يكن هناك من يتغذى على الحدأة. إذن لا يمكن أن تكون ميتة.

هل هي على وشك الموت؟ ربما في تلك اللحظة، وتحت أنظار «بالوما» بدأت الحياة تتسرب من المخلوق الهائل. لا مناص من مد يد المساعدة. لكنها بعيدة جدًّا، لا يمكن ترك الحدأة لتموت، لكن ليس أمامها ما تقوى عليه. ربما لن تموت، ربما تستريح... ربما..

لم يعد من خيار أمامها، سوى أن تهبط لترى بنفسها.

أخذت أنفاسًا عميقة حتى بدأت رئتيها في التناغم- تمدد وتقلص، حتى إذا أصبحا خاليين تمامًا من الهواء، شرعت تملؤها بأكثر من طاقتهما، ثم أغلقت فمها وغاصت متجهة إلى القاع.

سحبت نفسها نزولًا على حبل المخطاف حتى باتت على بضعة أقدام من القاع، فتركت الحبل وسبحت نحو الحدأة التي لم تتزحزح قيد أنملة.

على الفور رأت أن الحدأة لم تكن راقدة على الصخر، كانت حائمة كما افترضت أولًا في تيار دائري يفيض بانتظام إلى قمة الجبل، وفوق جناحيها العملاقين المسطحين، فيتيح لها البقاء ساكنة. كانت من السكون حتى بدت متجمدة، أو منومة مغناطيسيًّا، أو في بيات شتوي.

سبحت «بالوما» أسفلها، تلقي نظرة على فتحتي خياشيمها والتأكد من أنهما ينبضان ولو بضعف، ذلك هو الدليل الوحيد على أن الحيوان ما زال يسحب الماء ليستخلص الأكسجين منه.

ودارت العين الكبيرة المستديرة في مقلتها إلى أسفل، تتبع «بالوما» حتى اختفت تحت جناحها.

سبحت تحتها من جناح إلى جناح، كأنها في كهف، حيث حجبت العباءة العملاقة كل الضوء، وألقت بملاءة من الظل الأسود على الصخر.

اقتفت عين الحدأة اليسرى «بالوما» وهي تسبح صاعدة إلى القرن، ثم تتعلق به لتتفحص الجرح الطويل النافذ. ما زالت كتلة أحبال متشابكة مغروزة كالأفاعي بين ثنايا اللحم الممزق، لم يبد الجرح مختلفًا عما كان عليه في المرة الأولى، لكن الأحبال داخله أقل بعد أن انتُزع بعضها، وربما تساقط بعضها الآخر. لكن البقية الباقية ظلت مدفونة بثبات، وما من شواهد على الالتئام.

الحدأة فضلت البقاء ثابتة، لا تسبح ولا تتناول طعامًا، لذا بدت جلية عليها مظاهر المرض والإرهاق، ما من سبيل لتتفهم ضرورة الغذاء لاجتياز محنتها، ودوافعها الغريزية تنحدر إلى الضعف والشحوب. لو أنها تُركت لشأنها فربما التأم الجرح وذبل. فقط الحيتان والدرافيل -ما يطلق عليها الحيوانات البحرية الراقية- تساعد بعضها بعضًا مساعدة فعالة. الأم تساعد ذريتها على التنفس وتحميها من الضواري. السليم يساعد العليل. والصغير المفعم بالحيوية يعين العجوز الضعيف.

والذكور تؤثر الصغار والإناث في أولوية تناول الطعام.

أما الحدآت فهي انعزالية عند نضجها، لذا فهي أقل أمنًا وأكثر تعرضًا للأخطار. إما أن تساعد نفسها أو تموت، بداهة طبيعية لا تحكم فيها. إما الشفاء أو الموت.

ثم تحتم صعود «بالوما» لكنها توانت دقيقة أخرى. كانت تشعر بالسخط على الطبيعة والبشرية والصيادين، وكل ما سبب الأذى للحيوان الرائع. والأسوأ أن مثلت عجزًا أصبح يحدد مصيرها، فهي لا تستطيع مساعدة نفسها، ولا تملك «بالوما» لها علاجًا، ولا شيء في البحر يمكن أن يقدم لها العون.

في اللحظة الأخيرة، وقبل أن تبدأ صعودها، لفت ذراعيها حول الزعنفة الرأسية -القرن الرهيب- وشدت للخلف، حاولت يائسة أن تنخس الحدأة إلى الصعود لعمق يناسبها، وبالتالي تسهل مساعدتها، ثم -وقد بدأت الطبول تقرع في صدغيها، والألم يخترق رئتيها، ولم تظهر على الحدأة نية الصعود- أسرعت «بالوما» ترتفع نحو الضوء.

على السطح استرخت وانتظرت حتى عاد تنفسها طبيعيًّا، وهدأ نبضها لحد لم تعد فيه تسمعه أو تحسه. وللاحتياط، انتظرت دقائق أخرى حتى أحست برعدة نقص الجهد، أي أن جسدها بات باردًا والرعدة محاولة منه لتوليد الحرارة، فأصبح بوسعها الغوص واستئناف النشاط دون ردود فعل سيئة.

وضعت وجهها في الماء وتطلعت إلى أسفل، كانت الحدأة قد ذهبت.

حسبت أولًا أنها تبحث في قطاع آخر، فرفعت رأسها من الماء تستطلع العلامات الأرضية البعيدة.

أيمكن أن يكون القارب قد دار حول المخطاف، فأبعدها عن القطاع السابق؟

كلا. كل شيء ظل على وضعه عند وصولها.

أعادت البحث في الماء، بادئة بالطرف الأيمن للحبل وحتى الجدار الأيسر الذي ينتهي بالهاوية.

لم تكن الحدأة في أي مكان.

لا ريب أنها فرّت خلال صعود «بالوما» للسطح. ربما أخافها الإمساك بقرنها. لئن صح ذلك، فلماذا لم تفر لحظتها؟ ربما -شأنها في ذلك شأن بعض الحيوانات البرية- تظاهرت بالموت مع اقتراب إنسان منها، وبمجرد ابتعاده اندفعت إلى ملجأ ناءٍ.

شعرت «بالوما» بالندم، ولامت نفسها على ابتعادها عن الحدأة.

وفجأة رأت العملاق يحلق نحوها صاعدًا من الأعماق، مثل طائرة سوداء ضخمة، قادمًا من حدود الظلمة. ومرت الحدأة تحتها بخمسة عشر قدمًا، وهي متعلقة إلى حبل المخطاف. جناحا الحدأة يرتفعان وينخفضان في تناسق كسول، فلفت دائرة واسعة لليمين والأحبال ترفرف خلفها.

ثم توقفت تحت قارب «بالوما» تمامًا، ليس أبعد من عشرة أقدام تحت أصابع قدميها.

حركة الجرم الهائل في الماء سببت موجة ضغط جعلت «بالوما» وقاربها يتمايلان.

لم تعرف «بالوما» كيف تخلت الحدأة عن القاع لقصور لعمق ضحل، ولماذا توقفت تحت القارب؟

راودها إغراء بقبول الإجابة السهلة، لكنها قاومت ورفضت إجابة تعرف خطأها. إن لم يكن الخطأ مطلقًا فهو -على الأقل سخيف وغير مقبول- الإجابة تفترض أن الحدأة عرفت بأنها تحاول المساعدة، وأوصلت المبادرة الحنونة عند القاع رسالة استجابت لها الحدأة كالطفل أو الحيوان المدلل.

و«بالوما» تعلم أن تلك الأسباب ليست بالحقائق بقدر ما هي جموح خيال، وأوهام ترجو لو تحققت. لذا قررت ألا تستخلص أسبابًا على الإطلاق. الحدأة هنا وعليها مساعدتها.

استجمعت قواها، توقعت أن تفر الحدأة هاربة، لكنها لم تتحرك، أطبقت يدها على اللحم الصلد بين القرنين، وانحنت إلى الجرح.

حبل طويل امتد من داخل الجرح إلى ظهر الحدأة، وطرف الجرح محصور بفوضى من العُقد.

وبلطف شدت الحبل، فخرج من الجرح قدم أو قدمان ثم تعذر الشد. يدها القابضة على الشفة اللحمية شعرت بالرجفة تمد بجسد الحدأة مثل صدمة كهربائية خفيفة، أو سلسلة تقلصات عضلية.

ثم خفت الرعدة، وظلت الحدأة على هدوئها الساكن.

بحذر قطعت الحبل المتدلي بسكينها، ثم سبرت عمق الجرح، ومضت تقطع العقد والأجزاء المتشابكة، وتلقي بعيدًا بقطع اللحم المتعفن والأحبال المضغوطة.

وعادت أجهزة الإنذار داخلها ترن الواحد تلو الآخر.

حاولت تجاهلها، خافت أن يكون الألم كبيرًا، فلو تركت الحدأة الآن ربما رحلت للأبد.

لم ترد أن تصيبها إغماءة، لكنها لم تخش حدوثها، فبوسعها إدراك سطح الماء في ثوان قليلة، وهي تعرف بأن إنذارات أخرى في طريقها قبل أن تفقد الوعي.

ثم استقبلت الإنذار الأخير، وخزًا في أصابع يديها وقدميها، وكلالة باهتة في الكتفين والفخذين، وإحساس ثقيل في فمها وحلقها. ضربت بذراعيها في الماء، وركلت بالزعنفتين كالمقص فشقت السطح إلى ضوء الشمس.

تعلقت إلى جانب القارب، وسعلت تطرد الماء من فمها، ثم شهقت أنفاسًا متلاحقة وهي تلعن نفسها للمجازفة إلى ذلك الحد. لكنها لم تصب بأذى.

لقد أزالت أحبالًا كثيرة، ولو رحلت الحدأة عندئذ فما من خير بعدما أدت ما أمكنها. تمنت لو أن فيه الكفاية لتستطيع الحدأة المضي بجهدها وحدها.

استراحت وأطلت في الماء، توقعت أن تستغرق وقتًا في البحث

عن الحدأة، لكنها كانت في موضعها لا تتحرك. لزمت مكانها على عمق أقدام عشرة تحتها.

تنفست «بالوما» بعمق ثم كتمت أنفاسها، كانت على وشك الغوص للحدأة، لكن حسًّا جديدًا انبعث في داخلها. كان شعورًا غامضًا في البداية، ذبذبة ضعيفة انقلبت إلى أزيز عال لكنه شاحب، أقرب للطنين. أصغت بانتباه وهي لا تزال تحتبس أنفاسها لتتأكد من أن الصوت لا يصدر من رأسها.

ثم أطلقت النفس المحتبس ليكسر وتيرة الأزيز، ثم عادت تكتمه.

ظل الصوت هناك، بيد أنه بات أعلى.

قدرة الماء على توصيل الصوت محدودة، لكن أصواتًا معينة تحت الماء تكون أكثر وضوحًا من سواها. وأحيانًا ما تكون أفضل سمعًا وأقوى تأكيدًا منها على السطح. اصطدام حجرين ببعضهما مثلًا، يمكن استخدامه كإشارة. فعلى حين يموت صوت من يصيح تحت الماء، فإن الحجرين المتصادمين يسافر صوتهما واضحًا لمسافات بعيدة.

أيضًا أصوات الحيتان تمضي لمسافات شاسعة، فهي قرقعة وصفير عالي التردد، فتكون مسموعة، وغالبًا ما يتم التخاطب بين الحيتان -أو بين سلاحف الماء- فيسمع الصوت دون رؤية مصدره.

بعض الماكينات تسمع أصواتها من مسافات بعيدة، ماكينات الديزل الكبيرة عميقة الصوت كالزئير، مثل جيش من الدببة يمشي

على أرض خشبية. عادة ما تشعر بهذه الماكينة قبل سماعها، دوران رفاص ضخم يؤثر في ضغط الماء، فيشعر المرء بدقات على طبلتي أذنيه أو بضربات خفيفة على ذراعيه وظهره. أما الماكينات الصغيرة ذات السرعات العالية فتحدث أزيزًا عاليًا.

ولم تعرف «بالوما» تفسيرًا لانتقال بعض الأصوات تحت الماء وعدم انتقال الأصوات الأخرى. فافترضت أن الطبيعة هي التي تحدد ذلك. الصوت الآدمي يحدث حسًّا خفيفًا مشوشًا، فيبعثره الماء على الفور. وصوت الحوت حاد ورقيق ينتقل كأنما يخترق الماء.

وطبعًا يعتمد وصول الصوت بكامل خصائصه على من يستقبله. فقد قال «جوبيم» إن الأذن الآدمية تكاد تتساوى في كفاءتها مع جهاز الراديو الكريستال الذي جمعه من مجموعة مكوناته عندما كان يافعًا.

قال: نحن نصر على أن عالم تحت الماء يسوده صمت مطبق. الواقع أن البحر مكان شديد الصخب.

أصرت «بالوما»: كيف يكون صاخبًا وهو أهدأ ربوع الأرض؟

لم يجادل «جوبيم»، لكنه في رحلته التالية إلى «لاباز» اشترى صفارة كلاب، نفخها أمامها فلم تحدث صوتًا.

قالت: إنها تالفة.

أخذها «جوبيم» من يدها إلى الباب المجاور. كان لجارهم كلبة وضعت ستة جراء من ثلاثة أسابيع.

تكومت الجراء إلى جانب الأم المنهكة، أعطاها «جوبيم» الصفارة.

– انفخيها بلطف، فالجراء بدأت السمع من فترة قصيرة، ولا نريد إيذاء آذانها.

ظنتها «بالوما» دعابة، فأخذت نفسًا عميقًا، وكادت تنفخ بأقصى قوتها، لكن «جوبيم» اختطفها منها.

– إني جاد، انظري.

وضع الصفارة بين شفتيه ودفع بخيط هادئ من الهواء خلالها. لم تسمع «بالوما» شيئًا.

لكن كومة الجراء الناعسة تقلبت كأنما سقطت عليها قطط من السماء. حاولت الجراء النهوض فتزاحمت بعضها فوق بعضها الآخر، وهي تعوي. جاهدت أن تتسلل تحت أمها التي أمالت رأسها، وانتصبت أذناها وهي تزوم تهديدًا مرتبكًا. وتوقف «جوبيم» عن النفخ، على الفور استرخت الجراء. تطلعت الأم حولها، وقررت أن «الدخيل» ذو التردد العالي قد انصرف، فخفضت رأسها إلى الأرض.

في طريق العودة قال «جوبيم»: عدم سماعنا لأصوات تحت الماء لا ينفي وجودها.

ثم صمت كأنه متردد بين الاستمرار والصمت، ثم ابتسم وهز كتفه.

– نفس الشيء ينطبق على الرؤية.

– ماذا تقصد؟

– العين هي الأخرى تستقبل، مثل أجهزة التليفزيون التي رأيتها

في «لاباز» تستقبل نوعًا من الأشعة. عيناك تريان نوعًا محددًا منها، لكن هناك أنواع أخرى لا تراها عيناك.

- تعني ألا أرى أشياء.. موجودة فعلًا؟

أطرق جوبيم: تمامًا.. أنت تفهمين الآن.

أشاحت بذراعيها فيما حولها: أشياء حية، وأمور تحدث.. لا أراها؟

- نعم. ولا أحد يعرف على وجه الدقة ماذا...

قالت «بالوما» صراحة: لا أريد الاستمرار في هذا الحديث.

كاد «جوبيم» أن يضحك، لكنه رأى التصميم في فكيها وتقوس حاجبيها، كانت جادة بأكثر مما تحتمل.

لذا فلم يزد على سؤال: أأنت واثقة؟

أطرقت: كأننا نخوض في الأبدية. لا أريدك أن تحدثني عن الأبدية.

- ولم لا؟

- تخيفني، وربما أبكتني.

قال وهو يضغط كفها: اتفقنا.

الآن وهي مستلقية على الماء تستمع للأزيز، حاولت أن تتذكر كيف تقدر مدى الصوت. إما أن «جوبيم» لم يعلمها أو أنها لا تتذكر. لا يهم على أي حال. افترضت صدور الصوت عن قارب، ربما عن

ماكينة خارجية، يمر على مسافة. لئن صح ذلك فلعله مضى لسبيله.

وتذكرت الحدأة، وأرادت التيقن، فراجعت السكين المثبت في الحزام، ثم أخذت أنفاسها وعادت تقفز إلى الحدأة.

رأت العين السوداء تدور لأعلى نحوها، ثم تتابع اقترابها حتى مرت خارج مدى البعد.

وهبطت على الظهر الأسود العريض، واستقرت بهدوء فوقه. لاحظت أن ركبتيها لطختا بالسواد.

مررت يدها على ظهر الحدأة ثم نظرت إلى أصابعها، فرأت أنها قد تلونت هي الأخرى بالسواد، المادة المخاطية التي تحمي جسد الحدأة.

استدارت للجرح، فرأت بضع أحبال قليلة ما زالت محشوة فيه. توصلت إليها بحافة سكينها، فأزالتها جميعًا، وبأطراف أصابعها نظفت الجرح من الشظايا العالقة فيه. أجبرت نفسها على ألا تفكر فيما يشعر به المرء لو أن إنسانًا دفع أصبعه في جرحه الفاغر. لم تطرف أو ترتعد. إما أن الجرح عميق تعدى الأعصاب السطحية، أو أن تلك المشاعر لا وجود لها في الحدأة. على أي حال تمكنت «بالوما» من تنظيف الجرح واستئصال الأشلاء المتدلية من لحم متعفن.

دلتها الأحاسيس في رأسها وصدرها على أن بعض الوقت ما زال متاحًا لها، نصف دقيقة على الأقل قبل أن يتحتم عليها الصعود. فاستخدمت يديها كالجاروف تجمع بهما اللحم الممزق إلى بعضه،

وتدفعه إلى داخل فجوة الجرح وتضغط عليها، كأنما تعينها على الالتصاق والالتئام. ورغم هدوئها وصمتها، فقد أحدث اللحم صوتًا كالصفع، وتحركها حول الحدأة يترك خلفها ذيلًا من الفقاقيع.

ثم دق النبض في صدغيها أكثر إلحاحًا، كل ذلك الجهد والتركيز على ما فعلته، لم يدع لها مجالًا لتمييز صوت الماكينة الخارجية التي دنت فوقها.

كانت مضطرة للصعود، فسحب ذراعيها الماء، وركلت ساقيها.

العادة وحدها جعلتها تنظر إلى أعلى. نصحها دائمًا «جوبيم» بالتطلع فوقها أثناء الصعود، حتى لا تصطدم رأسها بقاع القارب.

توقعت رؤية صفحة السماء، لكنها -بدلًا منها- رأت وجه «جو»، أطل وجهه عليها من القاع الزجاجي للدلو، وابتسامته التي شوهتها الانكسارات في الماء، كانت أقرب إلى ابتسامات الأقنعة المخيفة.

تراجعت من الصدمة، وعادت تنظر للتأكد من أنه ليس خيالها، فرأت أصابع «جو» تزحف من حول الدلو وتلوح لها.

شقت «بالوما» الماء وأمسكت بجانب قاربها.

لقد وضع «جو» حبلًا حول حبل مخطافها، فارتبط القاربان، لكنه ظل يطل في الماء من خلال القاع الزجاجي للدلو.

- يا إله السماوات. كيف استطاعت الإمساك به؟

قال أنديو: دعني أرى.

ارتجف قلبها، وبات بوسعها سماع دقاته في صدرها وإحساسه

في حلقها. أخذت نفسًا طويلًا حاولت أن تهدئ به من اضطرابها، فقد كانت في حاجة لكل سيطرة على أعصابها قبل أن تأمل في التعامل مع «جو» و«أنديو». من الثالث معهما؟ الأنيق الجالس بثقة في المقدمة، وشفى بمعجزة، كان «مانولو».

أول ما خطر ببالها أن تصرخ في جو، وأن تضربه. أدركت أنها قد خُدعت، بل وحتى انتهكت. لكنهم ثلاثة، وهي وحدها. إذا سمحت لغضبها أن ينفجر، فما من أمل لها في التوصل لشيء سوى ضحكات «جو» ورفيقيه، ومضاعفة شعورها بالمهانة.

عاد «جو» يسأل: كيف استطعت الإمساك به؟

قالت بالوما: لم أمسكه. ما من شيء يعيده.

- هو ميت إذن؟

- كلا.

رفع أنديو رأسه من الدلو الذي كان يطل من خلاله، وصاح:

- انظر إلى كل هذا. أشبه بسوق الأسماك. منجم ذهب.

اجتاحت «بالوما» نوبة غثيان أدارت رأسها، ورغم وجودها في الماء، أحست بقطرات العرق على جبهتها.

قال «جو»: هذا ما قلته. كنت واثقًا من أنها لا تأتي هنا لدراسة «الجمبري».

- صدق ظنك.

- إنك خالفتني وقلت «لنبق في موقعنا». يا لك من خبير.

قال «أنديو»: حسنًا. أقول إنك على حق، أعترف بذلك، وأسحب ما قلته. والآن هيا بنا نجمع تلك الأسماك.

وكان «مانولو» ينتظر تلك الكلمة، فقد ألقى بسنارته في الماء، وترك الخيط ذو الثقل ينساب من بين أصابعه.

صاحت «بالوما»: لا تفعل ذلك.

ضحك «مانولو»: تحتنا أسماك كثيرة. أتقصدين أن أتركها وشأنها؟ الأسماك خلقت لنصطادها.

سحبت «بالوما» نفسها على جانب القارب نحو مقدمته.

– أنت مخطئ. لست من الأهمية حتى يخلق الله لك شيئًا تصطاده، أي شيء.

وأطبقت بيدها على حبل المخطاف، واستلت اليد الأخرى السكين من حزامها، فقطعت حبلهم الذي كان يثبتهم إلى قاربها. كان الحبل مشدودًا بفعل التيار، فمر النصل الحاد يقص خيوطه بسرعة أحدثت قرقعة. وعلى الفور اندفعت مقدمة قارب «جو» بعيدًا، تجر أمامها خيط الصيد الذي اشتبك بالحبل المقطوع. وحمل التيار القارب بعيدًا.

قفز «جو» غاضبًا يسب «بالوما»، ثم شد حبل بادئ الماكينة. انفصل الحبل في يده، فسب الماكينة، وعاد يسب «بالوما»، والحبل وكل القوارب والبحر. أعاد لف حبل البادئ وشده للمرة الثانية. طقطقت الماكينة ثم ماتت. سب شموع الاحتراق وموزع الوقود والوقود نفسه.

تعلقت «بالوما» بحبل مخطافها، وراقبت «جو» في مؤخرة قاربه الذي يتراقص بشدة حتى كاد أن ينقلب. ثم رأت خيطًا من الدخان، وسمعت دوي الماكينة ينبعث إلى الحياة.

دار «جو» بالقارب في زاوية ضيقة متجهًا نحوها، وعلى الفور قفزت إلى قاربها. هي تعلم أن نوبات غضبه أحيانًا ما تكون عنيفة عمياء، ولا تستبعد أن يدهمها بقاربه. لم تعتقد أنه ينوي ذلك حقًّا، بيد أنه قد يصيبها عفوًا.

وجه قاربه مباشرة تجاه قاربها، وقد فتح للماكينة أقصى اندفاع حتى أصبح على بعد أقدام منها، ثم أوقف الماكينة كلية. توقف القارب يكاد يلاصق قاربها، فأثار تموجات رفعتها وأرجحتها حتى كادت تلقي بها إلى البحر.

أوشك «مانولو» على الانفجار غضبًا وهو يلف حبل القارب حول مخطافها ويربطه.

كان خيط سنارته مشتبكًا بالحبل، فسعى لتخليصه، لكنه كلما حرر دورة تعقدت التالية واشتدت.

قطع خيط السنارة، وزمجر نحو «جو»:

- إذا لم يمكنك تأديبها، بوسعي أن أقوم بالمهمة.

قال «جو»: لا عليك، سأجعلها تندم.

- انظر يا «جو».

كان ذلك «مانولو» الذي وضع الدلو في الماء وأخذ يمسح الجبل

من قاعه الزجاجي.

– أسماك تونة ومرجان وذهبية، يا إلهي، ملايين المرجان.

نظر «جو» إلى «بالوما»، وقال مقلدًا لهجة أبيها.

– لا يوجد الكثير، أليس كذلك؟ نفس الكلام القديم. كنت أعرف أنه لا يوثق بك.

ذهلت «بالوما»: لا يوثق بي؟ من ذا الذي قال إنه يريد تعلم الغوص؟

– أنا قلت ذلك. وفعلًا أريد.

– لدراسة البحر ومعرفة الحيوانات.

– أنا أريد...

– كلا. ما تريده هو قتلها فقط.

قال «جو» باسمًا: لا. أريد قتلها ثم أتعلم. عندما أبيع الكفاية من الأسماك لأحصل على ما يكفي من المال لمغادرة هذا المكان، عندها سأدرس في «نيو مكسيكو».

استلت «بالوما» السكين وتقدمت إلى حبل الرباط.

قال «جو» بلهجة ذكرتها «بفيجو» الحكيم: «بالوما»، لا تكوني غبية.

– تعني أن أستسلم وأدعك تقتل كل شيء.

– ها أنت تعودين للمبالغة. حتى لو أردت، ليس ممكنًا قتل كل

شيء على الجبل. كل ما نأخذه يحل محله سمك آخر. البحر مستمر للأبد، ولا بد أن تعرفي ذلك.

– هراء. ما تريده هو إفناء كل شيء في هذا المكان.

– لن أجادلك. ولكن ما شأنك أنت؟ لن نأخذ محاراتك الثمينة.

– ماذا؟ أنا...

عاد يبتسم: لم تتوقعي أن أعرف. أليس كذلك؟

حارت بالوما. ماذا يعرف؟ لو عرف بموضوع العقد لأفسد الأمر كله. لو عرف حقًّا لوجد طريقة لإفساد المفاجأة، ليرد لي... ماذا؟ نجاحي حيث فشل هو!

سألت: ماذا تعرف؟

– أنت تصطادين المحار. لكنك من النقاء بحيث لا تأخذي شيئًا من البحر. طبعًا. لقد رأيت الأصداف والمحارات في قاربك، أو ما تسمينه قاربًا.

ونظر حوله، فأعجبته ابتسامات التقدير من «أنديو» و«مانولو».

قالت وقد شعرت بالراحة: محارتين فقط.

ثم أضافت مؤكدة: لآكلهما هنا. هذا كل ما في الأمر.

– وهذا ما نريد: بعض الأسماك لبيعها. هذا كل ما في الأمر.

ترددت قليلًا قبل أن تستطرد: لقد أراد أبونا لهذا الجبل أن يكون آمنًا. ورأى أنه وديعة لدينا الحفاظ عليها. كان... كان مكانه المفضل.

احمر وجه جو: أعرف. أتظنينني لا أعرف؟

وتناثرت الكلمات من فمه بازدراء وهو يقول «لأنديو»:

- أعرف بالطبع. لقد سمعتني أقوله لك.

نظر «أنديو» بتساؤل إلى «جو»، لكنه لم يجب.

استدار «جو» يحملق في «بالوما» وصاح: أبونا مات يا «بالوما». مات.. مات.

صمت أذنيها بكفيها. لم ترد سماع ما يقول.

- لست آبه لو أنه قال لك أن تنقذي العالم كله. إنه ميت، وما قاله لم يعد له معنى. أتفهمين؟ لا معنى على الإطلاق. ما أقوله أنا هو الذي يهم. وأقول إني أهم بكثير من أسماكك الغبية.

لم يعد لدى «بالوما» ما يقال. لذا رفعت السكين لتقطع الحبل.

- لن يمنعنا ذلك.

- نعم سيمنعك. سأرفع المخطاف وأرحل، ولن تجدوا المكان ثانية.

- سأحدده بعوامة.

- سأقطع عوامتك أيضًا.

- سأستعين بالعلامات على البر.

صاحت ساخرة: أنت؟ أنت لا تعرف طريقك للمنزل بعلامات برية. أنت لا تعرف شيئًا.

- يمكنني التعلم.

كانت تعرف أنه على حق، بوسعه معرفة استخدام العلامات البرية. وبمجرد اكتساب وسيلة تطبيقها، يمكنه الوصول للجبل بنفس سهولة وصولها هي إليه.

حاول «جو» أن يبدو متعقلًا: اسمعي يا «بالوما». ليس محتمًا أن نختلف، وبوسعنا التوصل إلى حل، وبذا نظل صديقين.

كانت «بالوما» قد أشاحت بوجهها بعيدًا، فعادت تحدق في وجهه لترى إن كان يتعمد السخرية منها. لكنه بدا مخلصًا في كلماته.

قال: سأعقد معك اتفاقًا.

- أي اتفاق؟

- ألا أخبر أحدًا عن المكان. وطبعًا سأحافظ على وعدي، فهو قبل كل شيء في صالحي.

سنصيد بالسنارة فقط دون شباك. وأي صيد لا جدوى منه نعيده للماء.

لاحظت «بالوما» نظرات رفيقيه نحوه، كأنما يظنانه فقد عقله، لكنهما ظلا صامتين.

استطرد جو: يجب أن تعترفي بعدالة الاتفاق، فلست مجبرًا على شيء. بوسعي الحضور إلى هنا والصيد حتى بالديناميت إن أردت.

وافقت «بالوما»: بمقدورك ذلك. لكنك تعلم لو فعلت...

تمنت لو أن صوتها الهادئ حمل إليه التهديد الكافي. وأضافت:

- سأنتقم، يومًا ما وبشكل ما ستدفع الثمن.

زأر «جو» بالضحك، وضرب على ظهر «أنديو». بيد أن ضحكه كان هشًّا. «بالوما» -بصرف النظر عن قدرتها الجسدية- خصم لا يمكن التنبؤ بما قد تفعله. حقًّا «جو» هو الأضخم والأقوى، لكنه يدرك أنها الأسرع والأذكى، وأن المبادئ التي تحركها تضفي عليها المزيد من الشجاعة.

وعلى الطرف الآخر، قلبت «بالوما» اقتراحه على وجوهه. أيقنت على الفور أنها ليست «صفقة» على الإطلاق، بل نوعًا من الابتزاز غير الخفي. لئن سمحت لهم بالصيد كيفما شاءوا وبالكميات التي يبغونها، فلن ينشروا الخبر بين منافسيهم. أما إذا ضيقت عليهم بالقضاء على الطعم أو إفساد ماكينة القارب أو إتلاف العوامات، فإنهم يذيعون نبأ الموقع وثرواته ليصبح مشاعًا.

والأسوأ -كما تصورت بالوما- هو الشك في التزامهم بالاتفاق. كان محتمًا أن يجد أحدهم نفسه في جدل يحتاج إلى التفاخر بشيء خلاله، ليرفع نفسه إلى مستوى أعلى من منافسه. فإذا عرف وجود الجبل، لن يبقى موقعه سرًّا لوقت طويل.

من المحتم أيضًا -عاجلًا وليس آجلًا- أن يستخدم ثلاثتهم الشباك. الإغراء أكبر من أن يقاوم، كوضع طبق من الحلوى اللذيذة أمام ثلاثة أطفال يتضورون جوعًا، وتحديد نصيب كل واحد منهم بقطعة واحدة؛ بالطبع سرعان ما يختفي الطبق بأكمله. تجمعات ضخمة من الأسماك تمر تحت قاربهم، من المرجان والبونيتو والناجل والبوري، أجسادها

تلمع في أذهانهم كقطع العملات الفضية. ربما اصطادوا ستة أسماك، أو خمس عشرة بالسنارة. ثم يدور حديث عن الثروة الهائلة التي تمضي تحتهم بعيدًا عن متناول أيديهم قبل أن يحصلوا منها على شيء يذكر. عندئذ يستقرون على تجربة الشبكة -هذه المرة فقط- ليروا كم يمكن صيده. مجرد تجربة لا أكثر. فيمسكون بالمئات والمئات، وبعدها لا يرضيهم شيء أقل، ويكتمل الإغراء، ويتقرر بينهم أن الصيد بالشباك رائع وعادل، فالله أعطى الإنسان حق الانتفاع بالحيوان.

قال جو: ما رأيك؟ هل اتفقنا؟

لو رفضت وأعلنتها حربًا صريحة، من الممكن أن تجعل أيامهم عند الجبل بائسة حتى يرحلوا عنه. والأقرب إلى الحدوث عندها هو إشراك بعض رفاقهم في السر، وإضافة قاربين أو ثلاثة إليهم. ثم يبدأ استخدام الشباك على نطاق واسع، لتنتهي الحياة على الجبل بأسرع من ذي قبل.

لم يكن لها خيار، وقد تكسبها الموافقة بعض الوقت.

- موافقة.

قال «جو»: قرار ذكي، منتهى الذكاء.

أشار «لأنديو» و«لمانولو» -كالقائد يأمر قواته بالتقدم- ببدء الصيد. وضحت السعادة على محياه، فهو الزعيم الذي توصل إلى هدنة مرضية، كشفت ضعف العدو، وهو الآن ينشر قواته ليجني ثمار حكمته.

راقبتهم «بالوما» يلقون بالخيوط ذات الثقل في الماء. ارتدت قناعها واستندت إلى جانب القارب وأطلت في الماء. كانت الحدأة في مكانها ساكنة، عشرة أقدام تحت السطح، وخيوط الصيد تمر على أربعة أو خمسة أقدام منها، أمام جناحها الأيسر. لو أنها قررت الرحيل فجأة، فإن جناحها الأيسر يصدم خيوط الصيد، وتدفعها الحدأة جانبًا مع تقدمها، دون خطر الإصابة. أما إذا صدم الجناح الخيوط المشدودة من أعلى ومن أسفل، دون ارتخاء يجعل الخيط يميل وينزلق جانبًا، فإن الخيوط تنغرز في اللحم، وربما استقرت داخله مثلما حدث مع شبكة الصياد، وتزداد الخيوط تعمقًا كلما زادت الحدأة دفعها، فتصاب إصابات مماثلة لتلك التي عولجت منها، لكنها أسوأ؛ فالخيط المنفرد يقطع في اللحم، وربما استأصل جزءًا من الجناح، والنتيجة المحتمة: الموت.

وضعت «بالوما» زعنفتيها حول قدميها، وثبتت أنبوبة التنفس في حزام القناع.

سأل «جو»: أين تذهبين؟

ونادى «مانولو»: ابتعدي عن خيط السنارة.

قال «جو»: لا تقلق. لقد عقدنا اتفاقًا، وهي تعلم الأفضل لها ألا تعبث معي.

لم تقل «بالوما» شيئًا. انحدرت من جانب قاربها، وتنفست بعمق، ثم غاصت إلى الحدأة. فحصت الجرح الذي زمته، فوجدته ثابتًا لم يتفكك أو ينحل. ربما التأم واندمل. وما دام لم يعد هناك مجال

للاحتكاك، فما من داع لافتراض غيره.

لم يكن ثمة ضوار أو طفيليات في المنطقة، فاستخلصت «بالوما» أن الحدأة كفت عن إرسال إشارات الكرب واليأس، وأن تركيبها العضوي ازداد تعلقًا بالنجاة. وسعدت «بالوما» للفكرة. بيد أن الحدأة في حالتها ما عادت تحتمل إصابة جديدة. عادت «بالوما» تتفحص الجرح، فمرت يدها برقة على اللحم حوله، ثم اتجهت إلى القرن الملتف في الجانب الأيمن فأمسكته وضغطت عليه.

أرادت أن توجه الحدأة، وما دام أنها استجابت من قبل، فلا بد أن القرن في حساسية فم الحصان، فتستجيب الحدأة بالتحرك إلى اتجاه يخفف من ذلك الضغط.

وعندما تأخرت استجابة الحدأة، زادت «بالوما» ضغطها على القرن تلويه نحو القاع.

أحست برعدة العملاق الذي وصلته الرسالة كأمر «لماكيناته» ببدء الحركة.

في صمت انخفض الجناح الأيمن وارتفع الأيسر، ثم رفرفا معًا صعودًا وهبوطًا. أطاح الضغط «ببالوما» بعيدًا، واندفعت الفقاقيع من فمها، ومع انقشاعها رأت الحدأة تجنح لليمين، وتستمر في الدوران كطائرة، فتتجه إلى القاع.

تتبع «جو» كل ما حدث من السطح خلال صندوق الرؤية، ثم التقط حجر الشحذ وأخذ يحركه في دوائر صغيرة على سن رمح الماء.

سأله «مانولو»: ماذا ستفعل؟

- الاتفاق يمنع استخدام الشباك.

- أقصد فيم ستستخدم الحربة؟

أشار «جو» نحو الماء حيث كانت الحدأة: سوف تعود.

صفّر «مانولو» بفمه: هكذا يكون الربح الحقيقي.

- قلت لك إني أرعى مصالحكما.

- أنت قلت ذلك؟

- طبعًا. ألا تذكر؟ قلت إن عليكما فقط إبلاغي أين ذهبت «بالوما»، ودعا البقية لي.

- آه. نعم.

قال «جو» مبتسمًا: عليكما ملازمتي، ولسوف نصبح في أفضل حال.

تحت الماء، راقبت «بالوما» الحدأة تتجه إلى القاع. كانت تحلق في وضع مقلوب، فبدت بطنها ناصعة البياض. وعندما وصلت إلى قمة الجبل، داومت دورتها البطيئة الهادئة، تهبط كطفل ينزلق على كومة رمال، حتى بات ظهرها الأسود جزءًا من حلكة الأعماق.

ولم تعد «بالوما» ترى شيئًا.

أرادت أن تتبعها، أن تدور مثلها هبوطًا إلى قمة الجبل، وأن تحلق معها لتصبح جزءًا من إيقاع البحر وتناغمه. لكن بدنها ذكرها

بأنها تحيا آدمية، ولو شاءت أن تظل كذلك فعليها الصعود فورًا إلى السطح. وفي طريقها لأعلى ظلت ترقب ما تحتها، سعيدة بأن تمكنت من مساعدة الحدأة، وتتمنى لو كتبت لها النجاة. وأحزنها أن نجاتها ربما كانت في الابتعاد عن الجبل، فلم يعد ملاذًا آمنًا. وما أثمر ذلك الإدراك إلا بأن أشعل غضبها من جديد.

على مدى بصرها رأت شيئًا ينتفض بعنف، ظنته الحدأة للوهلة الأولى، وقد التقطت إحدى السنارات، أو أن شيئًا يهاجمها. لكنه دنا منها، حيوان أصغر من الحدأة بكثير، يقاوم الشد ويناضل للعودة إلى القاع. وخلال ثوان رأت السمكة التي علقت بالسنارة تشدها نحو القارب. مشهد جديد، يحدث للمرة الأولى عند الجبل.

ثم أصبحت السمكة على مقربة منها، مقاومتها تضعف فتزداد سرعة صعودها. سمكة «قادوح» تمامًا كتلك -وربما نفسها- التي كانت تدافع بشجاعة عن كومة بيضها.

مدت يدها تلقائيًا تريد إمساك الخيط وتحرير السمكة، لكنها كانت بعيدة، بل وتعدتها قبل أن تقترب منها. رفعت بصرها خلال الأقدام الباقية إلى السطح، لترى السمكة التي أعجزها الإرهاق تخترق الماء إلى ضوء الشمس، وتختفي في ظلال القارب.

أمسكت بجانب قاربها وانبثقت من الماء ونفضت أنبوبة الهواء. صاحت وما زالت مختنقة بالماء.

- أعدها للماء، بسرعة.

نظر إليها «مانولو» نظرته إلى مجنونة: لماذا؟

التقطت أنفاسًا: ألقها إلى الماء، ليس هناك وقت.

حول بصره إلى «أنديو»، وابتسما.

قال «مانولو»: أمامي كل الوقت الذي أريده.

- ولكنك...

ارتبكت الكلمات في ذهنها، الفكرة تزاحم الأخرى، كلها تقاطعت في رأسها وتعارضت تعبيراتها، أرادت أن تقول «لمانولو» أن يسرع بإعادة سمكة القادوح إلى الماء. ففي أقل من دقيقة تبدأ الشمس في الإضرار بجلدها وتكوين تقرحات عليه. وخلال دقيقتين على الأكثر تختنق السمكة التي لا تستطيع استخلاص الأكسجين من الهواء. كانت السمكة فعلًا في حالة صدمة إثر الصراع مع السنارة، لكنها قد تنجو لو أعيدت فورًا للماء.

غير أن كل ما أرادت قوله لم يخرج من فمها، مجرد أن قالت:

- أنت لا تفهم.

عاد «مانولو» يبتسم. «بالوما» هي التي لم تفهم منذ البداية، وصدمها عندئذ كضربة على أم رأسها.

«هي» لا تفهم، أن «مانولو» لم يكن ينوي بأي حال إعادة السمكة للماء، فهي «صيده» الذي لا ينازعه عليه أحد، ومن يحاول منع موتها في قاع القارب ليس إلا لص.

عندئذ -وقد فهمت أخيرًا- لم يعد لها سوى سؤال: ولكن لماذا؟

- ماذا تقصدين؟

- أنت لا تأكل هذه السمكة. لا أحد يأكل «القادوح».

- القطط تأكلها.

- ماذا؟

- بعد طحنها تصبح طعامًا للحيوانات المدللة.

ورفع «مانولو» السمكة وهي تنتفض وقال: هيا يا قطيطة.. خذي يا قطيطتي.

ثم ألقى بالسمكة في قاع الزورق.

تلعثمت «بالوما»: ولكن.. ولكن هذا المخلوق الجميل، تقضي عليه من أجل....

- أي قضاء؟ كل ما نصطاده يدفعون ثمنه.

ثم وضع «مانولو» قطعة طعم أخرى في سنارته.

عرفت «بالوما» ألا جدوى من النقاش، فهو ضياع لوقت ثمين، ليس وقتها، ولكن حياة السمكة.

كل ثانية تمر تقربها من الموت.

صاحت: ألق بها إلى الماء.

حملق «مانولو» نحوها بعينين خاليتين من التعبير.

قال: حسنًا. لقد أقنعتني.

مد يده لقاع الزورق والتقط السمكة من ذيلها. تظاهر لوهلة

بفحصها ثم قال:

- يبدو أنها غائبة عن الوعي، الأفضل إيقاظها.

ورفع السمكة عاليًا، وضرب بها على حافة الجانب. تحول الجسد الرقيق الذي كان ذهبيًّا قانيًا إلى لون «الكركم» والرمادي الباهت. انتفضت مرة ثم سكنت للأبد.

نظر «مانولو» نحو «أنديو» وقال: لم تنفع المحاولة، لا أعرف لِمَ؟ واستدار إلى «بالوما»:

- أنتِ تعرفين الكثير عن السمك، خذي، حاولي أنتِ.

وألقى السمكة نحوها، سقطت أمامها فنثرت رذاذًا على وجهها، وطفا الجسد المفلطح على جانبه. لم تتحرك الزعانف ولا نبضت الخياشيم. والعين التي كانت سوداء في حياتها تشع حيوية وخوفًا وفضولًا وهدوءًا، باتت باردة ساكنة كالكوة في غرفة خالية.

أمسكت «بالوما» بالجسد الساكن قبل أن يجرفه التيار، لم تقل شيئًا، وما كان كلامها ليغير شيئًا.

المؤكد أنه ما من شيء ليغير ما حدث، وربما ما من شيء ليغير ما سيحدث من الآن.

نظرت إلى «مانولو» المنهمك في إعداد سنارته، وبدوره يختلس نظرة إلى «أنديو» متوقعًا استحسانه، ثم إلى «جو» الذي كان يرقبها. أسرع يحول بصره عنها عندما اتجهت إليه، وتظاهر بالتركيز على حل عقدة في خيط الصيد.

دار بخلدها أن «جو» يسعى ألا يبدو محرجًا. كان بالفعل محرجًا، فهو لا يملك سيطرة حقيقية على رفيقيه. لكنه ليس من الغباء حتى يقدم على التهور مثلما فعل «مانولو»، خصوصًا بعد أن حاول أن يبدي تعقلًا. وهو لا يملك منعًا «لمانولو»، ولم يحاول، كيلا يرد عليه الأخير ردًّا مهينًا، فتتعرض صورته -قائد الجماعة- للاهتزاز. لقد احتمل الآخران زعامته الكاذبة لسببين: ملكيته للقارب (الذي كان قارب جوبيم)، ولأنه أدار الخديعة التي كشفت عن جبل الماء.

ورغم الألم الذي سببه «مانولو» لها، فقد أسداها صنيعًا دائمًا لا يتسنى، كجراح بارع، استأصل بمشرطه الحاد منها أوهام السذاجة والرقة والرغبة في أن تكون محبوبة، فضلًا عن استعدادها الفطري للثقة بالناس.

ما فعله «مانولو» كان مسلك القراصنة القدامى في التسلل إلى الضحية تحت علم حليف، وفي اللحظة الأخيرة يرتفع شعار القرصان يكشف الهوية الحقيقية والخديعة.

دون كلمة استلت «بالوما» سكينها، فقطعت السمكة نصفين ثم أرباعًا. ولم يكد الدم يختلط بالماء حتى تجمعت الأسماك الصغيرة تبحث في هياج عن الطعام الذي لا ريب موجود.

تركت «بالوما» قطع اللحم تسقط واحدة بعد الأخرى، وراقبت خلال قناعها الأسماك تنهش ما يسقط أولًا بأول. شعرت بالخدر يسري في بدنها وهي تفعل ذلك، كأنها تستعيض به عن الشر الذي أتاه «مانولو»، وتستعيد التوازن الطبيعي الذي عبثت به وحشيته. لقد

قتل حيوانًا ولربما تركه يفسد تحت الشمس حتى يجف ويطحن إلى مسحوق. نهاية تحرم الحيوان من نبل الكائنات التي كانت حية. هي على الأقل قد حققت نهاية أنظف وأسرع وأقرب إلى الطبيعة. ورغم أن السمكة ماتت على يد خنزير، فقد عاد جسدها لموطنه، يساهم في غذاء المخلوقات الأخرى حول الجبل، ويشترك في توفير أسباب الحياة للجماعة.

تفرق الدم وأصبح جزءًا من ماء البحر، وهبطت قطع السمكة الباقية تتقلص في هبوطها إلى العدم. تجمعت الأسماك الصغيرة تلتقط الفتات، العظام وحدها أدركت القاع.

تسلقت «بالوما» الجانب إلى قاربها، فخلعت القناع والزعنفتين. في القارب الآخر انهمك الثلاثة في الصيد، فلم يلحظوا تحركها إلى المقدمة لتخليص حبل المخطاف من الصخور تحتها. كانت قطعة الحديد ثابتة، فاضطرت إلى تحريك الحبل مرات عدة، ثم شده في اتجاه آخر، ترخيه وتشده حتى تحرك القضيب من مكمنه وارتخى الحبل، فشدته ليصعد بانتظام.

ومع تحرر المخطاف من الصخر، انساق قاربها مع التيار مبتعدًا عن الجبل ومعه قارب «جو» المثبت إليه.

كان «جو» أول من لاحظ حدوث التغيير، كانت السنارتان في الماء على مسافة أقدام من بعضهما، وعندما انزاح القارب تحرك الخيطان معه، فلم يشعر أحد بالفارق. ولكن عندما أدلى «جو» بسنارته، وانتظر وصولها للقاع، استمرت في الهبوط دون توقف؛ فالقاربان ابتعدا عن

الجبل وأصبحا فوق قاع يبعد أربعة آلاف من الأقدام. ظل الخيط يهبط ويهبط، وكلما ازداد عمقًا زادت سرعة هبوطه حتى خلت لفة الخيط تمامًا.

استدار ينظر إلى قارب «بالوما» فرآها وهي ترفع مخطافها إلى القارب، لينفصل القاربان عن بعضهما.

صاح بها: هيه!

قالت «بالوما» بهدوء: يجب أن أعود الآن. ألق أنت بمخطافك.

ثم ركعت في قاربها تلتقط المخطاف.

- ولكن أين القاع؟

قالت وهي تلوح نحو بقعة على بعد مائتي ياردة:

- هناك. لن تخطئه. بحار متمكن مثلك.

شرع الآخران يرفعان سنارتيهما، وأسرع «جو» يعيد الخيط للقارب.

ظلل عينيه بيده وأطل نحو الشاطئ، على أمل التعرف على العلامات البرية. غير أن تلك العلامات كانت غير سهلة التمييز وهو يقترب من الجبل. أدار الماكينة واتجه بنصف سرعة ضد التيار ليعود حيث كان قبل أن يجرفه التيار.

صاح «بأنديو»: ضع الدلو في الماء وأخبرني عندما نصل.

لم يكن التيار قد حملهم طويلًا، فافترض أن يدرك الجبل في بضع دقائق.

وضع «أنديو» الدلو ذا القاع الزجاجي في الماء، وثبته بكلتا يديه حتى لا يجرفه التيار. كل ما رآه تحته هو الزرقة الممتدة.

قال «جو» بصبر نافد: حسنًا!

- لا شيء.

- لا بد أنك مخطئ.

رفع «أنديو» عينيه عن الدلو ورد بغضب: اذهب لتقبل عنزة. انظر بنفسك.

ثم أضاف بضحكة مكتومة: بصفتك بحارًا متمكنًا.

أوقف «جو» القارب وأخذ الدلو من «أنديو».

ومع توقف القارب، تمكن التيار من مقدمته أولًا فدفعها لليسار في نصف دائرة، ثم من المؤخرة فدفعها مع المقدمة. وببطء أخذ القارب يدور في دوائر. لم يعبأ «جو»، وظل يحملق خلال الدلو في زرقة لا نهاية لها.

ثم قال: مستحيل!

ابتسم «مانولو»: معجزة!

وعلق «أنديو» في تجانس: إرادة الله!

قال «جو»: صمتًا.

أعاد الدلو للقارب، وأدار الماكينة بأقصى سرعة للأمام. اندفع القارب لمئات الياردات قبل أن يستعيد «جو» إدراك الاتجاهات، ثم

يدور بالقارب ضد التيار. استمر على سيره حتى توسم أنه عوض الإزاحة الجانبية، ثم توقف وطلب من «أنديو» معاودة البحث.

- لا شيء.

قال «مانولو»: أظننا أزحنا جانبيًّا لمسافة كبيرة.

أصر «جو»: غير معقول.

اقترح «أنديو»: ربما كنت فوق الموقع الآن، فقد قطعت مسافة كافية.

- كلا. هل قدرت كم أزاحنا التيار؟

وجه «مانولو» الحديث «لأنديو»: أمر واحد مؤكد. عندما يتعلق الأمر بالموقع، فلا يعرف كعبه من رأسه.

قال جو: وهل تستطيع شيئًا أفضل؟

- لا أستطيع أسوأ من ذلك.

نظر إلى «مانولو» الذي نظر بدوره إلى «جو»، وهز رأسه وتمتم:

- يا له من حمار.

ارتبك «جو»، فرغم سعيه لإبقاء سيطرته، إلا أنه لا يمكنه التعامل مع شخصين يسعيان إلى بعثرته.

لذا ركز على أحدهما، على «أنديو»:

- عليك أن تغادرنا فورًا.

- أغادر ماذا؟

- القارب.

ثم وقف «جو» في المؤخرة يشير إلى البحر: ارحل عن قاربي.

قال «أنديو» ضاحكًا: ثم ماذا؟ أعود سيرًا على الأقدام؟

- هذا ليس شأني. إنه قاربي، وأقول لك اتركه الآن.

حاكى «أنديو» لهجته الآمرة: وأنا أقول لك اذهب وامتص ليمونة.

خطا «جو» نحو «أنديو» الذي أمسك بجانبي القارب يهزه فتمايل بشدة، وفقد «جو» توازنه وكاد يسقط في الماء، لولا أن انثنى في الهواء فسقط على الماكينة الساخنة. عوى «جو» كقط ملوع، وأبعد يديه عن الماكينة فلم يعد ممسكًا بشيء، وانحدر إلى الماء. سقط برأسه أولًا، وغاص، ثم طفا يلفظ الماء ويبحث عما يتعلق به.

مد «أنديو» يديه من فوق الجانب متصنعًا الاهتمام.

- لماذا فعلت ذلك؟ قلت دائمًا إنك تكره السباحة.

عاد «جو» يلفظ رذاذًا، وحاول أن يتوعد، لكن لم يخرج من فمه سوى الأنين.

قال «مانولو»: لو كنت مكانك لصعدت إلى القارب.

ناضل «جو» ليرفع نفسه إلى القارب، ثم رقد يلهث على المقعد الخلفي.

انطلق يعنف زميليه، وكرههما لأنهما قرآ ما بداخله، وحنق على كل شيء حيث لم يعد ثمة ما يفعله، سوى...

ظلل عينيه بيده ووقف يتطلع عبر الماء. على مبعدة ظل قارب «بالوما» يبتعد، وبدا على تلك المسافة لا أكثر من قطعة خشب طافية.

لو لم تحل قاربهم عنها لما حدث شيء من كل ذلك. ما كانوا ليفقدوا الجبل، وفي محاولة العودة إليه ما كان «لجو» أن يعاني انهيار نفوذه. كل ما بقي له من ميزة على رفيقيه هو القارب، وحتى ذلك لم يعد كافيًا، بوسعهما دائمًا الانضمام إلى آخر يملك قاربًا.

أكثر ما كرهه في انهيار سلطانه، أنه بذل عناية شديدة في إقامته. ولشدة حذره في البحر، لم يضطر لاكتساب خبرات بحرية معينة، خصوصًا مع التزامه بنفس مناطق الصيد التقليدية التي أغنت عن تنمية مهاراته الملاحية غير الموجودة أصلًا. أما رغبته في تعلم الغوص، والتي احتسبت لصالحه، بات واضحًا أنه بسرقة سر الجبل فلن توافق «بالوما» إطلاقًا على تعليمه أي شيء.

لم يكن يهمه احترام الآخرين إلا بما يساعده على بلوغ هدفه، الحصول على مال كاف ليترك الجزيرة، ويهجر البحر اللعين إلى المدينة، حيث تعتمد الحياة على استخدام الآليات. وهو يملك الخبرة اللازمة لتشغيلها وصيانتها وإصلاحها وحتى ابتكارها.

هنا ليس مكانه المناسب، وهو يدرك ذلك، لكنه بقي حتى الآن.

غير أن «بالوما» -بحركة واحدة متسرعة- حطمت مصداقيته، ولم يتبق له سوى وسيلة واحدة لاستعادة مكانته، تحطيم كل ما يهد كيانه، وإثبات أنه الأقوى والأجدر من «بالوما»، وإلى الأبد. من شأن ذلك أن يحدد الأمور كلها، الأحداث الجارية وما بعدها، وأن ينتقم

للإذلال الذي أصابه عندما أحل والده فتاة مكانه.

لا بديل عن ركوعها أمامه تعترف بسلطانه وتتوصل طلبًا للرحمة وتعده بالطاعة و...

ومع الوقت فإنه يحدد باقي مطالبه.

استدار «جو» وشد حبل البادئ، وتفاءل لأن الماكينة دارت على الفور. فتح صمام السرعة ثم دار بالقارب.

سأله «مانولو»: إلى أين؟

رفع نفسه إلى نصف وقفة لتفادي صفعات الماء على المقدم، وترك لعضلات ساقيه امتصاص الجهد.

صاح فوق ضجيج الماكينة: ستعيدنا «بالوما» إلى الجبل.

قال «أنديو»: بوسعنا الوصول إليه بأنفسنا.

أجاب «جو»: لو كان أمامنا أسبوع للبحث عنه.

ثم دفع أصبعًا في صدر «أنديو»: كل دقيقة تمضي دون صيد أسماك الجبل تكلفنا مالًا.

- ألا تبغي الذهاب إلى «لاباز» في الطائرة، ورؤية المناظر هناك، ولقاء أناس جدد؟

- نعم وأنت تعرف.

- إذن اللوم عليك لأنك رضيت بالخمول هنا.

ثم أشار إلى قارب «بالوما» الذي أخذ يكبر مع كل دقيقة اقتراب.

- هي المسؤولة عن تكبيلك إلى الجزيرة. تكاد تأخذ المال من جيبك.

- لم أفكر في الأمر على هذا النحو.

- فكر الآن؛ لأننا سننهي هذا الوضع.

كانت «بالوما» قد قطعت أكثر من نصف مسافة العودة، عندما سمعت صوت الماكينة في أعقابها.

على الفور تأكدت من حال جو، بل من نواياه. حمل إليها صوت الماكينة رسالة لا تحتاج جهدًا لفهمها. فقط شخص جاهل بالقوارب، أو فاقد للسيطرة على مشاعره، يدفع الماكينة على هذا الشكل في البحر المفتوح، على أقصى قوتها. و«جو» يعرف القوارب، ويعرف مقدار الخطورة على من في القارب، ومدى تخريب الماكينة. لكن ترددات الماكينة وصلت حد الهوس المجنون، تمامًا مثلما بلغ «جو».

ربما أخطأت في فصل قارب «جو» عنها، فهي تعلم أنه سرعان ما يضل موقعه. ما عرف أبدًا كيف يترجم حركة المد والجزر وتياريهما، ولا كيف يفرق بين ألوان الماء من أزرق شاحب أو أخضر أو أزرق داكن، وما يعني ذلك من اختلاف العمق ونوع القاع. بيد أنها لم تعرف قدر ضعفه، وسرعة تحول حرجه إلى غضب جارف وثورة مجنونة.

توقفت عن التجديف وانتظرت، فما من جدوى من محاولة الابتعاد. بحثت في ذهنها عما عساها تقول لتهدئ من ثورته. واقترب صوت الماكينة يصرخ في ألم، فنظرت خلفها لترى الهيكل الأبيض

يعلو الماء ثم يصفعه هابطًا، فيطلق رذاذًا كذيل الديك على جانبيه.

كان القارب متجهًا نحو مباشرةً.

مع ذلك بقيت تنتظر، وقد هزتها الاحتمالات الجديدة.

هل يمكن أن يصدم قاربها فعلًا؟ هل يكون بهذا الغباء؟

ربما أغرق القارب، لكن المؤكد أن يحطم قاربه أيضًا. تحيرت، وفكرت في القفز إلى الماء والغوص تحته انتظارًا لمرور القارب. لكنه عندئذ حري بأن يأخذ قاربها معه ويتركها وحدها، فضلًا عن القاعدة المقدسة التي تقوم بعدم ترك القارب إلا إذا أصبح كلية...

ثم أوشك قاربه على الانقضاض.

ارتفعت المقدمة البيضاء عاليها -فوقها- ثم هبطت إليها. لجزء من الثانية ظنت أنها تكاد تسحقها، لكنها انحرفت حادة لليسار. وللمحة خاطفة رأت وجه «جو»، قبل أن تضرب الموجة العالية قاربها فترفعه يتأرجح. ألقت بنفسها في حمى الجانب البعيد، عند متكأ القارب، فاعتدل بين موجتين. استعادت توازنها بسرعة ونهضت تتلفت بحثًا عن قارب «جو». كان عليها أن تعرف اتجاهه حتى تراه عند عودته.

على مسافة ثلاثين ياردة بدأ القارب يدور في دورة ضيقة، وينطلق عائدًا في نفس المياه التي مر بها من قبل. وانطبقت حوله المياه التي أثارها، فأطلقت الماكينة دخانًا وصراخًا، والرفاص يمر بجيوب هواء تزيد من سرعة لفاته عنها في الماء.

ووقف «مانولو» متمسكًا بحبل المخطاف، ورأسه مائلة للخلف

يضحك. وجلس أنديو في المنتصف وذراعاه على جانبي القارب لتثبيته في مكانه. أما جو، فقد ركع في المؤخرة يدور بالقارب ليوجهه نحوها. هذه المرة دار مبتعدًا قبل ثانية من صدمها، وأمكن «لبالوما» الحفاظ على قاربها دون أن ينقلب، فظلت تنقل ثقلها بين ركبتيها، وتتوازن بذراعيها في نفس الوقت.

ثم توقف، وقاربه يتأرجح على بضعة أقدام منها.

قال مشيرًا إلى قاربه: اصعدي للقارب.

- لماذا؟

- سوف تأخذينا إلى الجبل.

- لتجده بنفسك.

- أنا لا أسألك. أنا آمرك. اصعدي للقارب.

دون تفكير، رفعت «بالوما» يدها، ووضعت إبهامها خلف أسنانها، ثم حركته نحو «جو».

بمجرد أن فعلت ذلك أدركت مدى خطئها، إشارتها الفظة ضاعفت من أثر رفضها، فبدا الأمر يتجاوز التحدي إلى احتقار بالغ. احتقن وجه «جو»، بينما تبادل «مانولو» شخيرًا مذهولًا مع «أنديو».

ما علم أي منهما من قبل بأنثى واجهت رجلًا بتلك الإيماءة. لقد تعدى الأمر الوقاحة إلى شيء لا يمكن تصوره أو التفكير فيه.

عاد يحرك قاربه مبتعدًا، ولاحظت «بالوما» عروق رقبته ناتئة كالأحبال. ابتعد- ربما ثلاثين ياردة أو نحوها- ثم عاد مندفعًا نحوها.

صاح: للمرة الأخيرة، أتعيدينا للجبل؟

هزت رأسها نفيًا في صمت.

– نعم سوف تأخذينا إلى هناك. لقد منحتك الفرصة بالحسنى، ولكن ما دمت تفضلين العنف، فلا مانع لديّ.

سمعت الماكينة تعوي، وأدركت نواياه. أراد أن يقلب القارب وهي فيه، ثم أن يجعلها تتوسل ليأخذها معه. حينئذ ينتشلها من الماء، فقط إن قادتهم للجبل.

لكنها لن تستسلم، لن تتخلى له عن الجبل. لن تخون نفسها وتنقض وعدها لأبيها لمجرد أن يمتلئ جيبه بالنقود. إذا أراد الجبل فعليه أن يجده بنفسه، أن يغزوه بنفسه. كانت تعلم أنه سوف يجده إن عاجلًا أو آجلًا، لكن دون عونها. حتى ذلك الحين، هو يريد أن يقلب قاربها، وعليها الدفاع عنه والاحتفاظ به معتدلًا بتوازن ركبتيها وذراعيها. سرعان ما يصيبه الملل، أو يقرر أنه أثبت وجهة نظره فيتركها وينصرف.

ثم رأت المجداف.

كان قاربه أمامه مباشرة ومقدمته نحوها، احتفظ بمجدافين دائمًا، فربما صمتت الماكينة وتحتم التجديف.

والآن، أعد أحد المجدافين في مبيته، و«أنديو» ممسك به في وضع أفقي، وأغلب العمود الخشبي الصلد بارز خارج الجانب. ووجهت راحة المجداف بحافتها للأمام مباشرة، لتصيبها.

أطلق «جو» العنان للماكينة قبل أن ينقلها إلى الحركة، مثلما يفعل الطيار قبل الانطلاق، حتى تعطيه أقصى انطلاقة في اللحظة الحاسمة. لاح «جو» وقاربه معًا كوحش غريب يضرب البحر بظلفه استعدادًا للهجمة الضارية.

وقتها -وللمرة الأولى- شعرت «بالوما» بخوف حقيقي. أدركت كم كانت حساباتها خاطئة، لم تعد تتعامل مع أخيها، بل مع مخلوق عنيف دون عقل، أطفأ ودمر أخيرًا ونهائيًّا علاقته بأبيه. لقد التأمت جراحه التي خلقها رعبه تحت الماء، وسامحه «جوبيم». بل واعتبر والده تلك المرحلة خطأً شخصيًّا منه لأنه أثقل عليه، فتراجع كلية عن تدريبه، واكتفى بتقدم بطيء هادئ.

بيد أنهما ظلا يعملان كفريق.

كان الوقت أواخر الصيف، فترة الركود بين دورات هجرة الأسماك. تلك الفترة دائمًا هي الفاصل بين نهاية موسم صيد وبداية آخر. لذا كان أهل الجزر يقيمون احتفالًا في ذلك الوقت من كل عام. والاحتفال قديم ومستمر، يعود إلى ما قبل ذكريات «فيجو» بكثير، ولا ريب أنه كان قائمًا حتى من قبل عهد الإسبان. وبعض الأقنعة التي يرتديها الأطفال تمثل آلهة قديمة ضاعت أسماؤها في زوايا النسيان، عاشت في تلك البقاع من قبل الإله المسيحي.

كان محور الاحتفال مهرجانًا للصيد، يشترك فيه كل من شاء، فيصطاد بأي وسيلة يختارها، السنارة والحربة والرمح. أي وسيلة ما عدا الشباك. والفائز من يعود بأكبر وزن من الأسماك.

شارك «جوبيم» كل عام في المهرجان، وترتيبه -كل عام- الأخير. لم يهتم بالجائزة، ولا بالاستحسان العام والإعجاب، فلا رغبة له في اصطياد أكوام السمك. ما أعجبه في المهرجان هو التحدي، الحذق والبراعة في الصيد. الوسائل التي تعطي الأسماك فرصًا عادلة.

في إحدى السنوات اصطاد دون قارب وبسنارة دون نصل. فسبح إلى أقرب منطقة ضحلة، واصطاد بدبابيس ملوية. والتقط عدة أسماك، بعضها فرد السنارة المصنوعة باليد وهرب. وبآخر سنارة (دبوس مشبك كبير) أمسك بسمكة «ناجل» كبيرة، ظل يداورها بصبر لا ينفد حتى أتى بها إلى السطح. بعدها اتضح له ألا وسيلة لسحب غنيمته ذات الخمسين رطلًا إلى البر. فأزال الدبوس من فمها، وأدار السمكة المنهكة نحو المياه العميقة.

وفي سنة أخرى استخدم قاربًا دون أدوات صيد. ألقى مخطاف قاربه، وأحاط القارب بخليط شهي من أسماك الطعم الدقيقة والأمعاء والدماء. واجتذب الخليط أسرابًا من المرجان والدنيس ودستة من الناجل وبعض القروش، كلها ظلت تحوم حول القارب.

كان تحدي «جوبيم» تلك السنة أن يلتقط السمك بيديه العاريتين مثلما يفعل الدب في النهر. وفي نهاية اليوم كانت تذكاراته عدد لا يحصى من الجروح النافذة في راحتيه، بسبب الإطباق على الأسماك من زعانفها الظهرية الحادة، وتشوه في أنامله تذكارًا من سمكة ناجل أخطأت أصبعه على أنه قطعة لحم من الطعم المستخدم.

تلك السنة بالذات أشرك معه «جو». قرر الصيد تحت الماء باستخدام الحربة.

ولقد صنع «جوبيم» عددًا من الحراب، نقلًا عن صورة رآها في إحدى المجلات، والحربة قضيب حديدي مدبب الطرف، تقذف من مقلاع (نبلة) هي شريط مطاطي مثبت إلى ذراع خشبي. والصياد يتعلم دقة التصويب بالتدريب ساعات طويلة. لكن «جوبيم» كان قد أنهى صنع الحراب بعد الظهيرة قبل المهرجان، لذا لم يتيسر له و«لجو» المران أكثر من ساعة أو اثنتين.

كان اتزان النبلة غير دقيق، فعادة ما تنطلق الحربة بسرعة، قد تنحرف ارتفاعًا أو انخفاضًا أو إلى أحد الأجناب، وربما انزلقت الحربة، أو سقطت عند خروجها من الحزام المطاطي، وتهاوت دون هدف مباشر للقاع. وأحيانًا أمسك «جو» الحزام بطريقة خاطئة، فصفع معصمه بشدة عند إطلاقه، تاركًا أثرًا غاضبًا وقانيًا على ذراعه.

لم يقل «جو» شيئًا لوالده، فقد كان شديد الرغبة في الاشتراك في المهرجان وكسبه، كإنجاز من شأنه أن يرفع قدره بين أقرانه. وراوده الأمل بأن الصيد تحت الماء مستخدمًا ابتكار أبيه يمنحه ميزات تتجاوز المنافسة. والآن وقد أدرك الفشل، أصابه إحباط يائس.

قال: لن يتسنى لي الصيد بالحربة. لم يعد لنا من أمل.

وافقه «جوبيم»، دون أن يلحظ القيمة التي أضفاها ابنه على المهرجان.

– ربما، لكننا نستمتع. معظم الناس يستغلون البحر، لكننا نستمتع به.

لكن «جو» ما كان يستمتع بالبحر، بل أراد الابتعاد عنه ما استطاع وإنهاء صلته به.

عند الظهيرة لم تكن لهما أي حصيلة من الصيد، كان السمك غزيرًا حولهما، لكنهما لم يصطادا سمكة واحدة. وكلما طاشت الحربة من «جوبيم» تظاهر بتمزيق شعره، ثم ضحك وهو يغوص لاستعادتها. أما «جو» فكان فشله دافعًا لإطلاق السباب المرير. وأخيرًا ترك والده وحده تحت الماء وعاد للقارب.

كان الصيادون حولهما منهمكين في رفع الأسماك إلى قواربهم دون انقطاع. وعلى مقربة كان بعض أصدقاء «جو» مع آبائهم يسخرون من فشله، ومن امتثاله لأب يحاول الصيد بقضيب حديدي.

واندفعت الدماء لرأس «جو» ودقت في عنقه، وقبل أن يدرك ما هو فاعل، رفع حربته وألقاها نحو القارب الذي يليه. وأخاف ذلك الصيادين فابتعدوا غاضبين متوعدين.

تملك «جو» هياج شديد -لدرجة السعار- يدفعه لإثبات نجاحه على أي صورة. شعر أنه أفضل الجميع، وحتى لو كان والده غريب الأطوار، فهو يملك تسيير دفة الأمور لصالحه، فالتقط حقيبة صغيرة من تحت المقعد، ما ظن أنه قد يحتاج إليها، ولا قدر ما عساه يحدث عندما يستخدمها. لكنه أحس بالرضا أن أحضرها معه، فقد بات الموقف في حاجة إلى إجراء حازم وحاسم. كانت الحقيبة تحتوي على صواريخ احتفالات سرقها «جو» من المتجر العمومي.

الآن يستطيع أن يثبت لهم قدرته على الفوز بأكبر قدر من الأسماك، الصواريخ تنفجر تحت الماء فلا يسمعها أحد، ويطفو السمك المصعوق إلى السطح فيجمعه ويكومه في القارب فيما بعد،

يمكنه اختراق السمك بحربته ليبدو كأنما أمسكه بطريقته.

لم يخطر بباله أن خطته قد تفشل. هي خطة منحرفة.. نعم. خادعة.. نعم. بارعة.. بالتأكيد.. ولكن خطأ!

القواعد نصت على استبعاد الشباك فقط، ربما أعجب «جوبيم» بعبقرية ولده.

أشعل «جو» أحد الفتائل، وألقى الصاروخ في الماء من الجانب البعيد، بعيدًا عن شبح «جوبيم» في الماء. راقب الصاروخ يغوص في الماء وانتظر انفجاره.

تساءل في نفسه، ماذا عساه أن يحدثه انفجار صغير كهذا في الأسماك؟

ولم يدر بخلده على الإطلاق ما عساه أن يحدثه الانفجار بالإنسان، حتى سمع الدوي المكتوم، ورأى والده يجاهد ويضرب بلا وعي طريقًا إلى السطح.

ثم رأى سحب الدماء تتدفق من أذنيه لتنتشر في الماء.

وبعد أن شقت رأس «جوبيم» سطح الماء، مضت دقيقة كاملة قبل أن ترتد عيناه في مقلتيهما، وينتابه إغماء الصدمة والألم. ولكن عيناه تجمدتا على «جو»، عينان تمتلئان باتهام صاروخ له بالغباء والطيش والجبن.

صرخ «جو»: أنا آسف.. آسف.

ظل يرددها مرارًا، بيد أن أحدًا لم يسمعه.

والآن ها هي «بالوما» تنتظر معاودته الهجوم عليها.

أدركت أن نفس الانحراف قد عاد يتعثر في فكره، وما بقيت له إرادة تكبحه. منذ تلك اللحظة أصبحت في مواجهة حيوان دون عقل يحكم تصرفاته، ويؤجج غضبه تشجيع أهوج من رفيقيه.

ما إن بلغت الماكينة أقصى طاقتها، حتى دفع «جو» ناقل الحركة من السكون إلى الأمام. لحظة أو اثنتين تغيرت فيهما زاوية دفع الرفاص، فبات أشد تمكنًا من الماء. وتحرك القارب لأسفل أولًا لترتفع المقدمة، ثم تسقط ويستوي القارب على سطح الماء.

لقد عزم على مداهمة قاربها، وتكثف الشر متسلطًا عليه حتى أصبح مستعدًّا لفعل أي شيء، أن يؤذيها، أو أن يحدث بها عاهة، وربما حتى أن يقتلها.

ارتكزت مقاومتها على الاحتفاظ بتوازنها، فإذا حرمت من استخدام ركبتيها ويديها، كأن تجبر على الانبطاح في قاع القارب -كغرارة قمح- لا هي متحركة ولا هي راسخة، فإن الموجة تصدم القارب لترفع جانبه فوق الماء، وبأثر وزنها تتدحرج إلى الجانب الآخر -المنخفض- فيزداد انخفاضًا ويختل توازن القارب. ويزداد الجانب المرتفع علوًّا حتى يتعدى نقطة اللاعودة فينقلب. لم ترهبها فكرة الانقلاب بقدر ما خشيت من إجبارها على الرقود في القاع. المجداف البارز من شأنه أن يمسح قاربها من المقدم للمؤخر بأقصى سرعة. لو بقيت على ركبتيها وتوازنت بذراعيها، فإن المجداف يصيبها في بطنها. وإن انحنت فقد يصيبها في رأسها أو ظهرها. فالقارب ضحل

ولا مهرب لها من المجداف إلا بالرقود مسطحة تمامًا على القاع.

إن لم تخفض رأسها بالقدر الكافي، أو رفعت رأسها كرد فعل لمقاومة ميل القارب، يصيبها المجداف في رقبتها أو وجهها.

وفي اللحظة الأخيرة، وعيناها مركزتان على المجداف المشرع كالسيف، فكرت أن تلقي بنفسها في الماء. استبعدت الفكرة لأنها تحرم «جو» من أن يشفي غليله. لا بد أن يفعل شيئًا بها.

لذا ألقت بنفسها على قاع القارب بوجهها لأسفل، وغطت رأسها براحتي كفيها، وثبتت كوعيها إلى جانبي القارب.

لم تر المجداف ولم تسمعه، لكنها أحست بموجة الضغط التي أحدثها المجداف أمامه وهو يكتسح القارب، ونصله يحز على الجانبين فيفر ويعود ليحز.

ثم ارتطمت لجة الماء بقاربها في أعقاب مرور قاربه، فرفعتها إلى أعلى. لم تعد «بالوما» راقدة على وجهها، بل تقلبت إلى جنبها ثم على ظهرها، ثم لم يعد أمام عينيها سوى اللون الرمادي وأصوات صفعات جوفاء. كانت تحت القارب المنقلب.

ظلت تتنفس الهواء الحبيس تحته، وتحاول أن تتمالك نفسها، وأن تتنبأ بخطوته التالية.

ودلها صوت الماكينة أن القارب يبتعد، وأن «جو» خفض السرعة. وسمعت أصواتًا متنافرة تتكلم بهدوء، ثم عاد صوت الماكينة يدوي عاليًا. كان القارب عائدًا، ببطء هذه المرة.

ثم انخفض ضجيج الآلة إلى دمدمة خافتة، سرعة هادئة، وتتابعت التموجات تصفع بدن قاربها وهو يتأرجح مقلوبًا.

تسلل صوت «أنديو» إلى الفراغ المحيط برأسها فوق الماء: أين هي؟

بدا صوته قلقًا.

قال «مانولو»: إنك أغرقتها.

أجاب «جو»: لم تغرق. سأريكم أين هي.

وفجأة دوى في أذنيها قصف معدني حاد تردد صداه بين جنبات كهفها الخشبي. كان «جو» يدق شيئًا لا تعرف ماهيته على قاع القارب.

صاح: الآن، هل أنتِ مستعدة لأخذنا إلى الجبل؟

لم تجب «بالوما». جزئيًّا لم تعرف بماذا تجيب، ولا ما قد يدفعه رفض آخر إلى فعله.

ومن وجهة أخرى تمنت لو أرعبه صمتها -حتى ولو لفترة- ظنًّا بأنها غرقت.

وأتاها صوت «مانولو»: كنت أعلم أن هذا سيحدث. لقد ماتت.

قال جو: لا.

لكن صوته حمل رنة شك مع لمحة خوف. وعاد الشيء المعدني يقرع القارب، أهدأ هذه المرة.

نادى: «بالوما».

قال «جو»: دع الأمر لي.

ثم هتف: «بالوما». أعرف أنك تسمعينني، في يدي حربة، إذا لم تأخذينا إلى الجبل، فسوف أثقب بها قاع القارب. ربما لا يغرق، لكنه أيضًا لن يتحرك بالمجداف. لسوف تظلين طافية إلى يوم الدين. عودي بنا للجبل مقابل توصيلك لليابسة. الاختيار متروك لك.

انغرس الرمح في القارب، وسمعت «بالوما» النصل الحديدي ينخر في الألياف الخشبية. ربما استغرق حفر ثقب بعض الوقت، لكن بوسعه عمله.

لو كان الثقب واسعًا لأصبح الأمر تمامًا كما قال، يظل القارب طافيًا، يحركه التيار معه إلى حيث يتجه.

لم يكن أمامها إلا الاستسلام، الحل الوحيد المعقول. ولكن لماذا تستخدم التعقل في موقف وصل إلى مرحلة دون عقل على الإطلاق؟ لم يستخدم «جو» تعقلًا فيما فعل، فلماذا يتحتم عليها أن تستخدمه؟

ومن ثم ظلت قابعة تحت قاربها المقلوب، تستمع لأنفاسه اللاهثة وهو ماض في الحفر.

ثم، في البداية، رأت خيطًا من الضوء يتسرب بين أنسجة الخشب، تحول إلى عمود من الضوء في محيط العملة النقدية. وتساقطت أمامها شظايا خشبية في الماء، ثم استقرت رأس الرمح في الفتحة، تدور فيها عدة مرات، ثم انسحبت.

- اكتمل الثقب.

وسقط ظل «جو» على الفتحة ثم اختفى.

- وداعًا يا «بالوما». ربما تتمسكين بكبريائك، لكنك مجرد حمقاء كالخنزير.

وطرق سمعها صوت «أنديو»: لا يجب أن نتركها. علينا أن نتيقن.

قال جو: مم نتيقن؟

شعرت «بالوما» بالبرودة تسري في جسدها، ليس بسبب الماء، بل من المنطق البارد الذي يخرج من فم الغريب الذي هو أخاها -يقول: نتيقن من أنها ما زالت تحت القارب؟ نتأكد من أنها سالمة؟ لماذا؟ لنفرض أنها ليست كذلك، ماذا أمامك تفعله؟ لا شيء. عندما نعود للبر، نقول إنه ليست لدينا فكرة عن مكانها، وهي الحقيقة. نحن فعلًا لا نعرف. وأنت، لا تتكلم عما حدث مع أي إنسان، وإلا أتيت في أثرك. ولتعلم أني أعني تمامًا ما أقول.

أدركت «بالوما» وهي تنصت له، أنه قد نجح في تحقيق هدف واحد على الأقل. لقد استعاد مركزه بين رفيقيه. لم يكن بوسعه أن يختلف عنها، أن يتميز بأن يصبح أمهر منها. لكنه تفرد بتهوره وغموضه وخطورته. لئن لم يستطع كسب احترامها، فلا أقل من غرس الرهبة منه في نفسيهما.

استطرد «جو»: صدقني، إنها تحت القارب وإنها بخير. ستعود

إلى البر، لكنها لن تتكلم عما حدث؛ لأنها تشعر بحرج كبير. فضلًا عن ذلك، لا يملك لها أحد شيئًا، وربما ما صدقها أحد أصلًا. فإذا ما ثرثرت وشكت لأمنا، سأضيق عليها الخناق. هي مثلك تعلم أني أعني ما أقول، ومن صالحها أن تتعامل معي بشكل أنسب.

سمعت «بالوما» هدير الماكينة تنبعث للحياة، وأحست من الماء بأن القارب تحرك للأمام، وأخذ يبتعد.

* * *

- ٨ -

لم تعد «بالوما» تشعر بالذبذبة الخفيفة في قدميها، ذلك الإحساس الذي ينتج عن موجة صدمات من رفاص دائر. حدست أن القارب ابتعد لأكثر من مائة ياردة.

تساءلت إن كانت على حق أم على خطأ؟ ذكية هي أم غبية؟ هل تدفعها المبادئ التي آمنت بها، أم كما قال «جو» إنها عنيدة كالخنزير؟ لقد أخرت «جو» -على أحسن الفروض- لعدة أيام. لكنه في النهاية سيجد الجبل، فيبدأ الاستنزاف، وربما دمره تمامًا. ذلك التأخير كلفها... كلفها ماذا؟

لم يكن بوسعها ترتيب أفكارها حينئذ، ها هي في عرض البحر، والنهار يوشك أن ينتهي، وما من وسيلة تعيدها للبر، ما دامت لم تتوصل إلى سد الثغرة في قاربها المقلوب.

مهما بدا الموقف يائسًا، عليها أن تحاول، ذلك هو السبيل الوحيد المتاح لها.

كان حريًّا «بجوبيم» أن يوافقها على ما فعلت، ولربما أضاف أنه كان من أجل الحياة. بيد أنه -في مكانها- لضرب بعنف، وإلى أي مدى رآه لازمًا.

مرة أو مرتين مضى إلى أبعد الحدود، وهي تذكر قصته عن واقعة وصفها بأخطر وأهم ما واجهه طوال حياته، قال إن هناك أوقاتًا يتحتم فيها على المرء اتخاذ قرار متطرف، إذا تعلق الأمر بالمبادئ. وطالبها بالقسم على بقاء روايته في طي الكتمان، فلو قدر لها أن تنتشر، ربما تسببت في حرب بين «سانتا ماريا» وبين جزر أخرى في بحر «كورتيز».

ذات مرة في أواخر الصيف، اكتشف صيادو «سانتا ماريا» أن إحدى مناطق صيدهم الرئيسة قد باتت قاحلة، جبل عميق بعيد عن الشاطئ. مع كل يوم ازدادت صعوبة الحصول على أسماك بالسنارة.

أول ما تبادر للأذهان أن ثمة من يستخدم الشباك من بين الرفاق. والقلائل التي حصلوا عليها كانت تالفة.

بيد أن الشباك وسيلة غير عملية في مثل تلك المياه العميقة. كما لم يكن لدى أحدهم زورق مناسب، إما مزود برافعات كهربائية قوية، أو سطحه متسع به دعامات تسمح بالتعامل مع الشباك.

وانتهوا إلى أن وباء مائيًّا قتل الأسماك. فأحيانًا ما كانت أعماق البحر تدفع بسحابات من العضويات الدقيقة المسمومة التي تلوث مئات الآلاف من الأسماك، وتسبب تسميم لحمها بالنسبة للبشر أو فناء الأسماك نفسها. لكن أحدهم أشار بأنه لا بد من طفو الأسماك الميتة إلى السطح، وبالتالي سهولة التقاطها. ولكونها مسمومة، فإنها تسبب المرض أو الموت، إما هنا أو في «لاباز». وهو ما لم يحدث، ولم يسمع به أحد.

إذن فما حدث كان مختلفًا، جديدًا وغريبًا وخطيرًا.

أصر بعضهم على أنها إرادة الله تعاقب الصيادون على استهتارهم وعدم التزامهم بصيد ما ينفعهم.

لكن «جوبيم» رأى في إرجاع الأمر إلى الله، تفسيرًا مريحًا لم يجدوا له تفسيرًا.

ما سمعه وما رآه جعله يشتم رائحة الإنسان فيما حدث.

لم يكن من بين الصيادين من رأى الجبل -من غاص إليه- ولا من يعرف شيئًا عن عالم ما تحت الماء، فافترضوا أن السمك كامن تحت الماء ينتظر الفرصة لالتقاط طعم السنارة.

«جوبيم» رأى جبالًا تحت الماء، وإن لم ير ذلك الجبل ذاته، ومن ثم عرف ما يجب البحث عنه.

بعد ظهيرة يوم هادئ جدف إلى داخل البحر وألقى مخطافه.

تساءل في قرارته كيف فات عليه أن يغوص إلى ذلك الجبل من قبل؟ وأجابه حبل المخطاف على تساؤله. ظل الحبل ينساب إلى الماء دون توقف حتى عشرين قامة -آخر تقسيمات الحبل- وتوقف أخيرًا عند اثنين وعشرين قامة (مائة واثنين وثلاثين قدمًا).

لم يكن في مقدوره الخوض إلى ذلك العمق، ولا يعرف أحدًا يمكنه ذلك. والواقع أنه على قدر علمه، ما من إنسان طبيعي يقدر على حبس أنفاسه حتى ذلك العمق، فالغوص إلى هذا المدى، يماثل الهبوط من برج من أربعة وعشرين رجلًا، الواحد فوق كتف الآخر على التوالي، أو كالسقوط من أعلى مبنى في «لاباز». لن يكون بوسعه

رؤية القاع قبل الوصول إلى منتصف المسافة، وإذا تعداها تعذر عليه رؤية سطح الماء.

كان «جوبيم» يعرف قدرته تمامًا، قطعًا لا تصل إلى غوص المسافة كلها، بل حتى يرى القاع. لذا التقط أنفاسًا قدر طاقته، وهبط -يدًا تحت الأخرى- حبل المخطاف نحو الضباب الأزرق الداكن خلال ظلمة لا فوق لها ولا تحت، إلى أن لمح قمة الجبل.

ومضى إلى أبعد، حتى شرع جسده يعطيه علامات التوقف، لكنه رأى ما فيه الكفاية قبلها، ولم يعد في حاجة إلى المزيد. عند تسعين قدمًا كان رأى معظم القمة، وقرأ فيها ما حدث.

كانت الشعاب المرجانية والنباتات المروحية راقدة على أجنابها، مقتلعة من جذورها كأشجار في إعصار. شعاب كثيرة متفرعة كقرون الوعول، محطمة إلى أجزاء صغيرة بين الصخور، والنباتات الكبيرة مغطاة بالرمال. قاعدة مرجانية ضخمة في حجم حوض الاستحمام (البانيو) مكسورة إلى جزئين ساقطين على الرمال كشقي بطيخة.

كانت هناك أسماك، بعض الأسماك الصغيرة ظلت تندفع بجنون من الصخور وإليها. سمكة بياض كبيرة الحجم، بدت سالمة إلى أن انقلبت على ظهرها، ومضت تدور دورات لا معنى لها. ثعبان بحري ميت وملتحم على مدخل فتحة كأنما اعتصر هناك.

لقد ضرب الجبل بفعل سلسلة من العواصف الرهيبة السريعة، قضى عنفها على معظم الأحياء وشوهت ما بقي حيًّا منها.

هل شنت الطبيعة تلك العواصف؟ كان ذلك من شأنه أن يصيب «جوبيم» بحزن بالغ.

لكن ما حدث وضح فيه التدبير البشري، وألهب ذلك غضبه.

الصيادون من جزيرة أخرى -سانتو اسبريتو- على مسافة بضع أميال.

لا ريب أنهم وفدوا ليلًا، وألقوا بأصابع الديناميت ذو الفتيل الطويل المضاد للماء. الفتيل القصير يحترق سريعًا، وربما ينفجر قريب منهم، فيحطم القارب ويغرقه.

والفتيل الطويل كارثة للجبل، يظل يشتعل طيلة المسافة للقاع، ثم ينفجر الديناميت، ليس في الماء المفتوح، لتقتل قوته الأسماك في منطقة الانفجار وحدها، ولكن بين الصخور والرمال والشعاب، فيتركز الضغط ويتشعب وينتشر، ليقتل الحيوانات حتى في جحورها، ويحطم صخور الجبل نفسه.

الديناميت سلاح رهيب تحت الماء، أعنف منه على السطح، في الهواء، حيث لا يحتوي شيء الانفجار فيركزه، كالصخر أو الأسمنت، ولا يغطيه شيء يتناثر كشظايا الزجاج أو الحصى، لا يحدث دمار مؤثر إلا في حدود عشر ياردات. وقيل إن انفجار قضيب ديناميت في الماء يمكن إحساسه لأبعد من نصف ميل، ويسبب دمارًا لآلاف الأقدام المربعة.

بعد الانفجار ينشر الصيادون الشباك على السطح، ويغترفون الأسماك الميتة مع طفوها.

وسيلة صيد اقتصادية وسريعة وحاسمة، لا مجازفة بتلف الخيوط والشباك، ولا حاجة للطُعم. كل ما على الجبل يُقتل على الفور. لا حاجة لإضاعة الوقت انتظارًا لأن تلتقط الأسماك الطُعم.

وأفضل ما فيها أن السمك يصعد وحده للسطح دون جهد، حتى ولا في شده.

وسيلة فعالة، لكنها غير قانونية وممنوعة دوليًّا. الحق أنها وسيلة لا أخلاقية ودنسة، وتحمل هزيمة الذات، حيث تقضي على مراعي الصيد فتقرب يوم المجاعة للناس، ولا يبقى للصيادين إلا التسول في شوارع «نيو مكسيكو». أسوأ الكوابيس على الإطلاق، حتى أدنى الصيادين خلقًا يراها تستحق ما دون الاحتقار والاشمئزاز.

لكن «جوبيم» عرف الكفاية عن فئات بذاتها من البشر، عن كيف يمتزج الغباء بالقسوة والجشع، فيدفع الإنسان إلى ارتكاب أفعال مدمرة للنفس وللآخرين. لكنه البحث عن الربح الوفير بأقل الجهد ودون مجازفة. وسيلة أنانية منحطة للحصول على مال سريع، دون قلق من انعدام الرزق بانتهاء الأسماك. دع غيري يبكي. أنال ما أشاء، وأترك القلق للآخرين.

نفس العقلية جعلت شركة الأسمدة بالمدينة تضخ فضلاتها من الكيماويات في الميناء، فتخلصت من نفايتها بوسيلة سهلة واقتصادية. ورأت الحكومة خطأ تصرفها -ضخ الكيماويات في ميناء يسبح الناس فيه ويصطادون- فأخطرت الشركة بالتوقف.

تظاهر العمال، وحاولوا إحراق المبنى الحكومي، واحتجوا

بأن الشركة لا تملك وسيلة أخرى للتخلص من فضلاتها، وأنها لو اضطرت للاستجابة فسيفقد العمال وظائفهم، ويخسر الجميع علاواتهم التي حل موعدها.

تراجعت الحكومة، وعادت الشركة تصرف الكيماويات في الميناء.

بعدها بسنتين مات الميناء؛ كونت المواد الكيميائية طبقة سامة غطت القاع وقتلت النباتات، وقضت على الأكسجين في الماء، فأفنت كل شيء. وعاد رواد الفنادق من السباحة في الميناء بتقرحات جلدية قبيحة. أمرت الحكومة بإغلاق الفنادق، وعادت لإيقاف التخلص من النفاية في الماء. ولم يكن لدى الشركة بديل، فأوقفت الضخ في الميناء، واضطرت إلى إغلاق أبوابها.

بذا لم يعد هناك فنادق للإقامة ومطاعم لتقديم الوجبات، ولا حتى مياه صالحة للسباحة. وتوقف السائحون ورواد العطلات عن الحضور، فأقفلت حوانيت الهدايا والأزياء أبوابها، وطردت عمالها.

كان عمال شركة الأسمدة قد تسلموا علاواتهم واستمتعوا بالنقود لعدة أشهر، ثم فقدوا كل شيء ونالوا جزاءهم. وأخيرًا تجاوز الأمر «البعض» إلى «الكل»؛ لأن المدينة خسرت مقدمات وجودها.

وشيئًا فشيئًا -مع انعدام العلاج- توقفت عن الحياة، وباتت المدينة مجرد عنقود من المباني الخالية يعلوها التراب حول ميناء ميت، وشبح مصنع السماد قائم كالرمز يذكر الجميع بأن الربح السريع هش قابل للانهيار.

بيد أن تلك الدروس عسيرة في تعلمها، وسهلة النسيان.

وفوق جبل الماء، وجد «جوبيم» الدليل على أن بعض الناس لم يتعلموا الدرس بعد. في الجزيرة كل إنسان تقريبًا له ابن عم أو أحد المعارف ممن اختاروا الربح السهل السريع في أحد الأوقات. ربما باع أحدهم القارب الذي ورثه عن أبيه، وأخذ ثمنه إلى المدينة بنية إقامة مشروع يعمل فيه، دون أن يدرك أن لديه فعلًا عمله، عمل تمرس عليه وأصبح في براعة باقي صيادي العالم. ومع وصوله للمدينة يجدها مكتظة برجال الأعمال المستعدين لتجريده من ماله (الذي لا يكفي على أي حال لبداية عمل). سرعان ما يجد نفسه يتسول عملًا في تنظيف دورات المياه في استراحات المحطات. وبدلًا من رائحة السمك وهواء البحر، تحرق كلوريد الأمونيا جدران أنفه.

غير أن أولئك الأشخاص -أبناء عمومة أو أصدقاء- أضروا بأنفسهم وبعائلاتهم فقط. أما رجال «سانتو اسبريتو» فقد دمروا فرصة كل فرد من جزيرتهم ومن سانتا ماريا وكل الجزر الأخرى. وما كانوا ليتوقفوا حتى يقضوا على كل جبل ماء وكل منطقة صيد عرفوها أو سمعوا عنها أو ربما وجدوها.

وعرف «جوبيم» أيضًا تبريرهم لفعلتهم أمام الناس، تبريرًا ربما أثار حتى أمهاتهم لتبصقن عليهم، لقد تداولوا تصرفاتهم فيما بينهم، وبالطبع صدقوا استجابات بعضهم إلى بعض. «إن لم نفعل ذلك، فسيفعله آخر، الناس ليسوا أخيارًا، والبقاء لمن يرعى مصالحه. وقبل كل شيء البقاء هو الحياة».

كان على «جوبيم» أن يمنعهم، ولا بد أن يفعل ذلك وحده. لئن عبأ صيادو «سانتا ماريا»، وبرح الجميع في قواربهم ينتظرون المغيرين من «سانتو اسبريتو»، لرآهم المغيرون وهربوا. وبالضرورة تبدأ مطاردة تقوم معارك يصاب خلالها الكثيرون. ولو تمكن المغيرون من الفرار إلى «سانتو اسبريتو» لأنكروا كل شيء ولاتهموا أهالي «سانتا ماريا» باختلاق القصص لتغطية عدوانهم.

فتبدأ معارك طويلة ومريرة بين الجزيرتين يعاني الجميع منها، ربما ما عدا من استحقوا فعلًا العقاب. وفي خلال ذلك، يعود المغيرون إلى الخروج ليلًا ليدمروا الحياة في مواقع أخرى وجبال جديدة.

لذلك قام «جوبيم» برحلة خاصة إلى «لاباز»؛ لمقابلة أحد رفاق صباه. كان أبو صديقه يشتري أسماك والد «جوبيم»، وصديقه يعمل في حوض الإنقاذ حيث السفن والقوارب والماكينات والبضائع، وكل الهياكل المعدنية الضخمة التي تُنتشل من الماء أو تُنقذ قبل غرقها، كلها تنتظر الترميم أو الإصلاح أو التقطيع إلى معادن خردة. تناول «جوبيم» وصديقه البيرة وظلا يشربان، وصديقه يردد دون انقطاع -وإن اختلفت الألفاظ- كم يحسد «جوبيم» على أنه رئيس نفسه ويعمل كما يحلو له، ويعيش على سطح البحر، وليس في ساحة تملؤها الضجة والقذارة بما يدفع للجنون. أما «جوبيم» فطفق يسأل عن أحدث وسائل الإنقاذ وأدواتها، خاصة المعدات الجديدة لقطع المعادن تحت الماء كالسفن الغارقة والهياكل الحديدية الضخمة.

وأخيرًا قال إن طوافة بحرية غرقت بالقرب من «سانتا ماريا»،

وأصبحت مصدرًا لإزعاج الصيادين وتمزيق شباكهم وخيوط الصيد. والطوافة أكبر من أن تنقل من مكانها. لذا فهو يظن أنه لو أمكن قطعها إلى نصفين، ربما أمكن قطر كل نصف على حدة إلى المياه العميقة، بعيدًا عن مسارات الصيادين. وتساءل إن كان يلزمه عمال لحام تحت الماء لتنفيذ ذلك، وهل لشركة صديقه أن تؤدي تلك المهام. بالطبع لن يمكن دفع الكثير، ولكن...

قال صديقه: حالة كهذه لا تقطع إلى أجزاء.

كان «جوبيم» يعلم ذلك طيلة الوقت، لكنه استدرج صديقه ليعطيه مزيدًا من المعلومات دون ذكر السبب الحقيقي. فربما حدث خطأ في خطة «جوبيم»، وأمكن تتبع ما حدث حتى الوصول إلى صديقه.

– عليك نسفها. المادة الجديدة التي نستخدمها تقطع أحد من السكين، وأسرع مائة مرة من المشعل الغازي. كل ما يلزم هو خلطها وتعبئتها وإعدادها ثم إشعالها. و«بووووم»... تمت العملية.

– ما هي هذه المادة؟

– يسمونها ب. ل. س. إنها سائل– سائلين. كل منهما في وعاء منفصل لحين استخدامها. وبامتزاجهما يبدأ توليد الحرارة حتى ترتفع عاليًا، فينفجر من تلقاء نفسه.

– ما القدر اللازم لنسف طوافة؟

– يعتمد على حجمها وعلى كم قطعة تريد تحطيمها إليها.

وصف «جوبيم» طوافته الخيالية. كانت قديمة ومليئة بالفئران،

لكنها ليست كبيرة، ولم تكن تحمل بضاعة ذات قيمة عند غرقها. أراد أن يؤكد أنه لا شيء فيها يجتذب شركة إنقاذ.

وأضاف: كم تظن أن شركتك تتقاضى لنسفها؟

هز صديقه رأسه نفيًا: نحن لا نقترب من عملية بهذا الصغر.

– هذا ما ظننته. والـ ب. ل. س الذي ذكرته، هل من الصعب استخدامه؟

– سهل. أي شخص يمكنه استخدامه طالما التزم الحذر والانتباه.

ابتسم «جوبيم»: حتى أنا؟

– شخص بارع اليدين مثلك – لا مشكلة.

ثم لاحظ صديقه الاتجاه الذي انحرف «جوبيم» إليه بالحديث: لكن هناك مشكلة.

قال «جوبيم»: أين يمكنني الحصول على بعض تلك المادة.

– تلك هي المشكلة.. لا يمكنك. لا بد من ترخيص. إنها ما يطلقون عليها «غير مأمونة»، وهم لا يريدون أن يصبح تداولها عامًّا، بأن تترك في متناول الجميع.

– ما الكمية التي أحتاجها؟

– مما تقول.. حوالي جالونين، جالون من كل. لكن يستوي الأمر إن أردت طنًّا، فلن تستطيع شراءه.

– شركتك. أليس لديكم فائض؟

هز صديقه رأسه: حتى إن وجد. لن تبيعه إلا بعد حصولك على ترخيص.

لم يدر «جوبيم» ماذا يسأل بعد ذلك. وحتى لا ينقطع الحديث قال:

- تلك الطوافة تكلف الجميع أموالًا طائلة، وتكاد تحرم الأطفال طعامهم.

- وددت لو استطعت. لو ضبطنا لخسرنا أعمالنا.

لم يرد «جوبيم» الضغط على صديقه ووضعه في مأزق.

قال: طبعًا. ولكن ألا يوجد أي قدر يمكنك.. مجرد.. أن تستغنى عنه؟

عاد يبتسم ليبدو كمن يمزح.

ضحك صديقه: هذا المركب لا يُستغنى عنه. ما من شيء اسمه زيادة. بعد كل عملية نتخلص من الفائض بإلقائه بعيدًا.

- أين تلقوه؟

- في البحر.

- أين في البحر؟

لوح صديقه بيده نحو البحر: هنالك، أمام رأس «سان خوان».

خفض «جوبيم» صوته: على أي بعد؟

- ليس بعيدًا. ربما مائة ياردة. عند نهاية المسطح الصخري.

- كم يبلغ عمق المسطح؟

- خمسون، ستون قدمًا. كثير من الأوعية تقع من حافة المسطح إلى الأعماق.

- لا بد أن بعضها يبقى عليه.

- لا علم لي.

- هل تلقون به ممتزجًا؟

- لا، فقد ينفجر. نلقي بكلا المكونين على حدة.

- في صفائح؟

- عبوات من «البلاستيك» كالقوارير.

- حتى لا تصدأ؟

أومأ صديقه برأسه.

تطلع «جوبيم» إلى الشمس بقدر ارتفاعها في السماء: يجب أن أعود في هذا التيار.

ثم مد يده لصديقه: الحديث معك مفيد.

قال صديقه وهما يتصافحان: شيء آخر لمعلوميتك الخاصة. القوارير البلاستيك لونان.

يلزم واحدة حمراء وأخرى بيضاء لتكوين...

- قارورة وردية.

توقف «جوبيم» عند المتجر الذي يبيع الأدوات المعدنية

والكهربائية، ثم عاد إلى قاربه. راجع خزاني الوقود والماء وتأكد من امتلائهما، فرحلة العودة تستغرق ما بين ست إلى ثماني ساعات حسب اتجاه الريح والتيار وقوة كلٍّ. كل من التقى به عرف أنه عائد فورًا إلى «سانتا ماريا»، بل وحمله بعضهم رسائل إلى أبناء العمومة والأصدقاء.

عند فتحة الميناء اتجه يمينًا -طريق العودة- ولوح بيده نحوهم مرة أخرى، فلوح له الرجال على الرصيف. بقدر علمهم كان في طريقه إلى جزيرته، وكان ذلك صحيحًا. رغم ذلك توقف لعدة دقائق، غاص خلالها عدة مرات أمام رأس «سان خوان».

وعلى مدى اليومين التاليين ظل يقوم بأعمال لا طائل وراءها. مضى يستخرج نفايات من هنا وهناك، ويجمع أشياء من بين هذا وذاك. وتحمل كل مضايقات جيرانه وسخريتهم، عن أسراب المرجان والبياض التي تتكاثر لطول بقائه بالبر، وتحوله إلى ما لا جدوى منه.

تساءل الناس عما يفعل، ودارت استفساراتهم حول أمر واحد: ماذا أصابه؟

لكنهم أبدًا لم يواجهوه بسؤال مباشر. كانوا يعرفونه معرفة وثيقة، فأدركوا ألَّا سبيل إلى فهم شيء عنه أكثر مما أرادهم أن يفهموه. وعادة عندما كان ينهمك في مشروع غريب، كان يسرب المعلومات شيئًا فشيئًا، ويترك النتائج مفاجأة يدهش لها الجميع إذا ما قدر لها النجاح، أو يضحكون لها إذا ما فشلت. ومع الفشل كان هو أكثر الجميع ضحكًا.

بيد أنه مع الأطفال -طفليه أساسًا- ركز على اعتبار الفشل عاملًا لا يقل أهمية عن النجاح. عامل ضروري حتى يدرك الإنسان أنه لا يستحق الخوف منه، والخوف تستتبعه عدم القدرة على المضي في الصعاب. التجربة أهم من النجاح والفشل معًا، الدرس الذي رفض «جو» أن يتعلمه، فخاف المجازفة ورهاب المجهول.

لم يسرب «جوبيم» أي معلومات هذه المرة، بيد أنه اعترف بالعمل في فكرة تافهة مقضي عليها، سيطرت طويلًا على فكره حتى بات عليه التوصل إلى نتائجها مهما كانت.

وذات ليلة أخبر «ميراندا» بأنه ذاهب للنزهة، واختفى في طيات الشفق. لم يره أحد ثانية تلك الليلة. لم يخرج بقاربه -ذلك مؤكد- كثير من الرجال كانوا ينظفون الأسماك عند الرصيف، ويرتقون الشباك. ولم يداعب أطفال الجيرة، بل تذكر الناس أنها كانت ليلته في رعاية الفتاة الصغيرة التي لدغها العقرب. ولم يعد إلى منزله إلا قبل الفجر بقليل.

وبقدر علم الجميع لم يكن في أي مكان. ولقد اعترف «لبالوما» أنه استمتع بالغموض الذي أثاره، فأضاف بعض التوابل للحياة اليومية بالجزيرة، وكسر روتين الكآبة.

الواقع أنه توجه إلى الجانب الآخر من الجزيرة، جانب صخري غير مأهول تكسحه الرياح وتتخلله نقاط من النباتات الصلدة. لم يكن به مكان آمن من الريح لحفظ قارب أو بناء منزل، أو حتى لقضاء ليلة مريحة. انزلق وانحدر على الدرب الشديد الانحدار. وعند ثلاثة أرباع

الطريق إلى أسفل توقف عند فجوة بين الصخور وانتزع الأغصان التي كان قد حشاها فيها. واستخرج من الداخل كيس نفاية كبير وطوف -لوح خشبي طوله ستة أقدام وعرضه ثلاثة، ثبت فيه مسامير لولبية وأحبال وأربع إطارات مطاطية قديمة. أسقط الطوف إلى الماء عبر الخمسة عشر قدمًا الأخيرة، ورفع الكيس على كتفه، ثم أسرع يهبط خلف الطوف فتسلقه.

ارتكز على ركبتيه فوق منتصف الطوف، والكيس بين ساقيه، ثم شرع يجدف بيديه مبتعدًا عن الجزيرة.

لقد اختار الليلة بعناية، ليلة هادئة ساكنة دون قمر، وكان التجديف سهلًا يسيرًا. لم تفضح التماوجات الهادئة طوفه الصغير في ضوء النجوم. وما كان لمراقب مدقق أن يشهد سوى قطعة من الأفق تتحرك بطيئة هادئة. التوقيت واتجاه التيار كانا تمامًا كما أرادهما.

وصل إلى هدفه بعد العاشرة بقليل. بدا نقطة في عرض البحر، لا تختلف عن أي نقطة أخرى من سطح الماء. غير أنها -لعينيه- كانت موضع التقاء خطوط وهمية مستقيمة من ثلاثة أغراض برية، أحسها بأكثر مما رآها شاحبة على ضوء النجوم.

أخرج حبلًا من الحقيبة، وربط آخره على قضيب حديدي، ثم ألقى بقطعة الحديد في الماء وانتظر حتى استقرت بين صخور قمة الجبل. راجع المسافة التي أزاحه بها التيار، وقدر أن بقية الحبل كافية. يمكنه البقاء مشدودًا ضد التيار، أو الانسياق له -إن شاء- حتى مائتي قدم.

ثم أخرج القارورتين من الكيس، واحدة حمراء والأخرى بيضاء.

أفرغ نصف محتويات كل منهما في الماء -احتياط سخيف، لكنه مطمئن- ثم سكب بقية ما في القارورة البيضاء في الحمراء. وعاد يثبت الغطاء اللولبي على الحمراء، وأعاد البيضاء إلى الكيس.

كان قد أعد الغطاء الأحمر بالبر، حفر فيه ثقبًا مرر منه فتيل الإشعال، وأحكم حوله بالشمع. أصبح الفتيل كحبل من البلاستيك -وهو ما كانه- ممتلئ بالبارود الشديد الاحتراق وسريع الاشتعال. وأوصل «جوبيم» بالطرف الآخر من الفتيل مولدًا يدويًّا، بضغطه تدور التروس فتولد تيارًا.

أدلى بالقارورة الحمراء في الماء، لو كانت فارغة ومفتوحة لامتلأت بماء البحر وغرقت. لكنها ملئت بسائل يكاد يتساوى مع الماء كثافة، وغطاؤها محكم على قليل من الهواء فوق المزيج. لذا ظلت طافية ورقبتها فوق الماء، والفتيل الأبيض يتأرجح واضحًا على صفحة الماء الداكن.

لم يرد «جوبيم» للقارورة أن تطفو على السطح، بل أراد لها من الطفو السلبي ما يجعلها أقرب للغوص، على أن تبقى قريبة من سطح الماء تحته. ومع توتر المد، يحاول شد القارورة بعيدًا وإلى أسفل، لكن الفتيل يبقيها طافية وقريبة. تحتم على «جوبيم» تعديل كثافتها لتستقر حيث أرادها -تحت السطح بأربعة أقدام- لذا أخذ من الكيس حفنة من الحصى أسقطها في القارورة. أعاد الغطاء ثم اختبرها في الماء. ثم عاد يضع مزيدًا من الحصى، واختبرها ثانية. هذه المرة ثبتت حيث أرادها.

ثم رقد على بطنه فوق الطوف وانتظر.

لم يعد أمامه سوى الانتظار، والقلق. قلق أولًا من أنه ربما تخلص بأكثر مما ينبغي، بما ألقاه من سائل ب. ل. س. في الماء، وأن المتبقي منه قدر لا يفي بالغرض.

لكن صديقه حدد عبوة جالونين لنسف السفينة الغارقة إلى أجزاء. والمؤكد أن جالونًا واحدًا فيه الكفاية لمهمته، وعلى كل هو لا يسعى إلى تكرار الحرب العالمية الثانية.

ثم قلق من أن المزيج ربما زاد عما ينبغي، فقد يسبب أضرارًا بالغة. يمكنه أن...

في تلك اللحظة حمل النسيم إليه أصواتًا تقترب، رجال لم يجدوا مبررًا للحذر وخفض أصواتهم. فما كان ثمة ما يخشونه على تلك المسافة داخل البحر. احتياط واحد اتخذوه، التجديف بدلًا من إدارة الماكينة. الهواء الساكن يحمل صوت الماكينة لعدة أميال فوق الماء الهادئ. ظل راقدًا بهدوء على طوفه، خافضًا رأسه حتى لا تظهر صورته الظل على صفحة السماء.

وسمع أصوات جلبة على جزئين، قاربان مبحران معًا على مسافة مناسبة.

صدق حدسه حتى الآن، فلا بد من أكثر من قارب، بث الشبكة ثم جمعها بقارب واحد تستغرق وقتًا ممتدًا، قد يحمل خلاله التيار بعض السمك الميت بعيدًا عن متناول الشباك. وعلى الطرف المقابل، فإن قاربًا ثالثًا لا يضيف عونًا يذكر، بل قد يزيد من نسبة المجازفة. فكلما

زاد عدد من يعلمون بتلك الحملات، زاد احتمال أن يتكلم أحدهم بأكثر مما ينبغي. والأهم، كلما قل عدد الشركاء، زاد نصيب كل منهم.

وكما قدر «جوبيم»، ظل القاربان متجاورين، والمتوقع أن يلقي أحدهما مخطافه، والثاني يربط حبله إلى مؤخرة الأول، ثم تبدأ مراجعة التيار ومقدار إزاحته، وتجهيز الشبكة، وأخيرًا إلقاء الديناميت. ربما أُلقي قضيب من كل جانب، على أن تنفجر العبوتان على عمق كبير، حتى لا يؤثر الانفجار على البدن الخشبي إلا بطرقة خفيفة. ثم يشرع القارب على المخطاف في بث الشبكة، ويترك الآخر نفسه للتيار يحمله بعيدًا ومعه الطرف الآخر للشبكة، ثم يجدف في دائرة واسعة يعود بعدها إلى القارب الثابت على مخطافه.

بضع دقائق انتظار، بعدها سحب الشبكة ومَلء القاربين بالأسماك، ثم التجديف عائدين.

اقتربت الأصوات، والمجاديف ما زالت تدفع الماء.

وأدرك أنه ارتكب خطأً جسيمًا.

عندما اختار البقعة المناسبة له، فقد اختار البقعة المضبوطة التي اتجهوا نحوها فعلًا.

إذن هناك احتمال أن يمروا به أو على الأقل بحبل مخطافه.

ثم ماذا؟ تتوقف الفروض على طبيعة أولئك الأشخاص. أسوأها أنه قد يجد نفسه في دفاع عن حياته ضد أربعة رجال يحملون المدي كجزء من لباسهم، ولديهم قضبان الديناميت يمكنهم إلقاؤها نحوه

من مسافة آمنة. إنه لم يعط نفسه الفرصة الكافية، لكن لو استطاع الاقتراب منهم وتيسر له الوقت، بوسعه نسف الجميع، وهو فيهم. لكن ذلك ليس بهدفه.

وأفضل الفروض أن ينكروا نيتهم الصيد بالديناميت، ويمضوا لحال سبيلهم كأنهم على موعد في موقع آخر. وفي المساء التالي يتوجهون إلى منطقة أخرى لا يعرفها «جوبيم» لينتظرهم بها.

توقف التجديف، وسمع «جوبيم» رذاذ الماء مع سقوط المخطاف، ثم احتكاك حبل المخطاف بخشب القارب. لقد توقفوا حيث كان يرجو تمامًا، على بعد عشر ياردات منه في اتجاه دفع التيار. وسمع دقة على إحدى عوامات الشبكة في القارب الثابت، ثم جدل عارض حول طول الفتيل. تمنى لو احتدم الجدل ولو لدقيقة، فالأصوات العالية تغطي على صوت أي حركة يأتي بها.

بدأ يدلي القارورة الحمراء إلى الماء، وما زال على رقدته فوق الطوف وخده ملتصق بالخشب، ثم تركها تنحدر مع التيار. لم يكن يستطيع توجيه القارورة دون رفع رأسه، لذا أمسك بالفتيل، وانتظر حتى ينشغل الرجال.

ثم سمع حكة ثقاب ورأى الوهج المنبعث منه. أحاطت يد بعود الثقاب، ولامس فتيلان لهبه. ثم انطلق الفتيلان يئزان بصوت جلي، وأخذ الشرر يتطاير منهما. طار قوس من الشرر على كل من جانبي القارب مع قضيبي الديناميت. وعلى الفور استدار الرجال يعدون الشبكة بعناية لبثها منتظمة في الماء.

نهض «جوبيم» على كوعه، وشرع يمد حبل الفتيل خلف طوفه، يمد قدمًا كل مرة ويدعو ألا يستدير الرجال فيروه. حاول تصور العمق الذي بلغه قضيبا الديناميت. من الأفضل (ليس ضروريًّا ولكن أفضل فقط) أن يعتقد الرجال بأن شخصًا قد توصل إلى تجهيزاتهم وعبث بها. ربما دعم خطته أن يقتنعوا بانكشاف أمرهم وبمعرفة أشخاصهم. من أجل ذلك كان ضروريًّا توافق انفجاره تمامًا مع دوي الديناميت في العمق.

فكلما زاد عدد من يعلمون بتلك الحملات، زاد احتمال أن يتكلم، والتقط المولد اليدوي. أغمض عينيه يتجسد منظر الديناميت الهابط في الماء، صورة تبدأ من قمة الجبل إلى أعلى.

ورأى بخياله القضيبين يهويان في حركة لولبية بطيئة، ثم ضغط المولد مرة ثم أخرى فثالثة.

سمع العجلة تدور سريعًا، وأسرع، وأسرع، والجهد يزداد ويزداد.

ثم دوى صوت يمزق ما حوله. فتح «جوبيم» عينيه ليرى العالم حوله يغلي. الماء تحت القاربين ينتفخ ويتفجر، والقاربان نفسهما يتحللان إلى أشلاء بحركة بطيئة رشيقة.

قوة الانفجار تحتهما مباشرة فككت الألواح وبعثرتها. وانتفخ الماء فقذف بالرجال الأربعة عاليًا في فوضى مثل رجال السيرك على القماش المشدود.

لجزء دقيق من الثانية، وقبل أن تصل طاقة الانفجار إلى «جوبيم»

ظن أنه أساء حساباته وأنه سيتبع الرجال في الهواء، لكن الإطارات المطاطية المربوطة إلى طوفه امتصت الكثير من الضربة الطرقية الأولية. لذا رغم ارتفاع الطوف فوق الماء لم يتفكك، وعاد يصفع وجه الماء قطعة واحدة ثم يتمايل بجنون. وحتى المخطاف ظل ثابتًا. كل ما فعله «جوبيم» أن تمسك بالطوف حتى لا يتدحرج عن سطحه.

وقبل أن يضيع ذهول الصدمة، مد يده فأخرج مصباحًا يدويًّا قويًّا من النوع المستخدم لإنارة سطح الماء في الصيد الليلي. لم يضئه، لكنه ركع والمصباح في يده وانتظر.

ساد ارتباك شديد، سقط الرجال في الماء فغاصوا، وعادوا يطفون ويتصايحون. اختلطت صرخات غير مميزة بعضها ببعض، وكل منهم يستمع لنفسه دون سواه.

- النجدة!

- لا أستطيع السباحة!

- إني مصاب.

- آه يا ربي.

- ساعدوني.

- النجدة.. النجدة.

وجد كل منهم قطعة حطام تعلق بها، وأفسح الذعر مكانًا للغضب والمهانة والعدوانية، إلى جانب قلق جارف من الغرق، أو أن يحملهم التيار إلى حيث تلتهمهم الوحوش التي تسكن الأعماق.

كان السقوط في الماء أمرًا بالغ السوء، أما أن يحدث ليلًا فهو الكابوس نفسه. وكصيادون، عرفوا ماذا يكمن في الأعماق، لكن الأدهى أنهم عرفوا أن الكثير لا يعرفونه، أشياء قضمت أسلاك الصلب وفردت السنانير الكبيرة. أشياء تصعد ليلًا من أجل الطعام.

طالما تمنوا الإحساس بأمان شيء صلب تحت أقدامهم. أما هنا فأي لمسة كفيلة بإصابتهم بصدمة.

– ما هذا؟

– شيء ما هنا. أشعر به.

– لعله خيالك.

– ها هو ثانية. يا إلهي!

– ماذا؟ ما هو؟

– سمكة. سمكة ميتة.

– أين؟

– ها هي واحدة.

– أشعر بأخرى.

– الغثيان ينتابني.

– قلت لك الفتيل قصير.

– أنت أبله.

– يا إلهي. سمكة أخرى!

- كم نبعد عن...

- لا تفكر في ذلك.

- سوف نغرق.

- اصمت.

- سنموت كلنا.

- اخرس.

- الماء يشدني بعيدًا.

- اضرب بأقدامك في هذا الاتجاه.

- أضرب بكل قوتي. ما هذا؟ أمعاء!

- انسها.

- ها هي ثانية.

- ما هي؟

- إنها ملتصقة بي.

أضاء «جوبيم» المصباح، فذهل الأربعة الطافون على الماء لمخروط الضوء المنبعث. حاولوا رؤية ما خلف الضوء المنبعث. حاولوا رؤية ما خلف الضوء. لكن أشعته كانت بالغة القوة. كان عليهم أن يقفلوا أعينهم أو أن يستديروا.

لوهلة ظنوا أنهم أُنقذوا، وكاد الابتسام يرتسم على وجوههم. ولكن بقاء «جوبيم» صامتًا، لا يتحرك نحوهم، دلهم أن النجدة لم

تصل، على الأقل الآن.

انتظر حتى أيقن أن الارتباك والقلق غمرا عقولهم، وعاد الرعب يتعمق في أرواحهم.

ثم تكلم. تكلم ببطء وبصوت خافت بقدر ما استطاع. حاول أن يبدو الوحي، أو إنسان الكهف، أو المصير الغامض الذي يتهددهم. أراد كلًّا منهم أن يذكر ذلك الحدث، دائمًا، أن يرتجف له كلما تذكره حتى ينتصف الشعر على ذراعه.

قال جوبيم: نحن أحراس البحر.

وتوقف لحظة للتأثير الدرامي، ثم أضاف:

– لقد تعقبناكم، ووجدناكم، وعرفناكم. أنتم الأشرار.

صاح أحدهم: كلا.. ما نحن إلا...

زأر «جوبيم»: اصمت.

تمنى لو كانت هناك طبولًا ورعدًا خلف صوته.

– أنتم الأشرار، والشر يحصد الشر. تأخذون الطعام من أفواه الأطفال، وتجلبون الخراب على الأرض.

ودار بخلده: لا ريب أن كلمات كتلك لها أثرها. على الأقل هي وسيلة التخاطب في الكتاب المقدس.

– سوف تموتون.

عوت الأصوات الأربعة في وقت واحد: لا!

– كل البشر يموتون. هناك وقت للموت، وقد أتى حينكم. ربما ليس اليوم.

صمت.

– ربما ليس الغد.

صمت.

– لكن لتحذروا. وجوهكم معروفة لنا الآن.

حرك الضوء بين وجوه الرجال، فأظهرت دائرة الضوء وجوهًا ممتقعة باهتة.

– أحدنا سيكون معكم دائمًا لباقي أيامكم على الأرض. عندما تعودون للإثم لن تكون خطيئتكم خافية، سيعرف بها من معكم.

صمت «جوبيم». لقد أخذت صور معينة طريقها إلى أذهانهم، كلها عن العقاب والأذى.

– لن تعرفونا.. ربما نحن أقرب أصدقائكم.. ربما إخوانكم.. لن تثقوا بأحد.. لا أحد.. أبدًا.

ببطء أخذت دائرة الرجال تتسع، لفرط الرعب لم يدر بخلدهم أن تتشابك أذرعتهم وأيديهم؛ لذا تبعثروا مع التيار. بعد لحظات لن يمكن احتوائهم جميعًا في الضوء.

– لو عدتم ثانية لهذا المكان أو لسواه لتفعلوا ما فعلتم، ودعوا أحبابكم قبلها، فلن تروهم ثانية.

أطفأ «جوبيم» المصباح وبقي ساكنًا دون حراك، آملًا أن يبدو

وكأنه اختفى.

صاد صمت مطبق لبضع دقائق، ثم أدرك الرجال عدة أمور في نفس الوقت.

أولها أنه ما من أمل في إنقاذهم، لو أرادوا النجاة، عليهم البقاء طافين حتى يدركوا اليابسة أو ينبثق عليهم ضوء النهار فيلتقطهم أحد القوارب المارة.

وآخرها -وأكثرها مدعاة للرعب- أنهم أخذوا يتباعدون مثل حلقات حجر ألقي في الماء.

نادى أحدهم: أين أنتم؟

أجاب اثنان في صوت واحد: هنا.

- اقترب إلى هنا.

ضربات سباحة في الماء.

- ليس هناك. من هنا.

- قادم إليك.

- ما هذا؟

- سمكة ميتة أخرى. إنهم في كل مكان.

- سنغرق.

- اصمت.

- سمكة قرش.

- أين؟

- لم يكن قرشًا.

مكث «جوبيم» على طوفه يستمع إليهم، وسرعان ما خفتت الأصوات بعد أن اشتد تيار المد. في الصباح ربما يكونوا قد ابتعدوا عدة أميال، وربما تباعدوا أميالًا بعضهم عن بعض.

لكل منهم وزنه وقدرته على الطفو ومقاومته لحركة الماء، وحركته مختلفة عن الآخرين تحت تأثير مختلف التيارات.

ربما التقطت القوارب واحدًا أو اثنين، وهناك عبَّارات دائمة التنقل بين الأرض المكسيكية وشبه جزيرة «بايا». من يلتقطونه منهم ينزلوه في أول ميناء، وعليه أن يعمل لتدبير مصروفات العودة. فيستجدي الناس للانتقال من قرية إلى قرية إلى جزيرة، وعندما يبلغ موطنه، ماذا يقول إنه حدث؟ وبفرض وصول أحد رفاقه قبله، فكيف يتم التنسيق بين روايات الجميع؟

والمؤكد أن أحدهم -وربما اثنين- سيجرفه التيار إلى أرض غير مأهولة، وعليه الحفر بأظافره من أجل البقاء، وحتى يسترعي انتباه أحد الصيادين العابرين أو عائلة تجمع الحطب، يمكنه أكل السحالي، إن استطاع الإمساك بها، أو حية دون أجراس إن تمكن من عضها قبل أن تعضه. بيض الطيور أفضل له، إن اهتدى لأوكارها بين الصخور العالية. لكن الماء العذب غير متوافر، سوى من بعض البرك الراكدة التي تعم فيها البكتيريا. قد يمرض، لكنه يدعم بقاءه.

استبعد «جوبيم» موت أحدهم، وما كان ليعتبر نفسه مسؤولًا عمن عساه يموت. لقد ألقى بهم إلى الماء معافين ودون إصابات وفي

طقس هادئ. أي فرد يمكنه بلوغ اليابسة في تلك الظروف، ما دام لم يأت بتصرف غبي.

ومع ذلك رأى «جوبيم» أنه لو مات أحدهم لكان من العدالة. ما فعلوه بالجبل دمغهم. ولم يعد من حقهم مصير أفضل مما يستحق فأر مسعور.

سرعان ما انتهت الأصوات، ولم يبق سوى لطمات الماء الخفيفة على قاعدة طوفه. رفع سمكة مرجان ذهبية كبيرة فوق الطوف، واستقرت في حجر «جوبيم».

قوة الديناميت الطرقية لم تقتل السمكة فحسب، إنما شوهتها أيضًا، فانتفخ بطنها وامتد لسانها متورمًا كالبالون وملأ فمها، وجحظت عيناها عن محجريهما، تحدقان في فراغ مرتبك.

وبات الجبل خاليًا من الحياة، ولسوف يظل شهورًا عديدة على تلك الحال قبل أن تعود إليه مظاهر الحياة، وتمر سنوات قبل أن تصبح الحركة فيه كسابق عهدها.

كلا لن يحزن لو أن أحدهم لم يعد لموطنه.

* * *

- ٩ -

انتظرت «بالوما» إلى أن عاد السكون. ثم انتظرت فترة أخرى حتى تضمن أن «جو» قد استدار وجدف عائدًا. أخيرًا غاصت، وخرجت من تحت القارب المقلوب.

كانت وحيدة في البحر.

رفعت نفسها فوق ظهر القارب، وفحصت الثغرة التي حفرها «جو» بالفجوة. كان الثقب في حجم قبضتها تقريبًا، من السهل سده بالخشب فور العودة، لكنه كبير بحيث لا يمكنها من الوصول للشاطئ.

شرعت تستعرض الفرص المتاحة لها. تستطيع البقاء مع القارب المنكفئ إلى أن يدفعها التيار إلى اليابسة، اليوم أو في الغد أو بعد الغد. وربما استغرقت العودة أيامًا تقضيها فريسة للعطش وللعوامل الجوية. فإذا ما ساء الطقس، أصبحت محاولة اجتياز إعصار على جذع شجرة أجوف هي الانتحار بعينه.

يمكنها ترك القارب والسباحة عائدة. كلا، بكل تأكيد لا. لا تستحق مجرد التفكير.

أو ربما أمكنها ترقيع القارب مؤقتًا، هنا والآن.

بماذا؟ ليس لديها أخشاب، ولا نسيج القلوع المتين ولا جلد. لا مسامير ولا مطرقة ولا حبال تثبيت. بمقدورها سد الفجوة بالجلوس فوقها. لكنها لن تستطيع التجديف في ذلك الوضع. مع كل حركة تأتيها تنفتح الفجوة فيندفع الماء للداخل.

استرجعت في ذهنها كل ما أحضرته معها، تحلل صلاحية كل شيء لسد الفتحة.

قبعتها؟ لا. نسيج القش ليس متماسكًا بما يمنع تدفق الماء.

زعنفتيها؟ تستطيع قطع إحداهما وتجهيز سدادة مطاطية. لكن المطاط لا يثبت على وضعه.

واجهة قناعها الزجاجية؟ ما من وسيلة لتثبيتها على الخشب.

بحث ذهنها كل بند واستبعده. ثم -وهي تنظر للألياف الخشبية- رأت رداءها. الحل أن تحشو الرداء في الفجوة، وهو مشبع بالماء ولا يحتمل المزيد. إذا تكور بإحكام، تضافرت الأنسجة وأصبحت مانعة للماء.

نفضت الرداء المشبع بالماء عن جسدها، من فوق رأسها، وغاصت تحت القارب. وبداخله، أخذت تحشو القماش في الفجوة كسدادة محكمة، قد لا تتحمل الارتطام في بحر هائج، لكنها ثابتة بما يكفي للتجديف في مياه هادئة.

ثم خرجت من تحت القارب ورفعت نفسها فوق ظهره. ومدت يديها لتقبض على الطرف البعيد، على ركبتيها وشدته. سمعت صوت

تفريغ الضغط، ثم طرقة انكشار التفريغ، وقرب القارب يعتدل على قاعه في الماء. لكن الماء ظل يملؤه حتى أصبحت بوصة واحدة من ارتفاع الجانبين تعلو فوق السطح. والقارب جذع مفرغ، لا احتمال لغرقه. لكن وزن «بالوما» -عندما تركبه- كفيل بخفض القارب إلى تحت مستوى الماء، وكل حركة مهما صغرت تؤرجحه، فيندفع لداخله مزيد من الماء. ولم يكن نزح الماء من الداخل بالأمر اليسير.

لذا تعلقت بذراع إلى الجانب، وباليد الأخرى مضت تنزح الماء من القارب بإيقاع منتظم.

أقنعت نفسها بالصبر، فأمامها ساعات طوال من العمل، ربما امتدت في غياهب الليل. ولم تتعجل حتى لا ترهق نفسها، وتجازف بحدوث تقلص عضلي في ذراع أو ساق. بوسعها تفادي التقلص. لكن ما إن تدخل عضلة في مرحلة التشنج، فمصيرها بالضرورة إلى التقلص ما لم تمنح راحة لساعات. ويزداد كل تقلص سوءًا عن سابقه، وصعوبة في حله وإرخائه. ولم تشأ أن تضطر لاستخدام أقصى العلاجات في تلك المرحلة المتقدمة من إعادة القارب صالحًا. فقد قيل إن أفضل وسيلة لتخفيف تقلص شديد هي إحداث ألم أشد منه في موضع آخر من الجسد. والفكرة وراء ذلك أن العقل لا يركز إلا على مركز واحد للألم، في الوقت الواحد، فيركز على أشد الآلام قسوة؛ لذلك فإنه يتوقف عن إرسال إشارات التقلص إلى العضلة المجهدة.

الكل يتفق -بما فيهم «بالوما»- على أن العقل مصدر التقلصات. وأيًّا كان سببها، فالذعر يزيدها سوءًا، بينما عدم التفكير فيها واعتبارها

مجرد عضلة متقلصة لا بد أن تسترخي، يساعد على ارتخائها. لكن البرود الهادي علاج، وصفه أسهل بكثير من تنفيذه، خصوصًا أثناء السباحة. فالتقلص يحول السابح إلى كرة فقدت قدرتها على الطفو.

استمرت تنزح الماء، رغم عضلات العضد التي بدأت تتصلب وتؤلم. ولكي تدلك الذراع كان عليها ترك القارب. على الفور تملكها التيار وسحبها بعيدًا، لكنها لم تقلق لثقتها من قدرتها على السباحة.

كانت على مسافة تربو على خمسين ياردة عندما أحست أخيرًا بأنسجة عضدها تسترخي وتلين، توقفت عن التدليك، وبدأت تضرب بذراعيها على مهل ضد التيار.

لاحت -بالنسبة لأي حيوان يرقبها من أسفل- مخلوقًا كبير الحجم قويًّا، وماضيًا لحاله، ولا يرسل إشارات ضعف تجعله فريسة مناسبة. وبعد عشر دقائق أو خمس عشر بدا لها أنها لم تتحرك خطوة واحدة، ولم تقترب من قاربها عنها حين بدأت العودة.

لكنها حددت بدايتها بمجموعة من الصخور على شكل معين على القاع، فعرفت أنها حققت بعض التقدم شديد البطء. ربما تقدمت قدمين مع كل ضربة ذراع، تخسر نصفها أمام التيار وهي تستعد للضربة التالية، لكنها تتقدم. لم يصبها الكلل، وقد تستمر في السباحة على هذا المنوال دون حد. كذلك فالتيار مصيره إلى الضعف فيما لا يتجاوز الساعتين، وعندها تحقق تقدمًا ملموسًا، ثم يتغير التيار أخيرًا فتصل إلى قاربها ببضع ضربات.

ساقها اليسرى انهارت أولًا، تلقت إنذارًا لجزء من الثانية، أعقبه

التواء أصابع قدمها بعضها حول بعض وتعقدها. حاولت الضغط بيدها على أسفل سمانة الساق، لكن الوقت كان قد فات. تكورت أنسجة العضلات عقدة في حجم البرتقالة، فاستدارت تستلقي على ظهرها، واستخدمت كلتا يديها للضغط على ساقها، واستمرت في التدليك حتى لانت العقدة، وأحست بوادر استرخائها.

وانحلت العقدة فجأة، ظنت أن التقلص قد انتهى، ففردت الساق. وقبل أن تدرك ما يحدث، شعرت بتشنج عنيف كادت تسمعه، وبعقدة أكبر تلتوي خلف فخذها. وارتد كعبها منطبقًا على فخذها كمطواة أُقفل سلاحها.

جرفها التيار حتى ابتعدت عن قاربها من ذي قبل. وأوحت لنفسها ألا تفكر فيما حدث، لكن جهدها في سبيل التجاهل كان في حد ذاته تفكيرًا أشد.

حاولت استخدام يديها لفرد ساقها، لكن ذراعيها أقصر من أداء مهمة الرافعة، لذا دفعت قدمها الأخرى بين طرف الساق المنقبضة، وأخذت تدفع لفتحها.

وانهارت الساق الثانية، صورة مطابقة لما حدث للأولى. بدت عندئذ مثل أحد الشحاذين الجالسين على لوح خشبي في «لاباز». أولئك الذين فقدوا ساقًا تحت الركبة. لم يعد التوازن متاحًا لها، فثقل نصفها العلوي على الأسفل، وتدحرجت في الماء مثل خنزير مكبل.

ظنت أولًا أنها تكاد تفقد الوعي من الألم، وتمنت أن يصيبها الإغماء، فهي ممن يطفون بطبيعتهم على ظهورهم، ومع فقدان الوعي

تختفي التقلصات، فتطفو على ظهرها ورأسها فوق الماء.

ولما لم تفقد الوعي، حاولت السباحة نحو القارب بالاعتماد على ذراعيها وحدهما، لكن دون جدوى؛ فقد عاودها الكلل سريعًا وتهاوت. لم يبق لها سوى مقاومة التقلص في ذهنها، فكفت عن السباحة. قالت لنفسها إن التيار قد حملها بعيدًا، فماذا يمكن أن يحدث أسوأ من ذلك؟ التيار يجرفها حتى ليتعذر عليها العودة للقارب. لن تغرق، فهي تعلم كيف تبقى طافية للأبد، ما لم تهب عاصفة، وعندها لا جدوى حتى من القلق. ومن ثم يظل التيار يجرفها، وربما انقلب فأعادها إلى قاربها. حتى لو جرفها إلى بُعد سحيق، فليس عليها سوى أن تظل طافية لحين الاقتراب من اليابسة أو التقاطها. الحق أن لا موجب للقلق. بيد أنها -في أعماق ذهنها- كانت موقنة من أنها لن تظل طافية للأبد، ولا حتى لأكثر من أيام قليلة؛ فالعطش كفيل بالقضاء عليها، أو الجوع، أو حرارة الشمس.

غير أنها استطاعت أن تبعد تلك الأفكار عن التداخل مع ما كانت بصدده.

ثم أطلت على الماء تحتها، فرأت أن أسوأ الأمور قد حل وهي في غفلة عنه.

لقد أزيحت بعيدًا وبعيدًا عن الجبل وعن الزمن، إلى الظلال الزرقاء التي تسبق الظلام.

أزيحت إلى حيث تدور سمكتا قرش دورات بطيئة مترقبة. لم يكونا من قروش المطرقة المألوفة.

حتى على تلك المسافة أمكنها تمييز شكل الرأس المدبب كالطلقة، رأس قرش «الثور» السريع والجريء والشرس والعدواني، والذي لا يمكن التنبؤ بما قد يفعله.

كل دورة كانت تقرب سمكتي القرش من السطح. كل دورة كانت أسرع من سابقتها.

أدركت على الفور ما يحدث. منذ محنتها وهي ترسل بإشارات جديدة، إشارات تفسر بأنها لم تعد المخلوق الضخم المعافى، والماضي في سبيله. هي عندئذ حيوان جريح مذعور لا يملك دفاعًا عن نفسه. وبلغة الحيوانات البحرية -الفريسة السهلة.

حثت نفسها: عليَّ بتغيير مسلكي فورًا، وإلا انقضا ومزقاني إربًا.

واستوعب ذهنها ما انبعث منه، فأثارت الفكرة موجة رعب اجتاحتها بعنف، وطفقت تجاهد بشدة لفرد ساقيها، ومع زيادة المحاولة، ازداد التقلص تشابكًا.

كيف يكون شعورها عندما تهاجمها سمكة ضخمة؟ هل تحس بألم؟ أم يكون الهجوم سريعًا حتى لا يحدث ألم على الإطلاق؟ بداهة هو أليم، ولكن أي نوع من الألم؟ وما أسوأ ما عليها تحمله؟

عضت على لسانها، فأحست بالألم. شددت من إطباق أسنانها حتى لم يعد هناك أسوأ. وعضت أشد وأشد، فشعرت بمذاق الدم في فمها، ورأت بضع شعيرات حمراء تنساب من بين شفتيها في الماء. ربما اجتذب الدم سمكتي القرش. كل ما ركزت عليه هو الألم في

لسانها كاللهب، كوخز الإبر، كاختراق السيف، ثم انهارت التقلصات.

لم تدر بذلك حتى توقفت عن عض لسانها، توقعت أن يخفت الألم في فمها كما يهدأ صمام السرعة في الماكينة، شيئًا فشيئًا إلى أن يصبح ذكرى. وظنت أن آلام التقلصات في ساقيها تعود لتحل محل ألم لسانها.

وفعلًا انقشع من فمها، لكن لم يحل محله شيء، نظرت إلى ساقيها فرأتهما قد ارتختا، ولم تعد عضلات سمانتيهما مشدودة.

بدأت سباحة تجريبية نحو قاربها، بغرض اختبار قدرة عضلاتها على تحقيق إنجاز كبير، فاستخدمت ذراعيها وكتفيها، وتركت ساقيها تتبعان حركتها بركلات مقصية خفيفة.

لم يعد ثمة ألم، كما لم تحقق تقدمًا يذكر. قصر ذراعاها وحدهما عن تحريك جسدها ضد التيار. غير أنها ظلت تسبح لتدريب أعضائها ولإعادة دورة الدم لأنسجتها. وداومت حركة هادئة سهلة، لكن متزنة واثقة.

بعد دقائق عادت تطل تحتها، وبحثت حتى أطراف الظلمة عن دورات سمكتي القرش، رأت أحدهما فقط، جزءًا منه، بصيص من شبح رمادي يبتعد. لقد عادت حيوانًا ضخمًا معافى، وباتت -في عرف القرش- عدوًّا هائلًا بدلًا من فريسة لا حول لها.

استمرت تسبح لأكثر من ساعة، بين الحين والآخر كانت عضلة صغيرة أو أخرى تعطي وخزة إنذار بالتشنج، فتتوقف لتدلكها وتهزها.

لكنها لم تشأ التوقف طويلًا، فالحركة المستمرة تعطيها دفئًا وأملًا، والدفء يساعد دورتها الدموية. فلو سمحت للبرودة بالتسلل إلى جسدها، لضعفت الدورة ولتعطشت العضلات إلى الأكسجين، فتعود التقلصات.

ظلت تسبح دون تفكير، وتركز اهتمامها على كل ضربة، كأنها حركة منفصلة عن سباحتها وعن بقية الحركات المنفصلة.. كانت تبدأ ضربة، فتستوفيها في كمال آلي نحو هدف بعيد عن أفكارها.

طردت الأفكار الأخرى عن ذهنها حتى لا تولد مشاعر قد تغير من كيمياء جسدها فتسبب لها المتاعب، وخز أو تقلص في جانبها، تجمع غازي في أمعائها أو تنفس بالغ العمق قد يؤدي بها إلى الإغماء.

أول مظهر لتغير المد كان دفء الماء الساكن الذي مر جسدها به. كانت تسبح خلال تيار داخل البحر انخفضت سرعته مع ضعف المد، تيار دافئ ظل على السطح كاللبن المتخثر فوق قدح القهوة.

توقفت عن السباحة وأجالت البصر حولها، لقد تحرك البحر هادئ التموج إلى سطح ساكن أملس، وأمست تموجاته الطويلة من البطء والكسل بحيث تصعب ملاحظتها.

رأت قطعة عشب طافية على مسافة منها، فسبحت نحوها وألقتها بأقصى قوتها في اتجاه القارب البعيد، فسقطت على بعد عشرة أقدام وظلت ساكنة مكانها. لم تتحرك نحوها أو بعيدًا عنها أو إلى أي من الجانبين.

كان التيار في سكون الموت، ولو سبحت الآن فلن تخسر مسافة ما، بل تقترب بقدر ما سبحته. وسرعان ما يصل المد الجديد فيدفعها في اتجاهها. أما القارب فهو ثابت على مخطافه.

مع كل ضربة رأت القارب يكبر، وقطعت في الساعة الأولى ميلًا كاملًا في تيار ساكن. أما الميل الثاني فاستغرق منها عشرين دقيقة، حيث تحول التيار وأخذ يزداد قوة. وخلال خمسة عشر دقيقة كانت جالسة في قاربها تدلك ساقيها.

لقد مرت بالخوف، وهي الآن تحس بالفخر؛ لأنها نجت بجهدها وحدها. كل قرار اتخذته كان قرارها وحدها وصائبًا. حقًّا «جوبيم» هو الذي علمها كل مهاراتها، وأعطاها المعرفة التي ساعدت على نجاتها. لكن روعة الأداء كانت في ممارسة كل ذلك بالفعل.

ارتجفت، فالشمس قد انخفضت حتى ألقى القارب ظلًّا واضحًا على صفحة الماء. خلال ساعات الظهيرة أضفت الشمس حرارتها على الماء، ولساعات قادمة يحتفظ الماء بالحرارة. لكن الهواء الصحو شرع يخلص الماء منها. ومنذ انكفأ قاربها انخفضت الحرارة بأكثر من خمس درجات.

ركعت على قاع القارب تغترف منه الماء لتلقي به للبحر، وبعدها أخذت تجدف، ثم عادت تغترف الماء وتجدف. وراقبت الشمس تنزلق نحو الأفق، ثم تتردد قليلًا، وتشرع في الغوص خلفه، إلى أن تركت السماء في زرقة غنية تتخللها النجوم شاحبة إلى الشرق.

رأت شعلة نار تتأجج على جزيرة بعيدة. وعلى مقربة، خلال

الشفق قفزت حدأة بحرية صغيرة في الهواء، وسقطت تصفع السطح الساكن، وغمرت «بالوما» قناعة بأنها حيث هي، لا شعور بالوحدة نهارًا أو ليلًا.

كان القارب قد جف عنه الماء، انتظارًا لشمس الغد تستخلص البلل من الخشب. لم تكن قد خرجت إلى البحر ليلًا لمدة طويلة، لذا أعادت التأكد من العلامات البرية التي رأتها، ثم نهضت واقفة في القارب تبحث عن بشائر أضواء «سانتا ماريا». وعادت تجدف.

لا ريب أن القلق استبد «بميراندا»، فلم يحدث إطلاقًا أن تأخرت «بالوما» إلى هذه الساعة. ولا شك في أن أمها أيقنت بما تصورته مبكرًا مكروهًا ألم بها، غرقت، شيء ما افترسها، أصيبت وطافية وحدها في الظلام. المؤكد أن خيال «ميراندا» انطلق يعمل بضعف طاقته، وسرعان ما يستسلم لفكرة هلاك بالوما. القدر يوجه لها ضربة ثانية، فينتزع حبيبة أخرى من صدرها.

ليس القدر، الإرادة الإلهية.

لكن الله لا يريد «لميراندا» أن يدفعها الحزن إلى الهستيريا. وبمجرد أن يستوعب ذهنها أن الإرادة الإلهية وراء اختفاء «بالوما»، فلن تعود للاستسلام لشيء حتى للقلق. ما دامت هي إرادة الله، فإن الحزن يكون بمثابة شكوى من إرادته. ولن يحدث ذلك منها أبدًا.

بالطبع لن يكون «جو» عونًا لها، والأقرب أن يتظاهر بالبراءة والاهتمام، وأن يتعاطف مع كل أفكار «ميراندا»، فإذا قادتها تأملاتها إلى سر الإرادة الإلهية، هز رأسه حيرة. وإذا تساءلت عما فعلته

لتستحق كل تلك الأحزان، أحاطها بذراعه مؤكدًا أنها نفس قصة يعقوب، وأن الله سيثيبها بالجنة. وتظل سيرة «بالوما» قائمة بينهما، من ذكر لمحاسنها إلى البكاء عليها معًا.

أثارت التصورات حنقها وجعلتها تشتد في التجديف. ثم تجسدت ما ينتظرها في أعقاب تلك المشاعر الجياشة، وابتسمت. ربما استنكرت ميراندا -لفترة قصيرة- عودة بالوما، بعد أن أعدت نفسها لتقبل الكارثة، وكأن عودتها صدمة جديدة.

ويتظاهر «جو» بالفرح لعودتها، بالطبع من أجل «ميراندا» وحدها. ثم ينهمك لبعض أعماله بالمنزل، وعيناه تحملان تحذيرًا «لبالوما» بألا تبوح بشيء مما حدث في النهار. ومع ذلك تصورت «بالوما» أن يغمره إحساس خفي بالارتياح لعودتها. فلم تكن لتؤمن أن ضميره -رغم نوبات هياجه- قد يغفر له قتل أخته.

ربما كان الأفضل أن تصمت. ماذا يحقق إعلان ما حدث؟ ليس هناك من يملك له عقابًا. وحتى إن صدق الناس روايتها، فلن يبدو ما ارتكبه خطيرًا. فهي لم تصب بأذى، وما من وسيلة لتصوير إرادة الشر والتهور التي تجسدت أخاها، ولا عقاب للأفكار الشريرة طالما لم تأت بنتائجها.

ارتفع ثلاثة أرباع قمر في السماء الداكنة، فألقى مسارًا ذهبيًّا في الماء أمام القارب، مسارًا أدى بها إلى موطنها. كان استقبالها صورة تكاد تنطبق على ما تخيلته.

صرخت «ميراندا»، وأنشبت أظافرها في «بالوما» تحتضنها.

وحمدت ربها على استجابته لدعواتها وتحقيق المعجزة التي وصلت من أجلها. ثم سألت «بالوما» عما أخَّرها.

اختلست «بالوما» نظرة إلى «جو»، ولم تستطع التحكم في لسانها وهي تقول إنها كانت من الحمق بحيث سمحت لأمور تافهة أن تعطلها، وأنه في الحقيقة لم يحدث ما يستحق الذكر. مجرد دوامة صغيرة حملتها بعيدًا عن الشاطئ. حقًّا ما كان ينبغي لها أن تدع ذلك يحدث -نظرة ثانية نحو «جو»- وأن ما حدث لن يتكرر.

مرة أخرى أدركت خطأها في الحكم عليه، لم يفهم أنها تتلاعب به، بل فسر قصتها على أنها نصر آخر يحققه. لقد حذرها من ذكر الحقيقة، وها هي تمتثل.

السيطرة إذن قد تجمعت في يده، على رفاقه الذين بات عليهم التعامل معه باحترام، وعلى «بالوما» التي أصبحت ترهبه وتخشى غضبه.

عبر «جو» الغرفة ليحتضن «بالوما»، ورأسه بعيدة كأنما يحتضن مريضًا بالجذام، قال: إنه قلق عليها.

أحست «ميراندا» بغرابة ما يدور بين طفليها. تيار عداء مستتر يتناقلانه بينهما، وتواصل يتم بنوع من الشفرة المبهمة، لكنها تشع بالتنافر. توصلت إلى فهم صحيح لما يدور بينهما، إلا أنها كانت عاجزة عن التغلغل إلى خباياه. ومن ثم كتمت قلقها تحت قناع من الرضا حيث تظل الجميع السلامة والعافية.

ثم خلعت عنها القلق تمامًا مع وصول بعض الجيران. لقد حضروا لتوبيخ «بالوما» على ما سببته لأمها من إزعاج، والسخرية من قلق «ميراندا» الذي لم يكن له مبرر.

قالوا: أترين؟ قلنا لك من البداية إن كل شيء على ما يرام.

وترجمت «ميراندا» ذلك بأنه لوم لها، فاستجابت بأن عنفت «بالوما» لتأخرها طويلًا.

والواقع أنها أردات أن تقول: كيف تسببين لي أن أبدو حمقاء أمام الناس؟

فهمت «بالوما» واعتذرت. وأجابت بأن الأخطار التي تعرضت لها هي سبب التأخير. وكم هي محظوظة لعودتها حية وسالمة. بذلك بررت قلق «ميراندا» أمام صديقاتها، كما أعطتها أساسًا لقصة ترويها لهن.

خلال ذلك كله، ظل «جو» جالسًا في أحد الأركان على كرسي مائل إلى الحائط، كان يبتسم راضيًا.

* * *

- ١٠ -

لم تخرج «بالوما» في الصباح. قالت «لميراندا» إن تجربتها الرهيبة خلال اليوم السابق قد أرعبتها، وإنها ترغب البقاء بالبر يومًا أو اثنين، تساعد في الغسيل والطهو وأعمال المنزل.

فرحبت «ميراندا» بذلك، فإن ابنتها تروي بنفسها على النساء الأخريات قصة المعجزة التي أبقتها المرتبطة بالبحر، وتعرفت على أوضاع المجتمع وتقاليده وتقبلتها.

الحق أن بقاء «بالوما» سببه عدم ثقتها من الوقوف سلبية، إذا ما ذهبت إلى الجبل ورأت «جو» ورفيقيه هنالك. والمؤكد أن وجودها يخلق مواجهة أخرى معهم، وفي هذه المرة لن تمر الأحداث دون أن يصاب أحد.

سارت حتى قمة التل المطلة على الرصيف، وراقبتهم مع باقي الصيادين يعدون قواربهم ليومهم. سمعت أغلب ما قيل، فاستنتجت ما لم يصلها من حديثهم، فلا تختلف الأحاديث كثيرًا من يوم لآخر. فهمت أن «جو» لم يخبر الصيادين الآخرين عن وجهته مع رفيقيه، بل انتظر حتى رحل الآخرون، متظاهرًا بالسخط على تعقد خيوط الصيد، وتأخره بسببها عن الخروج.

خامر «بالوما» بعض الارتياح لأنانيته، ما دام ذكاؤه قد هداه إلى أن الحديث عن جبل الماء ليس في صالحه، فسيؤخر جشعه -على الأقل لفترة ما- المذبحة الجماعية للحيوانات هناك، غير أنها لم تطمئن للمعدات التي رفعها «جو» و«أنديو» إلى القارب وشبكة كبيرة مزودة بأثقال الرصاص بأسفلها، لجرها كمصيدة متحركة على قمة الجبل.

واستوثق «جو» من أنه بات وحيدًا مع رفيقيه، فأدار الماكينة واتجه إلى البحر. لم يكن متأكدًا من موقع الجبل، لكن أمامه اليوم بأكمله للبحث عنه دون ضغوط من «بالوما» أو وجود منافسين. لا شك في أن يجده.

قاد «جو» القارب، وأحد الرفيقين يطل من صندوق المراقبة. قرر المضي على خطوط مستقيمة ذهابًا وإيابًا في الموقع التقريبي، إلى أن يجد نفسه مارًّا فوقه.

ربما لم يكن بوسع «جو» إحداث دمار كبير في وقت قصير. والأمر يعتمد قبل كل شيء على اتجاهات المد والتيارات السفلية، وتحركات الكتل الهائلة من أسماك الطعم والمخلوقات الدقيقة التي تبدأ بها سلسلة الغذاء في البحر. ربما ألقى بالشبكة ثم رفعها سمكة شاردة كبيرة، فأسراب الأسماك الضخمة من الناجل والقاروص دائبة الحركة خلف طعامها. أما أن يجد إحداها فوق الجبل، تلك صدفة عشوائية.

لكن لا بد من حدوث ما تخشاه، إن لم يكن هذا الصباح، ففي المساء، وإن لم يكن اليوم ففي الغد. مع كل تلك التجمعات الشاسعة

للأسماك المختلفة التي تمر بقمة الجبل مرات عديدة، فحتى لو ألقى المخطاف في مكان خاطئ وفي وقت غير مناسب، لا بد أن يهتدي أخيرًا إلى تجمع ضخم من خلال صندوق المراقبة.

ظلت «بالوما» تتابع القارب حتى ذاب خط سيره في المياه النشطة، واختفى هيكله الأبيض في انعكاسات ضوء الشمس المتلألئ على سطح البحر.

أصبح الرصيف خاويًا، فبات بوسعها العمل على إصلاح قاربها دون ما إزعاج. وجدت قطعًا من القماش السميك وأجزاء من رقائق الخشب (الأبلكاش)، فمضت تقطع وتشكل إلى رقع تسد بها الفجوة من الداخل والخارج، ثم تثبتها بالمسامير في مكانها، وأخيرًا كستها بسطح من القار، ثم سارت عائدة إلى البيت.

وجدت «ميراندا» هناك، تتنقل حول البيت كالطائر الثائر، العصبية تتملكها والفهم يقلقها، فضلًا عن مشاعر أخرى تكمل أو تناقض ما يعتمل بداخلها. وكل الأحاسيس التي تكالبت عليها دفعت بها إلى غياهب الارتباك.

أساسًا، سعدت لبقاء «بالوما» إلى جوارها لتعيش حياة الإناث وتؤدي أعمالهن. وقلقت من أن ابنتها لو صادفت يومًا شيئًا، فلربما عادت إلى البحر على الفور وإلى الأبد. واشتاقت لاستعادة ابنتها، والاحتفاظ بالرفيقة التي حرمها «جوبيم» منها بأن أخذها معه للبحر. وأرادت أن تفخر بابنتها، ابنة تساعدها وتعمل إلى جوارها. من الطبيعي تربية الطفلة على أداء الأعمال التي تناسب الأنثى، والمجتمع يوافق

على ذلك ويقره. وذلك من شأنه أن يجعل «ميراندا» -الأم- امرأة طبيعية يقبلها الجميع ويعاملونها كواحدة منهن. وودت لو استطاعت أن تتباهى «ببالوما» أمام النسوة الأخريات، كرمز لإنجاز حققته.

لكنها -في ركن من ذهنها- كانت قلقة من أن تقول «بالوما» شيئًا أو تفعله، فلا يبدو طبيعيًّا. إن حدث ذلك، فلا ريب أن الأمور تصبح لها أصعب من ذي قبل.

وخشيت ألا تحب النساء «بالوما»، وألا تحب «بالوما» النساء الأخريات. أرادت للجميع أن يحب الجميع. بيد أن ذلك معناه أن تكتم النساء شكاواهن الدائمة من كل شيء. لقد تعلمت «بالوما» عن أبيها أن الشكوى مضيعة للوقت، إن لم تستسغ أمرًا فعليها تغييره، وإن لم يكن قابلًا للتغيير فلتقبله. وإن تعذر هذا وذاك، فلتغير ظروفها الخاصة لتلائم الوضع الجدي -لكنها -بأي حال- ليس لها أن تنتحب ولا تتذمر منه، لا جدوى من ذلك، فضلًا عن إحساسها بالظلم وعليها أن تتكيف، فتخفي احتقارها للشاكين، وهو عدل بطبيعة الحال، فما كانت على دراية بحياة النساء ومشاكلهن، وما ملكت تقييمًا لحالة شكاويهن وقدر الجدية فيها.

لو أن حياتها تدور كلية حول غسل الملابس وطهو الطعام وأشغال المنزل، لأصبحت دقائق تلك الأمور أهم ما يشغلها في الحياة. لذا كان من الطبيعي الاقتناع بأن تلك التفاصيل ليست تافهة أو بلهاء، على الأقل بالنسبة للنساء، ومن ثم ليس لها أن تهزأ منهن.

مضت «بالوما» تنتقل في أرجاء المنزل لتنظف شيئًا لا يحتاج

لتنظيف، وتمسح التراب عن شيء لا أثر للتراب عليه، وترتب أشياء في مواضع لم توضع فيها من قبل، ظلت تكلم أمها، ترتب حديثها جملة جملة، ثم توقفت وعادت تحاول من جديد. جربت مسارًا آخر من التفكير، ثم تلعثمت وغيرت الموضوع. كانت تخشى التركيز على الموضوع بذاته، فربما أخفى عليها شيئًا من الغموض. ومضى بعض الوقت قبل أن تدرك ما لم ترد أمها طرقه من أحاديث. فقالت:

– لا عليك يا أمي، لكل إنسان ما يتفوق فيه.

توقفت «ميراندا» عن العمل: ماذا تعنين؟

– بإمكاني استخدام يداي في التجديف، وهن يستخدمن أناملهن في الحياكة.

لم تفهم «ميراندا» سوى أن نبرة تعاطف أطلت من صوت ابنتها، كل شيء إذن على ما يرام.

في البداية عاملت النساء «بالوما» بحذر، ورفضها بفضول. كان ذلك طبيعيًّا، وهي ابنة «جوبيم» الذي اعتبرته مثار فضول، بل أكثر، شاذًّا لدرجة الخطورة. كان يضع القوانين والعادات التي تناسبه، ويرفض على الفور تلك التي لا تتفق وآراءه، أو يتحملها في سخط صامت. ولكن هذا أضفى عليه مظهر المترفع، وأحيانًا ما بدا شخصًا لا يحتمل بالنسبة للكثيرين، لولا أنه راجع تصرفاته بعين ناقدة. حتى مع ذلك، كرهه الرجال الذين يتمسكون بالشعائر ليكتسبوا وضعًا لا يتاح لهم عن طريق آخر، ولم يحزنوا على اختفائه الأبدي من الجزيرة. بعضهم متزوج، ونساؤهم أصدقاء «لميراندا» ورفيقات عمل. لم

ترض النساء على قدر تقاربها مع أبيها، ورأين أن تصرفاتها جعلت منها ابنة أبيها بحق.

لذا كن في حاجة للقناعة بأن «بالوما» عزمت على الالتزام بالحياة الطبيعية كأنثى.

ولقد أقنعتهن «بالوما»، بات فمها مطبقًا إلا لإجابة أسئلتهن المباشرة. واتسمت إجاباتها بالاحترام حتى لتلك التي اعتبرتها تافهة أو مثيرة للغضب. أنصتت باهتمام لكل الأحاديث، وأوقات تعاطفها مع كلمات لم تترك انطباعًا في ذهنها. كانت قرقعة أفواههن تدوي في رأسها كالبلي في محاورة خاوية، وهجرها قاطنها إلى الماء يتجسد ما يحدث عند الجبل.

عملت بجد، أرهقت خلاله عضلات ما اعتادت استخدامها. لم تكن لتتوقف للراحة مثلما تفعل معظم النساء، ولا سمحت لنفسها بشكوى من الإرهاق ولا حتى بآهة ضجر. ثم اكتشفت أن النساء أردن لها إرهاقًا جسديًّا يجعلها تقدر مصاعب حياتهن. ولقد قدرت، ورددت كالصدى بعض شكاواهن. وفي نهاية اليوم كانت بعض النساء تنتحي جانبًا «بميراندا» لتهنئتها بما صارت إليه «بالوما».

لم تتخل «ميراندا» عن صمتها وهي ترتقي التل تحت حمل ثقيل من الملابس المغسولة، وإن بدت عليها البهجة والخيلاء واضحين. وأدركت «بالوما» أن عمل اليوم -وإن لم يحقق شيئًا يذكر- قد غمر أمها بالسعادة.

رغم كل ذلك، لم تتوقف «بالوما» عن التساؤل كم من الحيوانات

عساه مات خلال فترات سعادة «ميراندا»، وانحت على نفسها باللائمة لأنها لم تبذل جهدًا لتوقف المذبحة، وإن كان من الغباء اعتبارها مسؤولة عما يحدث.

عندما كانت تشارك في تنظيف المنزل ونشر الغسيل ليجف وإطعام الدجاج للمرة الثانية وتأجيج نار الطهو، كانت تجبر أفكارها على البقاء باليابسة. وبمجرد انتهاء تلك الأعمال، واتجاه «ميراندا» لإعداد وجبة العشاء، كانت «بالوما» تخرج لتطل إلى السماء فتعرف الوقت.

كانت الشمس منخفضة، والوقت متأخر عما اعتاد «جو» ورفيقاه قضاءه بالبحر. رأت -وهي تتفحص الدرب المؤدي إلى الرصيف- عديدًا من الصيادين ماضين إلى ديارهم، أي أنهم عادوا إلى البر منذ ساعة أو نحوها، الزمن اللازم لتفريغ الأسماك من القوارب وتنظيفها ثم غسل القارب وتخزين المعدات. ربما واجه «جو» ورفيقاه بعض المتاعب العادية، ليست بالغة الخطر، فما كانت تتمنى الشر لإنسان، شيء غير متوقع يستغرق وقتًا، ربما مخيف بحيث يثبط عزمهم العودة للجبل. ربما تعقدت الشبكة بالقاع، وانكفأ القارب عند محاولة تخليصها، حينئذ عليهم إعادة القارب إلى وضعه، والتجديف عائدين بعد أن تخلل الماء المالح أجزاء الماكينة ولم تعد تعمل.

ربما ألقوا بشبكتهم وسط تجمع التونة الضخمة، أو نباتات صلبة، ورأوا الشبكة تتمزق أشلاء، فناضلوا لتحريرها بعد إخلاء سبيل الحيوانات قبل أن تجر القارب خلفها تحت الماء.

وربما الآن -وقد أرخى الليل سدوله- أخذت أسراب السلاحف

البحرية تشاكسهم، وقد اشتمت رائحة السمك في القارب وأرادت بعضه. فمضت تلعب حولهم وتصدم القارب وتصفعه وتهزه بأنوفها وأذيالها. فألقوا إليها ببعض الأسماك علها تتوقف، فاعتبرت السلاحف ذلك تشجيعًا على المزيد من اللعب، واستمرت في صدم القارب بشدة تحت الماء. يهتز القارب ليسقط المزيد من الأسماك، وتتأكد السلاحف من جدوى لهوها فتمضي فيه بشدة. ويسمع الصيادون صفير السلاحف وقرقعتها في تخاطبها. في الظلمة الحالكة تبدو لهم تلك الأصوات على أنها هياج الوحوش، وسرعان ما يتملكهم الرعب، فيفقد القارب توازنه، ويتساقطوا إلى البحر في ماء يغلي بالحركة والزبد المخضب بدماء الأسماك.

أحبت «بالوما» التصور الأخير. نعم ذلك ما لا بد أنه حدث إن لم يعودوا على الفور. غير أنها أدركت -وهي ماضية على الدرب نحو الرصيف- أن ثمة احتمال آخر. احتمال جعل راحتي يديها تتفصدان عرقًا وبرودة، كما انسابت خطوط العرق على أجنابها، وارتفعت فقاعة خوف من بطنها إلى غصة في حنجرتها.

من قمة التل أيقنت أن الاحتمال الأخير هو الحقيقة.

كان يوم «جو» ناجحًا بما يفوق أحلامه. لقد أطبقت الشبكة على أعداد هائلة من الأسماك، جمعت في كومة عالية في القارب. بات عليهم العودة بأبطأ سرعة حتى لا يتمايل القارب يغترف الماء ويغرق، أصغر موجة قد تتخطى المقدمة إلى داخله، وأقل تمايل جانبي قد يتسبب في أن يغيض القارب بالماء.

وبينما كان القارب يتقدم بحذر نحو الرصيف، رأت ثلاثتهم جالسين على الأسماك. أحاطهم السمك من كل جانب حتى خصورهم. في يوم واحد التقطت الشبكة أكثر مما صادوه بالسنارة في شهر.

مرات كثيرة من قبل، عانت تجمعات الأسماك الضخمة من خسائر ثقيلة، بسبب تكالب الصيادين عليه، لكنها سرعان ما كانت تستعيد غزارتها. فهناك أعداد لا تحصى من كل الفصائل، وهي سريعة التكاثر وغزيرته، والبحر مترامي الأطراف بما يستحيل معه صيدها كلها.

الأسماك تتحمل كل شيء، ما عدا الكوارث التي تنقض عليها كالصاعقة مثل الديناميت، أو الغزو الفجائي لسفن تعبئة الأسماك الوافدة من الشرق، وكلاهما محرم بحكم القانون.

كلا. لم يكن الأسوأ -في نظر بالوما- هو كمية الصيد، بقدر ما هو نوعيته. حتى على تلك المسافة، وفي غسق ينحسر نحو الظلمة أمكنها رؤية ما كان عليه صيدهم، رأتهم ينبشون بين الأسماك ويلقون إلى البحر بتلك التي لا تصل إلى مستوياتهم -التي ارتفعت على حين غرة- قبل ذلك كانوا يحصلون على القليل، فيحتفظون بكل شيء. لم يكن لديهم من سبب للتخلص من أي سمكة مهما كانت، فعليهم إطعام عائلاتهم وبيع الباقي. لا مجال للتبديد أو الاستهانة، فموت كائن يهب الحياة لكائن آخر. منتهى النبل والسمو.

أما الآن وقد حصلوا على أكثر من الكثير، وضمانًا -في تصورهم- بمعين لا ينفد، لماذا يهتمون بالاحتفاظ إلا بما يأتيهم

بالعملات الفضية على الأقل، ودون جهد؟ لماذا يأبهون بأسماك يقدر سعرها بالطن- وليس بالرطل؟ أسماك تنقل بالعربات إلى حيث تجفف وتطحن. أسماك التقطتها الشبكة، وكان الأجدى إعادتها للماء من استمرار تداولها.

بعض تلك الأسماك لا تمضي في تجمعات، ولا تعطي العديد من الفقس بما يضمن لها البقاء الطبيعي، بل ولا تتوافر بغزارة على الجبل. والتخلص من الأسماك «النفاية» بإعادتها للماء، ربما كان أجدى اقتصاديًّا؛ لأنه يسمح بالتقاط العينات المربحة بدلًا منها. لم يكن يعنيهم في شيء الاحتفاظ بتوازن الحياة الطبيعية في جبال الماء، التوازن الذي استغرق دهورًا في تحقيقه. وهم يطرحون تبريرهم على أساس أن الطبيعة شهيرة بمرونتها، وأنها لا بد أن تعيد كل شيء إلى أصله. فإن نضب جبل لنتحرك إلى آخر. وخلال زمن جمع الأسماك من الأخير، يكون الأول قد استعاد غزارته، وإلا فإلى جبل جديد. هناك دائمًا المزيد، والذكاء يوصل إليه.

أرخى الليل سدوله، وما زال «جو» ورفيقاه مستمرين في فرز صيدهم، فأكملوا عملهم على ضوء القمر الصاعد. كانوا جوعى ومكدودين، فلم يصروا على نظافة القارب وإعداد أدواتهم للغد.

قال «جو» وهو يقفز إلى الرصيف: لندع القارب للصباح.

قبعت «بالوما» بين الشجيرات تتابع الأشباح الثلاثة وهي تدنو في اتجاهها.

- الآن نحن على يقين من الموقع.

- وما يحويه من أسماك. يا إلهي، ما رأيت مكانًا مثله أبدًا.

- لنا أن نذهب بعد ذلك متأخرين، ونعود في الظهيرة.

- يمكننا القيام برحلتين يوميًّا.

- لتذهب أنت مرتين. حصيلة كهذه فيها الكفاية. يكاد ظهري أن ينكسر.

وتبينت صوت «جو» واضحًا وهو يمر بقمة الجبل:

- ربما يجدر بنا الاستعانة بقارب ثان.

- هذا يعني مزيدًا من الأشخاص!

- ولماذا نقتسم معهم؟

- عندها يمكن مضاعفة الصيد.

- ويبقى ربحنا كما هو، فلا بد أن يشاركونا.

- كلا لن نفعل ذلك. نعقد معهم اتفاقًا، نأخذهم إلى هناك، وربما نعصب أعينهم لكي لا يتعرفوا على الموقع فيما بعد، مقابل نصف محصولهم. هذا إضافة إلى ما نصطاده نحن.

- لست متأكدًا.

- ولا أنا.

قال جو: لنلتق بعد العشاء لدراسة الأمر، ليس علينا اتخاذ قرار الآن.

- معقول.

أضاف «جو» بحدة: تذكرا، لا حديث مع أي كان، وإلا خرجتما نهائيًّا.

- طبعًا.

توقفت الأصوات، وشحبت دقات الأقدام مع اقترابهم إلى منازلهم.

انتظرت «بالوما» حتى لم يعد من صوت سوى حفيف الريح فوق الجزيرة، وظلت برهة أخرى بين الشجيرات حرصًا، فربما عاد أحدهم لأمر نسيه، ثم زحفت إلى الرصيف.

كان القمر في كبد السماء، ضوؤه يتخلل المياه الضحلة قرب الشاطئ فيسدل بياضًا شاحبًا على القاع الصخري.

غير أن القاع نفسه ما كان ليُرى وقد غطته أجساد السمك الميت. أحياء طافية، وأخرى مستقرة على القاع، أجساد يرفعها الماء فتعوقها أجساد أخرى. أجساد معطوبة ومشوهة وبلا لون، شحب كساؤها اللامع بما يماثل رتابة الموت، وعيونها السوداء خاوية تحدق بنظرات زجاجية في فراغ.

لا ريب أنهم ألقوا بربع صيدهم على الأقل، بكل شيء عدا الأنواع الغالية الثمن، فتأتي كل منها بعملة فضية. وغص الماء إلى جوار الرصيف «بالقاروص» الصغير الذيل، والمرجان غير النامي والذي كان الواجب تخليصه حيًّا من الشبكة وإعادته فورًا إلى البحر، فهو مستقبل نوعه.

هناك أيضًا الأسماك التي أطلق «جوبيم» عليها «البريئة»، فهي دون قيمة سوقية، ولا تباع فردية، وتجمع بالأطنان لإنتاج غذاء أسماء الزينة والقطط، وتساوي القليل في المصنع، أسماك «الشكعة» -هادئة وخجولة وشجاعة- تواجه التحدي بالانتفاخ الفوري. وهي لا تساهم في زيادة حصيلة أحد، ولا على مائدته، لكنها مهرج صاخب للغواصين.

وسمكة الملاك التي يتغير لون خطوطها مع مراحل عمرها من الطفولة إلى النضج، فتشع جمالًا مع كل مرحلة، وهي واحدة من حراس الجبل اليقظين.

ثم الحدآت -الحدأة النسر واللاسعة والنسر- النساك القابعون تحت الرمال. وتنفجر هاربة في سحابة رمال عند اقتراب غريب، لتعاود الاختفاء تحت الرمال من مخبأ لآخر.

وسلحفاة بحرية، من الصغر حتى إن صدفتها لم تكن تصلبت بعد، كسرت رقبتها المجعدة بين أحبال الشبكة، فتهدلت زعانفها والتصق ذيلها بصدفة البطن.

والكثير غيرها، أسماك الببغاء والرقيب والخنزير والشوب والبرجيز، كلها قتلت وألقيت في المياه الضحلة لتتعفن.

مذبحة رهيبة، ما كان ذلك بالصيد.

ركعت على حافة الرصيف تحملق في الماء، فرأت صورتها تومض في ضوء القمر، وأدركت أنها تبكي. أرادت أن تهرع إلى

الصيادين تناديهم، الكبار منهم، لتشهدهم على المذبحة. ولم تفعل، فالوقت ليل، وما من أحد يرحب باحتجاجاتها. أرادت أن تأتي «بفيجو» -وتوجه عينيه الكليلتين إلى تلك الأسماك- إلى التبديد والاستهتار والضياع. ولم تفعل، ما من أحد يشاركها ثورتها. ربما قرقع البعض بلسانه، وتناثرت بعض النوايا بنصح الشباب أن يفيدوا من كل شيء يصطادونه، ثم ينتهي الأمر عند ذلك.

وفي الصباح لن يبقى ثمة أثر.

لم يكن «جو» بالأحمق، فقد عاد مع القمر المكتمل، بعد ساعات يتحرك التيار إلى الجذر، فيمتص كل الأسماك إلى المياه العميقة حيث يغوص بعضها تحت الماء، وبعضها الآخر تلتهمه الأسماك الحية، والبقية الباقية تتجاذبها التيارات المضادة وتحملها بعيدًا. ومع وصول الصيادين إلى الرصيف في الصباح، لا يكون متبقيًا سوى بضع أسماك طافية، وبعض أنصاف أسماك أكلت بقيتها على القاع. قدر مناسب من النفاية لصيد الأمس.

بل إنه في تلك اللحظة، كانت الأسماك قد بدأت تنجرف بعيدًا عن صخور الشاطئ، واحتجبت الرؤية عن أجزاء من القاع لتتكشف شقوق في أجزاء أخرى، رأت سمكة محشورة بين صخرتين كالجرو النائم، أو كأنها اختارت وضعًا مريحًا لميتتها. رقدت على الرصيف ومدت يدًا تلتقط الجسد لتضعه على الرصيف.

ثعبان بحري أخضر صغير، لم يزد إصابة على بقية الأسماك. ومع ذلك، في حين عانت الأسماك الأخرى ميتة بسيطة -فقدان الحياة-

تقلص الثعبان في عذاب، وتجمد على وضع لحظة النهاية. التف على شكل عقدة جعلته يبدو أكثر من ميت، بل يظل يموت إلى الأبد.

صورة بشعة لحيوان عاش بكبرياء، أن يتحول إلى عقدة ميتة.

كانت «بالوما» تعرف عن ثعابين البحر تلك الميتة الغريبة الفريدة التي تعكس سلوكها في الحياة. فهي تعيش في شقوق وكهوف صغيرة وتحت الصخور، وتترصد عند الفتحة بفم مفتوح وخياشيم منتظمة النبض، كأنما تمارس التنويم المغناطيسي. ولا تكاد تظهر في بيئتها حيث يكتسي جلدها بلون ما حولها.

فإذا ما مرت فريسة على قرب، انطلق نحوها جسد الثعبان كالرصاصة ليختطفها، ويشرع في ابتلاعها. جسده أنبوبي عضلي، والكلابات القبيحة في فمه ليست إلا حاجزًا يمنع الخروج، وعند حلقه مجموعة أخرى من الأسنان، تطبق على الفريسة حتى تدفعها التموجات العضلية للداخل. لذا يضاعف غواصو كتم الأنفاس من حرصهم، فلا يقربوا أيديهم من الجحور في الشعاب المرجانية. أولًا هناك الخوف من العض، فهو بالغ الألم، والجرح الذي ينتج ممزق لا يلتئم. كما أن أسنان الثعبان تغطيها طبقة لزجة ملوثة بالفيروسات.

بين الحين والآخر يجد الثعبان نفسه قد خرج -في غفلة- من وكره حتى منتصفه، أو ينتقل من جحر إلى آخر. قد يختطف فريسة آنذاك، فلا يجد صخرًا يثبت إليه ذيله فيشد بقوة مستندًا إلى جسده، ويلتف بسرعة إلى عقدة كاملة فيحيط ذيله برأسه، ويعبر من خلال الأنشوطة بين الرقبة والجسد، ثم يسحب الفريسة التي تتخبط وتتواثب

إلى الأنشوطة ويدور خارج الشعاب إلى البحر المفتوح مطمئنًا إلى ركيزة لم تتح للفريسة.

كذلك تنعقد الثعابين حول نفسها إذا ما واجهت قوة تفوقها، كسنارة من الصلب انغرزت في الحلق، ومربوطة إلى خيط يمر بين الكلَّابات فلا يمكن عضه. وعلى السطح رجل في قارب، يمسك بالخيط، ولديه القوة والصبر وسعة الحيلة. فيربط الخيط إلى القارب، ويترك للثعبان أن يقاوم إلى أن يرهق نفسه.

والصيادون يكرهون الثعابين، فهي تلتقط الطعم الكبير أو الصغير فلا يبقى أمامهم من وسيلة لتجنب صيدها ثم تحرير السنارة منها. وهي عديمة الفائدة، ما من أحد يشتريها، وما من أحد يأكلها وهي خطيرة، لا تموت قبل وصولها إلى القارب، ودائمًا ما تكون ملتفة في عقدة غروية زلقة، وعلى الصياد أن يستعد دائمًا لقطع الخيط، فيفقد الثقل الرصاص والسنارة ومحور الدوران، حتى لا يضطر إلى استخراجه من داخل الفم عند مجموعة الأسنان الداخلية. القارب يتأرجح، والثعبان يقاوم بشدة، والصيادون الآخرون ساخطون للتهديد الذي يواجههم وأدواتهم، بل والقارب نفسه. ويحاول ضرب الثعبان على رأسه ليتمكن من شق خياشيمه أو مد «كماشة» داخل فمه. ربما أدت المحاولة إلى عضة قاسية، أحيانًا تتسبب في عجز.

لذا اعتبرت ثعابين الماء حيوانات شريرة دميمة، وعديمة الفائدة وخطرة. ومن ثم فهي من نسل الشيطان أو على الأقل من أتباعه.

ذات يوم اصطاد «جوبيم» ثعبانًا ورفعه إلى القارب، كان ملتفًّا

في عقدة، وقاوم في الماء مقاومة شديدة أرجحت القارب كالبندول. لم تكن «بالوما» قد رأت ثعبانًا حيًّا من قبل، فلما أطلت على الماء المضطرب لم تعرف ما هو، فظنته نباتًا متشابكًا.

قال «جوبيم»: أعطني «الكماشة».

ناولته الكماشة، ثم راقبته يرفع الثعبان بهدوء إلى السطح.

- أمسكي هذا.

مرر إليها خيط الصيد، فأحست به يتذبذب ويصدر صوتًا كالوتر لقوة الشد.

أمسك «الكماشة» بيمناه، وفرد أصبعين من نفس اليد على نفس الخط حتى مسافة بوصة من فم الثعبان، ثم رفع الخيط، فأخرج الثعبان من الماء، وبيسراه أطبق خلف الرأس وضغط.

ما كانت لتتصور إطلاقًا بوجود مخلوق بهذه الصورة. لم يكن سمكة، بل مسخًا.

جحظت عيناه السوداوان الشبيهتان بعيني خنزير وتلألأتا. وانفرج فمه عن خيوط مخاطية. أما خياشيمه -أو ما رأته منها- فكانت تنبض وسط دمامة من اللحم الأخضر. وسمعت ضجة.

صرخت: اقتله. اقتله.

- لماذا؟

- اقتله.

استدار «جوبيم» والتقط الهراوة التي يحتفظ بها في القارب،

ليضرب بها القروش ويفقدها الوعي.

- إن أردته ميتًا فاقتليه أنت.

- ألا تريده ميتًا؟

لم يجب «جوبيم». كان يحدق بثبات في عين الثعبان. تلوت عضلات ذراعه وكتفه وتثنت وهو يحتفظ بالثعبان معلقًا. ثم ضغط بيسراه لينفرج الفم، حتى أصبح الفكان على خط واحد، كأنما انفصل الفك الأسفل كلية عن الجسد.

فتح «جوبيم» الكماشة ودفع يده بها داخل فم الثعبان.

صاحت «بالوما»: سوف يقضم يدك.

دفع «جوبيم» يده أبعد داخل الجوف، ورأت «بالوما» لحم الثعبان يتمدد مع مرور الأصابع داخله، واختفت اليد إلى المعصم، ثم إلى منتصف الساعد، وظل الثعبان يتلوى ويصدر فحيحًا. خفض «جوبيم» بصره، ودفع الكماشة يتحسس بها مكان السنارة، فوجدها، انحرفت يده داخل الجسد الأخضر النابض، وتحركت كل عضلات الذراع، ثم شرع يسحب ذراعه فمعصمه، وأخيرًا الكماشة مطبقة على السنارة الحديدية.

ظل مطبق على رأس الثعبان بيسراه، ثم أدلى الجسد إلى الماء وحركه ذهابًا وجيئة لينساب الماء إلى خياشيمه، وعندما أيقن أن الثعبان لن يتلقى صدمة فجائية توقف تنفسه، أطلقه في الماء وسحب ذراعه سريعًا.

غاصت العقدة الخضراء قدمًا أو اثنين، ثم انفرجت كحية تستيقظ وانتفض الثعبان يمدد أنسجته المكدودة من طول الانقباض. وكأنما وعى فجأة ما حوله واستيقظ على الماء المفتوح يغمره، اندفع بقفزة سريعة نحو القاع.

ولمدة بعدها ظلت «بالوما» تتساءل لماذا لم يقتله؟ وضايقتها إجابته لسؤالها بسؤال. كان منهمكًا في تخليص الخيط الذي تعقد حول ركبتيه وهو يستعد لتحرير الثعبان.

- ولماذا أقتله؟

- ربما قضم معصمك.

- لم يكن ليستطيع. أقصى ما هنالك أن يعض.

- ألا يكفي ذلك سوءًا؟

- لأقتله؟ كلا، لقد اصطدته صدفة فآذيته، وغرست سنارة في حلقه، وسحبته خارج الماء إلى حيث لا يمكنه التنفس. أنبأته الغريزة بأنه يموت. ثم اعتصرت رأسه ليفتح فمه، وحشرت شيئًا صلبًا وعظامًا داخل حلقه أفتش داخله. أي سببت له الألم والرعب، ثم يعضني بعد كل ذلك؟ ما كنت ألومه لو قضم يدي. لماذا إذن بعد كل ما عاناه يتحتم عليَّ قتله؟

كادت «بالوما» تتكلم، لكن «جوبيم» أضاف:

- لا تسألي أبدًا «لماذا لم تقتل؟». ينبغي أن يكون السؤال «لماذا أقتل؟» ولا بد أن تكون الإجابة حاسمة لا تحتمل ردًّا آخر.

ولأن «بالوما» لم تملك إجابة «لماذا أقتل؟» فقد لزمت الصمت.

تلك الأمسية عندما فرغا من الصيد، وجه «جوبيم» زورقه إلى أضحل منطقة فوق الجبل، قال «لبالوما» إنه يصطحبها في الغوص لسبب مهم. كانت مرهقة ولا تريد أن تبتل. لكن دائمًا ما منحها معه وعدًا متجددًا بالمتعة والإثارة لا تملك له رفضًا.

قطع «جوبيم» سمكة إلى أجزاء صغيرة وضعها في كيس من «البلاستيك» وعلقه في حزامه، وأخذا يهبطان معًا مع حبل المخطاف. وعلى القاع أشار لها بالبقاء عند حبل المخطاف، واتجه نحو الصخور. سرعان ما وجد ضالته، فأشار لها بالانضمام إليه. كان وجهه على بعد نصف قدم من فجوة بين الصخور، وجذبها إلى جواره.

لحظة واحدة استغرقها تركيز بصرها وذهنها، لتعي ما كانت تحملق فيه. ظنت أن أباها أصابه مس من الجنون، وأنه يحاول قتلها.

ثعبان ضخم أطل من الفجوة التي يحرسها، رأس كبير ووجنتان منتفختان وعينان زجاجيتان وفم فاغر، كان الثعبان من الضخامة حتى ليبدو الأول إلى جواره دودة كبيرة. ملأت رأسه الفجوة، وجعلت نبضات خياشيمه رأسه تلامس جانبي الشعب المرجانية، ولو أنه ارتج لطرقت رأسه الشعاب.

تراجعت «بالوما» إلى الخلف كرد فعل تلقائي، لكن «جوبيم» أطبق على ذراعها وقسرها على العودة إلى جانبه، وأخرج قطعة سمك من الكيس، فأدلى بها فوق رأس الثعبان. ترك «جوبيم» قطعة السمك، فتلقفها الثعبان في فمه الفاغر، ثم أقفله وابتلعها، وعادت الخياشيم تنبض. ثم انزلق الثعبان إلى الخلف، داخل جحره.

أطعمه «جوبيم» قطعة أخرى، ثم أخرى. بعدها أدرك حاجة «بالوما» إلى الأكسجين، فأشار لها بالصعود، اختلست «بالوما» نظرة تحتها خلال صعودهما، لترى الثعبان قد انزلق خارجًا أربعة أقدام أو خمسة يتطلع نحوهما. ولا ريب أنه ظن برحيلهما، فعاد ينزلق دخولًا واختفى داخل الفجوة. وعلى السطح حاولت «بالوما» الكلام، لكن «جوبيم» أشار لها بالصمت، ومس صدره كتعبير عن رغبته في الهبوط ثانيًا إلى القاع.

تلك المرة راقب الثعبان اقترابهما، ورأسه خارج الفجوة بقدم.

مد يده بكيس الطعام نحوها فهزت رأسها نفيًا. لكنه دفع الكيس في يدها، ووضع يدًا على كتفها حنوًّا وطمأنة. أخفت الكيس على الفور، فالسمكة إن عرفت مكان الطعام فسوف تتجاهل ما يقدم لها وتندفع إلى الكيس لتستخلصه.

حملت القطعة الأولى على بعد قدمين كاملين من فم الثعبان، لكن «جوبيم» دفع يدها أقرب. وانزلق الثعبان خارجًا، فألقت بقطعة الطعام ليبتلعها الثعبان على الفور.

ومع كل قطعة جديدة ازدادت جرأة، ولم يأت الثعبان بأي بادرة تخالف ما أرادته هي. أما القطعة الأخيرة فقد وضعتها فعلًا داخل فكه الأسفل، وسحبت يدها في الوقت المناسب لينقبض الفم على الطعام وحده.

ومع العودة للسطح كانت تشع بهجة وعجبًا، فوافتها الأفكار بأسرع من أن تتابعها بكلمات. وأخيرًا تمكنت بالإشارة وبأنفاس

لاهثة أن تنقل «لجوبيم» رغبتها في تقطيع سمكة أخرى والعودة لإطعام الثعبان.

قال بخبث: أخشى أن يقضم يدك.

- ماذا؟

- إنه في غاية الخطورة.

- ولكن...

- أرى أن نقتله قبل أن يؤذي أحدًا.

أدركت «بالوما» غرضه فصرخت ورشته بالماء. مال برأسه وانطلق يقهقه.

وخلال الراحة قطع سمكة كبيرة إلى أجزاء أكبر من سابقتها. فالثعبان أكبر مما تخيل.

قال «لبالوما»: إن الثعابين كالقروش، تصعب معرفة أحجامها، الفجوة التي تدسين يدك فيها... قد تضم ثعبانًا لا يزيد على ذراعك طولًا وسمكًا، وقد يأوي إليها مخلوق أطول من الإنسان وفي سمك صدره. هذا الثعبان -مثلًا- ربما بلغ سبعة أقدام أو ثمانية طولًا، وقطر رأسه يجاوز القدم.

مرت دقائق على افتراقهما عن الثعبان، وعند عودتهما لم يكن هناك، لكن بمجرد أن مر ظلهما على الفجوة، انزلقت رأسه للخارج وبقيت هناك، فمه ينبض في تناسق مع خياشيمه.

كان «جوبيم» يفعل مثل مدرب الكلاب تعويد الحيوان على

التوسل من أجل الطعام. أبعد كل قطعة عن الفتحة من سابقتها، يستحثه أكثر على الخروج. لكنه لم يعاكس أو يثير غيظه، فكان يترك له الطعام على المسافة التي توقف عندها.

كان يعلم أن جهاز القرار في الثعبان بدائي وغير متكامل، ولو أبعد الطعام عما وطَّن الثعبان نفسه عليه، فإن جهازه يسجل إشارات الخيانة والخطر، ربما دفعته إلى اتخاذ وضعًا دفاعيًّا في شكل الهجوم على «جوبيم».

عمومًا لا يغادر الثعبان فجوته كلية، الواضح أنه يحتاج إلى أمان تثبيت ذلك إلى الصخور، حتى إذا ما استجد أمر، كانت له السيطرة على مواجهته.

وكما قال «جوبيم» عند ارتدادهما للقارب، فهو لا يحبذ تشجيع الحيوان لأبعد من حدوده، خصوصًا في اللقاء الأول.

خطر ببالها أنه يمكن تكرار ما فعلاه: تعني القدرة على إطعامه ثانية.

- سوف نرى. البعض يمكنه.

- كيف؟

- بالنسبة لمعظم الناس، تلك مسألة طالع. التقاء بالحيوان في ظروف مواتية لا يستشعر فيها تهديد، وجائع. لا يأتي المرء بتصرف أحمق فينجح. لكن السيطرة ليست له، هو مجرد محظوظ أن يتم الأمر على هواه. لكن بعض الناس -قلائل- إرادتهم تتحكم. يوجد شيء لا

أدري ما هو، شيء ربما كالحوت الذي لا نسمعه أو كالضوء الذي لا نراه. أناس لهم ميزة خاصة مع الحيوان، ربما كانت على صورة علاقة الحيوانات بعضها ببعض. إرسال إشارات واستقبالها واضح لكليهما، فيمتد الجسر بينهما. الحيوان بطبعه الوحشي لا يثق بالبشر، وهو محق في ذلك. لكن أولئك الأشخاص القلائل يكتسبون ثقته بتلك الخاصية.

- أنت تملكها إذن!

- لدي القليل منها، فلا أميز بين حيوان وآخر. ربما كنا محظوظين اليوم مع الثعبان، ربما لأنه كان معتدل المزاج. سنرى على أي حال.

قالت «بالوما» والأمل يحدوها: ربما لديَّ أيضًا بعض تلك الخاصية الناجحة.

- ربما. ولكن لا تؤملي كثيرًا. إنها تساعد، ولكنها قد تكون خطرة أيضًا.

- لماذا؟

- قد يشتد إيمانك بها، فيتملكك الاعتقاد بإمكان فعل أي شيء، فتحاولي التفكير بطريقة الحيوان وتصور نفسك مكانه. وفجأة تبدو السيطرة عليه ممكنة، وتنسين أنك آدمية وهو ليس كذلك. ولا يجدي التعقل مع حيوان لا تفكير له. خطوة واحدة أبعد، وينتهي بك الأمر إلى عدة جراح ودرس لا ينسى- هذا إذا كان الحظ إلى جانبك. فإذا تخلى عنك الحظ، قد ينالك أذى بالغ، ربما وصل إلى القتل.

- ولماذا يرحل؟ أين يذهب؟

- وكيف لي أن أعرف؟

- للحيوان في العادة سبب للذهاب إلى مكان ما أو البقاء في آخر هو لا يعلم أن لديه ذلك السبب، لكن جسده يعرف، غريزته تدله. معظم القروش دائبة الحركة وإلا غاصت للقاع وغرقت أمر بديهي. تجمعات الأسماك تتحرك وراء المخلوقات الصغيرة التي تتغذى عليها، وهي الأخرى تتحرك. ولأنها تريد الاستمرار في الغذاء، فلا بد من تعقب الطعام. أسماك الشعاب تلتزم بالمناطق المرجانية، وتظل تحرسها طيلة حياتها ما لم يَجدّ جديد فتُطرد منها. الثعبان يجد لنفسه فجوة يحتلها طالما أن مخلوقات الطعام تمر حولها، فإن لم تتوافر، فإنه يبحث لنفسه عن فجوة أخرى. إذن فليس لذلك الثعبان سبب للرحيل. لديه الراحة والأمان، إلى جانب أنه -منذ الأمس- لم يعد حتى بحاجة للصيد. بعض الأغبياء يأتونه بالطعام.

وفعلًا وجد الثعبان هناك داخل جحره. تطلب الأمر بضع مشاكسات حتى تناول القطعة الأولى. وتصورت «بالوما» أنه عابس وغاضب لرحيلهما عنه.

بمجرد أن نشطت شهيته للطعام صار نهمًا، وانزلق خارج الفجوة شيئًا فشيئًا، و«بالوما» -بثقة بالغة- تتراجع لتستدرجه كلية إلى الماء العادي.

لم تر «جوبيم»، ولا أحست به خلفها بقدم أو اثنين، ويده وراء ظهره قابضة على السكين.

أطعمت الثعبان خمس قطع وهو معلق في الماء، يوازن نفسه

بحركة تلقائية من زعانفه العليا والسفلى. وبقيت ست قطع في الكيس، فالتقطت واحدة بيسراها ورفعتها بهدوء نحو كتفها. انتفض الثعبان انتفاضة خفيفة ثم تبع قطعة السمك. عادت «بالوما» تحركها خلف رأسها ونقلتها إلى يدها اليمنى، واستمرت تحث الثعبان على متابعتها، أصبح ذيل الثعبان على كتفها الأيسر ورأسه على الأيمن عندما تركت القطعة. ابتلعها، وظل ملتفًّا على كتفيها مثل فرو رداء ثمين. أطعمته قطعتين أخريين وبقي ثلاثة. نظرت إلى «جوبيم» فرأت عينيه متسعتان والعروق في رقبته في سُمْك حبل المخطاف.

ظنت لوهلة أنه خائف عليها، وربما كان ذلك شعوره فعلًا، لكنها أيضًا تذكرت أن كليهما لا يتنفس ولا يستطيع التنفس، ومع ذلك فهما في أمس الحاجة للتنفس.

أخذت «بالوما» القطعة الأخيرة بيمناها، وضغطتها إلى كرة صغيرة، وقربتها من الفم المفتوح ورفعتها لأعلى؛ حتى يضطر الثعبان للارتفاع قليلًا كي يصل إليها. وعندما ارتفع فعلًا، انخفضت هي وتراجعت للخلف، ثم اندفعت إلى أعلى بزاوية حادة، نحو السطح.

كم يعاقبها «جوبيم»، وما كان في حاجة لذلك، عرف كلاهما ما يفكر الآخر فيه.

لقد تصرفت «بالوما» بتهور، لكنها نجحت. جازفت وفازت. لا ريب أن لديها تلك الخاصية، الكثير منها. لكن عليها أن تتعلم كيف تستخدمها دون مخاطر كتلك التي أقدمت عليها، ودون أن يتوقعها «جوبيم»، ويعمل لها حسابًا تتوقعه هي.

خلال العودة لم يدر بينهما أي حديث. لكنها في القارب قالت:

- أعتقد أني سأطلق عليه اسم «بانشو».

أجابها: إنه ليس بشرًا، ولكن شيء لا اسم له. لا تطلقي اسمًا عليه.

رغم ذلك سمحت لنفسها سرًّا بالتفكير فيه على أنه «بانشو». كل مرة صاحبت فيها «جوبيم»، كانت تتطلع إلى نهاية اليوم حيث يزوران «بانشو». في كل زيارة كان الثعبان يتقوس حول كتفيها، ربما بعد قطعة سمك أو اثنتين. وأحيانًا ما كان يسمح لثقله أن يستقر على كتفيها ويرقد عليهما، فكانت تربت بيدها جلده الأملس وهي تطعمه.

وفي أحد الأيام رحل.

ظنت «بالوما» أولًا أنهما أخطآ الفجوة، لكن العلامات تحت الماء كانت مألوفة. بحثا في كل فجوة من ذلك القطاع من الجبل، يراودهما أمل بأن يمرا بجحره الجديد -إن كان قد اتخذ جحرًا جديدًا- فيخرج لهما.

لكنه كان قد رحل.

أحست «بالوما» بالألم، وبأنها خُدعت، كأن «جوبيم» أو الثعبان عبث بظنها، لتظن أنها بإطعامه تجعله يلزم مكانه للأبد في انتظارها.

- كلا لم أقل ذلك. قلت إن رحيله لا بد أن يكون بسبب. وأحسب أن السبب قد حان.

- أي سبب؟

مهما كان منطق أبيها فهي ترفضه. أرادت إثبات خطئه، تجريده وإلقاء اللوم عليه لأنه... لأنه ماذا؟ لا يهم. أرادت عقابه لأنه خذلها.

– لست أدري. ربما دق جرس في أعماقه يعلنه أن الوقت قد حان ليرحل إلى مكان آخر. ربما توقيت شخص نبهه إلى ساعة البحث عن رفيقه أو الهجرة.

– أظنك قلت إنه ليس بإنسان. هو «شيء» فقط.

ابتسم «جوبيم». وفي مواجهة ابتسامته لم تتمالك «بالوما» عدواها، فانفرجت شفتاها.

– إذن ربما تملكت الحماقة هذا «الشيء»، وحاول التهام مخلوقًا ضخمًا، فأكله الأخير.

– ما الذي يمكن أن يأكله؟

– فقط قرش كبير. كلا لا أعتقد أن هذا ما حدث. ربما بات كهلًا فرحل إلى حيث تموت الثعابين!

– هل تذهب إلى مكان لتموت فيه؟

– لا أعلم.. ما أعنيه أننا لا ندري، وليس لنا من سبيل للمعرفة. كان هنا بالأمس، واليوم لا وجود له. ليس لنا ما نفعله.

– لكنه.. أحبنا. أستطيع الجزم بذلك.

كفَّ «جوبيم» عن الابتسام: لا تخلقي أوهامًا لنفسك يا «بالوما».

– كان يعرفنا. أنا واثقة.

– عودناه علينا، على من يقدم له الطعام، هذا كل ما في الأمر.

قطب جبينه بتركيز ثم أضاف.

– هو لا يشعر بالحب، ولن يفتقد وجودنا معه. ليست تلك المشاعر، فهو ليس من الكائنات التي تُسمَّى راقية.

– كيف تحكم بذلك؟

دقق البصر نحوها، وعاد يبتسم.

– لا أدري على وجه اليقين.

– وماذا عن الخاصية، التقارب مع الحيوان؟

– لديك الخاصية، كما يمتلكها شخص آخر مع ثعبان. الفارق أنه ربما مع شخص آخر، ما كان الثعبان ليغادر جحره وهو يأكل. لكنه وثق بك. تلك هي الخاصية. الثقة.

❊ ❊ ❊

- ١١ -

والآن، كانت «بالوما» راكعة على الرصيف في ضوء القمر، تحمل في حجرها الثعبان المعقود.

حاولت بلطف أن تحل العقدة، أن تخفف من بشاعة مصيره، وأن تمحو البقية الباقية من عذابه.

دفعت الذيل من خلال حلقة الجسد الملتف، وشدته من الجانب الآخر، ثم أرقدت الجسد على الرصيف. لكن تصلب الموت كان قد فرض طابعه على الحيوان، فعاد الجسد إلى الالتواء. لم يستقم الجسد وتدحرج كالزنبرك على الرصيف الخشبي لتصطدم الرأس المتصلبة بالألواح.

رفعت الثعبان وأدلت به إلى الماء، فسقط فوق الأجساد الأخرى التي بدأ التيار يجرفها معه إلى المياه العميقة. وغاص الثعبان تحتها.

ظلت راكعة تحدق في الدرب الفضي الذي رسمه القمر على سطح الماء. لم تكن له بداية أو نهاية، لكن الممر انطبع كالسحر على صفحة الماء، ومضى إلى مكان ما على أطراف الظلمة عند الأفق، ثم تشتت وتلاشى في الحلكة وراءها.

لو أنها فكرت في وقت ما أن تحدد مكان أبيها، لكان هناك بين السماء والبحر عند منبع درب القمر. كثيرًا ما حاولت تجنب تلك الأفكار، فذهنها يزيد من حيرتها، والأفكار ذاتها تسبب لها ضيقًا، وتزيد من مجالات عقائدها بما يكاد يمزقها.

صاحت تخاطب «جوبيم» حيثما كان:

– ماذا أفعل؟ لا تقل «لا شيء»؛ لأن ذلك هو ما فعلته حتى الآن، وانظر ماذا حدث.

ولوحت بيدها نحو الماء.

لم تنتظر استجابة هي تعرف أنها لن تحدث.

– إنهم يقتلون الجبل، جبلنا. بعده يتحولون إلى آخر ويفنونه أيضًا. سيزيدون غنى، ولأنهم عميان لن يروا نهاية لما يفعلوه. لا أستطيع وحدي شيئًا، وما من أحد يستمع إليَّ. حتى إن استمعوا لن يستجيبوا. أمي لا تفهم ما يحدث، وإن فهمت لقالت إنها إرادة الله، وانتهى الأمر عند ذلك.

توقفت برهة، تخشى المضي في هجومها العدواني.

– إني آسفة، لكنها الحقيقة وأنت تعرفها. «فيجو» يوافق على حق أي شخص في فعل ما يريد، ولئن خلت البحار يومًا من الأسماك فذلك قدر العالم.

ثم صاحت في الليل الساكن: لكنه ليس الحقيقة، ولن أسمح به.

تردد صدى كلماتها على صفحة الماء.

– سأهدأ. لكن لا يجب السكوت على ما يحدث. إنه لك أيضًا وليس لي وحدي، لكل الناس. سأبذل ما بوسعي إن عرفت ما عليَّ فعله. لست قادرة على نسفهم مثلما فعلت. لا أستطيع، ولا أقوى عليه.

كانت تحدق في منبع الدرب الفضي. لم تتوقع استجابة ما، ولم تتلق استجابة ما، على الأقل في صورة إجابة لتساؤلاتها. لم يبرق إلهام في ذهنها، ولم ينبعث وحي في قلبها. لم تستشعر «حضورًا» مثلما يدعي من مروا بتجربة دينية، من أن ملاكًا يلمس حياة المرء ويغيرها. والمؤكد أنها لم تدرك حضورًا قدسيًّا، ولم تسمع طرقات رعد أو رياح عاصفة، أو أصوات عميقة.

لكن شيئًا طفق يتشكل داخلها.

دفء بدأ في أناملها وزحف نحو ذراعيها وكتفيها، ثم تسلل إلى صدرها وأمعائها، وانحدر إلى ساقيها. لوهلة أدركت أنه نفس ما انتابها ذات مرة وهي على وشك الإغماء. بيد أنه ما كان ينقصها وها هو يعود إلى موضعه. وفرضت عودته ترتيبًا جديدًا للأمور وإحساسًا بالهدف وتزايدًا في الثقة، ثم يقينًا بأن إجابة محددة في الطريق إليها. فقط عليها إطاعة غرائزها الطبيعية، بدلًا من الاستسلام لتذبذب العواطف وتضارب النزوات.

كيف تدلها غرائزها إلى الطريق؟ ما هو الحل؟ ماذا تعني أي من تلك الغرائز لها وللجبل؟ لم يكن لديها أي بصيص من نور يهديها إلى الجواب.

غير أنها امتلأت بالفكرة الجديدة وأيقنت أنها تحمل الرد لها.

عادت تحملق في نقطة السماء التي ينبع عندها الدرب الفضي، ثم أطرقت.

عندما عادت «بالوما» إلى المنزل كان العشاء قد انتهى، والطبق الذي تركته لها «ميراندا» أصبح باردًا. لكن الإحساس الذي بات يسري في عروقها استنفد طاقتها.

لذا أحست بالجوع، فجلست تأكل.

«جو» كان هناك، عادة في ذلك الوقت ما يكون قد أوى لغرفته. لكنه تلكأ.

سأل «بالوما»: هل قضيت يومًا طيبًا؟

كان فمها مليئًا بالطعام، فلم تجب على الفور.

عاد يقول: بالنسبة لي كان يومي ناجحًا.

علقت «ميراندا»: جميل.

أرادت تغطية أن «بالوما» لم تجب. كانت مصرة على أن يعم الوفاق والأدب علاقاتهم، حتى لو اضطرت إلى اختلاقها والإبقاء عليها بنفسها.

- عدة أيام أخرى مثل اليوم، ويتوافر لي المال اللازم للدراسة.

قالت «ميراندا»: أنت أيضًا ستتركني.

امتعضت «بالوما» للإيحاء في صوت أمها.

- أيضًا؟ أبي لم يتركك؟

- لم يتركني؟ أين هو إذن؟

- لم يمض عنا برغبته.

قالت «ميراندا»: لو أنه عاش حياة طبيعية كإنسان طبيعي لكان هنا اليوم.

دهشت «بالوما» للمرارة في صوتها، لكن «ميراندا» نظرت إليها تستحثها على فهم الدرس.

قال «جو»: لسنا نعرف. لكني أريد حياة طبيعية لنفسي.

- في «جراج قذر بمدينة «نيو مكسيكو»؟

تجاهل «جو» ملحوظة أمه، فقال «لبالوما»:

- أظن أن والدي أراد لي حياة طبيعية، ألا تعتقدين؟

نظرت «بالوما» نحوه ولم تقل شيئًا.

ابتسم «جو»: أحيانًا ما أعتقد أنه هو وراء اكتشافي للجبل، وأظنه هو الذي قادني إلى هناك.

أطبقت «بالوما» فمها وظلت صامتة.

اتجه «جو» بحديثه إلى «ميراندا» هذه المرة:

- إن جبل أبي غني جدًّا بالأسماك. وعندما أنتهي منه يكون قد درّ عليَّ من المال ما يكفينا جميعًا. لن يصبح لدينا سبب للقلق على المال مرة أ خرى.

ثم تحول إلى «بالوما»: «فيجو» يقول دائمًا إن البحر موجود

لخدمة البشر. وأعرف أن أبي كان على نفس الرأي. نعم، تركته لنا هي الجبل، وسأتأكد من تنفيذ وصيته.

عندها كانت «بالوما» في حاجة لكل قدرتها لتظل هادئة. ألهب غضبها أن يستدعي «جو» روح أبيها لكي يبرر تخريبه للجبل. إلا أنها وعت محاولته لإثارتها واستدراجها لجدل لا بد أن تكون هي الخاسرة فيه -إن عارضته- بدت أنانية قصيرة النظر، ولا تهتم بصالح «ميراندا».

لذا شغلت نفسها بطعامها صامتة، إلى أن تثاءب «جو» وتمطى، وترك البيت إلى غرفته.

استعدت «بالوما» للنوم، وهي تشعر بنظرات «ميراندا» القلقة نحوها. لقد لمست الأم غضب ابنتها المكبوت في صمتها، وتنبهت أن عدم استجابتها أشد خطرًا مما لو دخلت جدلًا ملتهبًا. وأدركت أن شيئًا يجري في الخفاء لا تدري كنهه، ما كانت «بالوما» نفسها تعرفه حينذاك.

* * *

- ١٢ -

وقفت «بالوما» فوق التل تتابع «جو» ورفيقيه وهم يعدون القارب للبحر. مرة أخرى انتظروا رحيل الآخرين، فاتضح تصميمهم على إبقاء موقع الجبل سرًّا بعد أن عرفوا قيمة ثرواته.

توقعت «بالوما» أن يكون الصيادون قد تساءلوا عن الحصيلة الهائلة التي عاد بها أخوها ورفيقيه بالأمس. لا ريب أنهم تلعثموا أن تجنبوا الإجابة أو كذبوا كذبًا مباشرًا. ورحلوا اليوم في اتجاه مخالف، فلم يغيروا اتجاههم نحو جبل الماء إلا بعد التأكد من أن أحدًا لا يراقبهم أو يتعقبهم.

عادت «بالوما» إلى البيت، وتظاهرت بأداء بعض الأعمال لفترة. لم يساورها قلق حول سلبيتها في مواجهة الموقف، فلم تكن قد حددت خطة ما، أو إجراء تلتزم به.

لم تعرف سببًا لعودتها إلى المنزل. لكن عودتها تستوي مع أي عمل آخر، طالما كان بعيدًا عما يشغلها حقيقة.

كانت هائمة، تقضي يومها كيفما اتفق، تاركة لساعاته أن تمضي بها. كانت كأنها تطل على نفسها من خارجها باهتمام مستقل، إطلالتها

على إنسان غريب عنها. وما كانت لتقنع بتوجيه خارجي أو ترضى به، ولم يعد يملأ ذهنها سوى قناعة ذاتية لا تستند إلى منطق. ما هو مقدر الحدوث لا بد أن يحدث.

رمقتها «ميراندا» بعصبية بين الحين والآخر، لكن دون تعليق. واقترحت أعمالًا لكلتيهما، تحريك ذلك السرير لتنظيف مكانه، أخذ تلك الحصيرة للخارج ونفض الأتربة عنها، ووافقت «بالوما» فورًا وعملت بجد. غير أنها لم تكن هناك بروحها.

وحوالي منتصف النهار أعلنت «بالوما» أنها خارجة للنزهة. لم يكن لها اتجاه محدد، لكن مع اقترابها للربوة المطلة على الرصيف، أحست بنداء البحر قويًّا لا تملك له مقاومة.

توجهت إلى الرصيف وأخرجت قاربها من تحته، وتأكدت من وجود السكين والزعنفتين والقناع وأنبوبة التنفس، وأن الرقعة قد رسخت مكانها تسد الفجوة بالقاع. قفزت إلى القارب، ومضت تجدف نحو البحر.

رأت ظهورهم وهي تقترب، منهمكين في إعداد الشبكة لنشرها في مواجهة تيار المد حتى تنتفخ وتغوص قوسًا واسعًا وعميقًا. وعندما تستقر الشبكة على العمق المطلوب، تربط الأحبال المتصلة بأطرافها إلى جانبي القارب للإبقاء على تقوسها على شكل كرة، تتجمع داخلها الأسراب القادمة مع التيار المواجه للشبكة.

كان قاربهم مرتفعًا فوق سطح الماء، أي أنهم لم يجنوا بعد حصيلة طرح الشبكة. ربما كانت تلك أول مرة هم بصدد طرحها، أو

أنهم انتظروا تجمعات الأسماك الكبيرة. وعلى أي حال، فإن طرحًا واحدًا كفيل بملء القارب عن آخره، يعودون بعده أكثر مالًا وأشد جشعًا. طالما أن حصيلة طرح واحد تدر ذلك المال الوفير، فكيف بطرحين أو ثلاثة! من المؤكد أن ذلك من شأنه مضاعفة الربح مرات ومرات. ربما رأوا الأجدر أن يعودوا في الغد قاطرين خلفهم قاربًا ثانيًا، أو اثنين. عندئذ يتعذر الاحتفاظ بالسر، وسرعان ما يهرع أسطول الصيد كله إلى هناك.

لم يروها، ولم يسمعوها تقترب. كانت راكعة على ركبتيها في مواجهة التيار، تعدل من مسارها بضربات مجداف لينة، وتراقب. لو أنهم استداروا وسألوها عما تفعله لما استطاعت أن تجد ردًّا. كانت هناك، هذا كل ما في الأمر.

وفعلًا استدار «أنديو» مصادفة، ولكن «جو» بمرفقه ليستدير هو الآخر يرمقها بعينين ضيقتين.

ظلا يتبادلان نظرة طويلة، ثم استدار «جو» إلى شبكته وقال بطريقة عرضية من فوق كتفه:

– ما الذي أتى بك؟

لم تجب، وظلت حيث هي على بضع عشرات الأمتار منهم تنظر إلى ظهورهم. تظاهر «جو» بالانهماك في عمله، لكن رفيقاه لاحا مشتتين وقد صدف وجودهما انتباههما. تبادل ثلاثتهم كلمات غير واضحة وهم يدلون بالشبكة. ومع أن «بالوما» لم تميز ماذا قال أي منهم، إلا أنها توصلت بداهة لروح الحديث.

- ماذا تظنها تريد؟

- هل تحسبها قادرة على فعل شيء؟

- لن تجرؤ.

- الأفضل لها ألا تتدخل.

- لست مطمئنًا لوجودها.

- اصمت.

- بالنسبة للشبكة، لقد وعدناها.

- انس ذلك. لقد هُزمت ونال اليأس منها.

- إذن ماذا....؟

التقط «جو» حفنة من الأمعاء العفنة من حوض في مؤخر القارب.

قال: قلت لك أن تنسى. والآن انظر ماذا يحدث.

طوح ذراعه وألقى بما في يده نحو «بالوما»، فسقطت حفنة الأمعاء قبل قاربها ببضع أقدام، وفي الحال انشق البحر عن أسماك تلتهمها عن آخرها.

لم تفعل «بالوما» شيئًا، ولم تنبس بكلمة، بل ولم يبد أنها لاحظت ما حدث.

قال «جو» لرفيقيه: أرأيتما؟ لن تفعل شيئًا. لقد كلمتها، وهي الآن تفهم الأمور على حقيقتها. لينظر أحدكما خلال الصندوق وليقل لي ما إذا كانت الأسماك حيث هي.

وضع «مانولو» الدلو على سطح الماء ونظر من خلال قاعه الزجاجي.

– ما زالت حيث هي. لم تتحرك، يا إلهي! انظر إليها، لن يستوعب القارب كل تلك الأسماك.

– إذن ما يزيد على القارب نقطره خلفنا في الشبكة، الأفضل أن نحضر معنا في الغد ماعونًا. هذا يفوق توقعاتنا بكثير.

ورغم أن «جو» لم ينظر نحوها خلال حديثه، فإنها أدركت سخريته منها في حديثه. لكنها ظلت على حالها لا تنطق ولا تفعل شيئًا. لو أغضبهم صمتها لتحقق لها ما أرادت، فضلًا عن أن كلامها يجرد وجودها من عنصر الغموض. وربما إذا سيطر عليهم غضب جارف، يرتكبون خطأ تضيع معه الشبكة، أو يتأرجح القارب حتى ينكفئ.

بيد أنها وعت ما تفكر فيه لا يتجاوز أفكارًا حالمة وأمانٍ كسولة وآمال دون أمل.

الشبكة مطروحة، وهم حريصون على ألا تشتبك بشيء وإلا تعقدت كتلة واحدة ملتفة.

وعندما غاصت كلها إلى الماء تركوها لعدة دقائق، قبل أن يرفعوها. أعطيت الفرصة الكافية لأسراب السمك أن تتجه إلى الفخ.

ثم أحست «بالوما» بلمسة ضغط خفيف على قدميها إلى أعلى نحو ركبتيها، زيادة مفاجئة في ضغط الماء رفعت قاربها بوصة واحدة

-لا أكثر- وعاد يستقر. ربما تموجات الماء من أثر قارب مر بعيدًا! لكن ما من قوارب مرت على مسافة حولها. ربما موجة ضغط عقب تقلب حيوان بحري، لكن ما من حيوان تحرك في الجوار. ربما بصمة موجة طويلة قادمة من بعيد. لكنها كانت لترى تلك الموجة وهي تتحرك على السطح، كما أن الموجة من شأنها أن ترفع قارب «جو» أيضًا، قاربها وحده تحرك.

لا ريب إذن أن الضغط تغير بسبب عامل مر تحت قاربها مباشرة.

أحنت رأسها تنظر للماء، ثم جدفت إلى الخلف لترى الماء تحتها من زاوية أفضل. الماء كله لاح داكنًا، ولم يكن ثمة ما يدعو للدهشة إلى أن لاحظت الماء على مسافة قريبة كان طبيعيًّا في زرقته.

على الفور أدركت ما خدع بصرها، وابتسمت في داخلها. لقد عادت الحدأة، كانت مستقرة تحت سطح الماء ببضع ياردات، ومساحة ظهرها الأسود من القرب بحيث بدت ممتدة إلى بعيد.

ثم لامت نفسها في صمت. ما من سبب للاعتقاد بأنها نفس الحدأة، فهناك الكثير من الحدآت حول جبل الماء، ولا بد أن قاربها صادف إحداها. ربما رأت الحدأة ظل القارب، فتحركت نحوه تستظل به. الحدآت التي تصعد قريبًا من السطح في يوم مشمس، غالبًا ما تأوي تحت سفينة أو رصيف. فأشعة الشمس المباشرة تضايقها، فتلجأ إلى ذلك التصرف الحيواني البسيط تلقائيًّا. وما من فضل «لبالوما» فيما لجأ إليه حيوان من أن يستظل تحت قاربها.

أرادت التيقن، فألقت بالمخطاف في الماء، وتركت حبله ينساب

من القارب. ثم وضعت القناع على وجهها وأطلت من واجهته الزجاجية في الماء.

كلا، هي ليست نفس الحدأة، ما من جراح بها ولا احتقان ولا لحم ممزق.

لكن هناك شيء غريب حول قرنها الأيسر، انبعاج وندوب كأنها جراح قديمة. هل يمكن أن توجد حدأتان ضخمتان على نفس الجبل بنفس الإصابة في ذات المكان؟

لم تظن بإمكان ذلك، فقررت النزول للتأكد.

كانت ظهور الصيادين لا تزال نحوها، منهمكين في الشبكة، فلم يلمحوا انزلاقها إلى الماء واختفائها.

بعد فترة استقرت الشبكة على العمق المحدد، استدار أحدهم، ولكن «جو» مشيرًا إلى القارب الفارغ.

لم يزد «جو» عن قوله: أعطني الصندوق الزجاجي.

بمجرد هبوط «بالوما» تحت الماء أيقنت أنها نفس الحدأة دون أثر من الشك. بدت الجراح قديمة، ونما اللحم مستويًا. وشعرت بفخر لتلك النتيجة، فهي التي استأصلت اللحم المهلهل وضمت الجرح محكمًا. كل ما بقي من الجرح ندبة وانبعاجًا خلف القرن، وغضون من أثر الحبال التي حفرت في اللحم. ما من دماء، وما من إفرازات.

ربتت على منطقة الإصابة، فرأت أن المادة المخاطية قد غطتها مثل بقية الجسد.

ظلت الحدأة ساكنة تمامًا ويد «بالوما» تتفحص القرن المصاب. وعلى النقيض من كل ما عرفته وكل ما ساقه «جوبيم» من منطق، بدأت تعتقد بأن الحدأة عادت كما يعود مريض لاستشارة طبيبه، وترى «بالوما» إلى مدى نجح علاجها. كانت تعلم أنه تفسير غبي ومستحيل، فضلًا عن كونه غير جدير بمن يحمل احترامًا للبحر، إلا أنها -رغم كل شيء- تسلل إلى وعيها كواقع تتلمسه.

أطلق جسدها أول إنذاراته المألوفة، فكرهت تلك العلامة وكادت تتمرد عليها، كأنها سمكة ترفض الصعود إلى الهواء. لكن الإنذارات التالية أجبرتها على ترك الحدأة.

نظرت تحتها وهي في طريقها إلى أعلى، يحدوها الأمل بأن تلزم الحدأة مكانها لحين عودتها. ولأنها لم تتطلع إلى أعلى، فلم تر أن «جو» قد حرك قاربه حتى كاد يلامس قاربها. لذا فإنها أخذت عدة أنفاس ونظفت قناعها قبل أن تحس بوجود القارب الآخر قريبًا، وترى «جو» في مقدمته قابضًا على رمحه.

صاح «جو» محتدًّا: أحضري الحدأة للسطح.

- ماذا؟

- أحضري سمكة الشيطان للسطح.

- ماذا تقول؟ ليس بمقدوري.

- بل بمقدورك. افعلي ما شئت ولكن أحضريها.

- لا يمكنني. وحتى لو أردت، لماذا؟

- لا بد أنها تزن طنين. ربح هائل.

- ربح؟ الحدأة؟

- عملة فضية لكل وزن مائة. طعام القطط.

ظنت «بالوما» أنه يقصد مجرد المشاكسة، والسخرية منها لتسلية أصدقائه.

- وكيف تعود بها؟

- نقطرها خلفنا. سترين.

- أنت مجنون!

قال «جو» بحزم: والآن أحضريها.

ورفع الرمح فوق رأسه، ليس تهديدًا «لبالوما» أو للحدأة، بقدر ما فيها من تحد.

أحست «بالوما» في ساقيها بتغير ضغط الماء تحتها، فنظرت من خلال قناعها لترى الحدأة تثني جناحيها استعدادًا للتحرك. سيطر عليها خوف عميق، فالحدأة على وشك الصعود من تلقاء نفسها. ولو طفت على أي مقربة من «جو» -كما تفعل الحدآت أحيانًا بدافع الفضول أو بغرض اللعب- فالمؤكد أنه لن يتردد في إغماد الرمح فيها. ولن يكون «لبالوما» ما تفعله لمساعدتها.

نصل الرمح له مفصل يجعله موجهًا للأمام خلال الإلقاء والغوص في اللحم، فيظل مستويًا مع قصبة الرمح نفسه. وبمجرد أن يشرع قاذف الرمح في شد الحبل المربوط به، يتحرك النصل إلى وضع عرضي، فلا

يصبح ثمة مخرج للنصل على الإطلاق. وكلما زاد الشد زاد النصل إحكامًا في اللحم. ولن تعرف الحدأة ما حدث أبدًا حتى تجد نفسها مشدودة إلى القارب.

تصعد الحدأة إلى السطح غير مدركة للخطر. وتشعر فجأة بوخزة ألم فتحاول الهرب. ويطيل «جو» لها الحبل ويترك لها فرصة الابتعاد، لكنه قابض على الحبل بالقدر الذي يفتح النصل فيؤذي الحدأة ويرهقها وهي تجر القارب خلفها. وبالتدريج يشدد من قبضته على الحبل حتى يمنع انسيابه إلى الماء، وبالتالي يدمي الحدأة فتزداد رهقًا. وكلما تعمقت تحت الماء التهب الألم سوءًا. لذا تنحو الحدأة إلى البقاء قريبًا من السطح.

بعد فترة تتوقف الحدأة عن المقاومة، وتهدأ منهكة قرب السطح. ثم تعود لثورة ذعر مع اقتراب القارب. شيئًا فشيئًا يسحب الحبل، يطيله إن عادت للمقاومة، حتى لا يبقى لها قوة فتسكن كلية، فيقترب حتى يصبح فوقها تمامًا، فيضربها على رأسها بالهراوة حتى يتناثر مخها أو تنشق خياشيمها فتدمي حتى الموت. أو أن يلفها بالحبل ليجرها على ظهرها إلى أن تموت غرقًا.

إذن طفو الحدأة معناه موتها قبل انتصاف النهار.

بسرعة تزودت «بالوما» بأكثر من كفايتها من الهواء. ظن «جو» أنها استجابت لأمره، فطلب من «مانولو» أن يتعلق بقدميه كيلا ينزلق إلى الماء، واستعد لطعن الحدأة بمجرد ظهورها على السطح.

غاصت «بالوما» للحدأة التي رفعت جناحيها استعدادًا للتحليق.

مع خفض الجناحين فإن الحدأة ترتفع صعودًا. اندفعت «بالوما» فورًا إلى القرن الأيمن، فلفت ذراعها حوله ودفعته بعنف إلى الأمام. كانت مستعدة حتى لأن تفرض ألمًا على الحدأة -إن لزم ذلك- لتهبط نحو القاع، بعيدًا عن متناول البشر.

توقفت الحدأة عن الصعود، أحنت رأسها لأسفل وجهة اليمين في استجابة تامة لضغط «بالوما»، وشرعتا معًا انحدارًا رشيقًا نحو القاع.

لمحت شيئًا مفاجئًا يشق الماء، فأدارت رأسها لتتبين رمح «جو» مربوطًا إلى حبل يمرق على بُعد قدم من رأسها. لقد ألقى الرمح بثورة عارمة ويأس شديد، فاندفع الرمح ثمانية أقدام في الماء.

دار بخلدها أن لو كان ذراعه أقوى من ذلك لأصابها الرمح هي نفسها. بيد أن رجلًا قويًّا ما كان ليرمي الرمح أساسًا.

تعلق الرمح برهة في الماء، ثم رُفع إلى أعلى.

حررت «بالوما» القرن من قبضتها، فخفت زاوية هبوط الحدأة حتى استوت على عمق اثنتي عشر قدمًا. لكنها ظلت على اندفاعها تبتعد عن القاربين، ثم شرعت في الصعود.

كانت «بالوما» حينئذ في حاجة ماسة لالتقاط الأنفاس، فلم تحاول إيقاف الحدأة عن الصعود، فلو وصلت الحدأة إلى قدمين تحت الماء لتيسر «لبالوما» الاندفاع إلى السطح للتنفس، ثم العودة إلى الحدأة قبل أن تحلق من جديد نحو الأعماق. أرادت أن تبعدها عن القاربين

لأقصى ما أمكنها، وتتركها بعد ذلك للأبد وقد ضمنت لها النجاة. فما كان بوسع «جو» -وشبكته في الماء- أن يسحب مخطافه ويدير الماكينة ويرفع الشبكة، ثم يبدأ المطاردة.

تعلقت بيدها في الشفة العليا للحدأة، وباليد الأخرى في جناحها، بينما ظل ساقاها وقدماها مرتفعين عن ظهر الحدأة التي أخذت تتمايل وتنحدر وتحلق. كانت تغير اتجاهاتها برشاقة بالغة، لكنها حافظت على الاقتراب من السطح. فقدت «بالوما» الإحساس بمكانها لكثرة التغييرات التي مالت لها الحدأة، إلا أنها أيقنت بابتعادها كلية عن القاربين.

ثم اقترب سطح الماء، فتغير اللون حولها من الأزرق الشامل إلى بريق لامع كالزجاج المبتل.

وفجأة رأت جسد «جو» منتصبًا يطل من المقدمة والرمح مشرع في يده فوق رأسه.

لقد أعادتها الحدأة إلى حيث التقطتها. تركت «بالوما» توجهها في دائرة شاسعة لا مركز لها، وغيرت اتجاهها كيفما اتفق. لكن الحدأة اختزنت في ذاكرتها كل تحركاتها إلى أن أعادت «بالوما» إلى حيث تنتمي.

مالت للأمام تحاول القبض على أحد القرون لتدفعها للغوص، لكن الفرصة كانت قد فاتت.

شقت الحدأة الماء، ليس في قفزة، ولكن كما تصعد السلحفاة من

أجل الهواء، وظلت تحلق خافقة جناحيها ملامسة لسطح الماء نحو القاربين، و«بالوما» متعلقة بظهرها.

أطلت «بالوما» من فوق قوس الجناح، لترى «جو» يحملق مشدوهًا نحوها فوق ظهر الوحش، انتفضت يداه واتسعت حدقتاه وأطلق صرخة تلقائية ذاهلة، وتراجع دون وعي غير منتبه لقدميه في قبضتي «مانولو». ثم بدأ يسقط في الوقت الذي حدده لإلقاء الحربة، فرفع ذراعه ليطلقها لكنه سقط على ظهره في القارب، أخذت الحربة مسارًا دائريًّا منحرفًا، ورأتها «بالوما» تسقط في الماء بعقبها، وسمعت «جو» يعوي ألمًا وغضبًا.

مال قرنا الحدأة ثانية، والتقطت «بالوما» أنفاسها قبل أن يغوصا معًا تحت سطح الماء.

مرا تحت القارب، لم تحاول توجيه الحدأة حيث أرادتها أن تبتعد بطريقتها، فلا تتدخل في اتجاهها طالما لا تقترب من القارب. فكرت أن تلقي بنفسها من فوق ظهرها، لكنها صرفت الفكرة وقد أيقنت أن الحدأة ستعود إليها حيث كانت.

استمرت الحدأة في غوصها على خط يكاد يكون رأسيًّا، ولمحت «بالوما» حبلين أمام جناحي الحدأة، عرفت فيهما على الفور حبلي الشبكة التي تتدلى منهما. مرت الحدأة بينهما واستمرت في هبوط مباشر نحو ما ظنته «بالوما» حدبة يلفها الضباب قريبًا من الجبل. ثم عرفتها، الشبكة وقد حاصرت مئات - آلاف الأسماك الثائرة. إن فشلت الحدأة في رؤية الشبكة والانحراف عنها، فلسوف تصطدم بها

وتصاب ثانية، وربما اشتبكت بها «بالوما» أيضًا. ولئن تعقدت الشبكة حولها لأصبح غرقها مؤكدًا. حاولت أن تحرفها بعيدًا عن الشبكة لكنها لم تستجب. كانت مندفعة بأقصى طاقتها وأسرع تحليق نحوها مباشرة.

أدركت «بالوما» أن الحدأة رأت فعلًا الشبكة، وعرفت تمامًا إلى أين اتجهت، ووثقت فيما أقدمت عليه. ووضحت الكرة الهائلة من الحيوانات الأسيرة محددة المعالم دون غشاوة، عيونها البائسة تملؤها حيوية مضطربة وذعر مكدس في حيز الشبكة.

وباندفاعة أخيرة من جناحيها الهائلين اقتحمت الشبكة.

وقف الصيادون الثلاثة في القارب ينتظرون طفو الحدأة. مسحوا البحر بحثًا عن وشاية من فقاقيع أو دوامات صغيرة. في المقدم انتظر «أنديو» بيديه على حبل المخطاف استعدادًا لرفعه.

وفي المؤخرة ظلت يدا «مانولو» على حبل تشغيل الماكينة. بإمكانهم ترك الشبكة خلفهم على عواماتها إذا لزم ولفترة محددة. ومن المؤكد أنهم إذا أطلقوا الرمح على الحدأة فسيلزمهم التخلص مؤقتًا من الشبكة ولحين السيطرة على الحدأة.

وانتظر «جو» في المنتصف، والرمح مرفوع عاليًا في يده.

- أين هما الآن؟

- ليس بوسعها البقاء تحت الماء أكثر من ذلك.

- كيف تعرف؟

- لا أحد يعرف.

- ماذا تعني بذلك؟

- مجرد أني لا أعرف.

سببت رنة الخوف في صوتهما ضيقًا «لجو».

- طالما لا تعرف فاقفل فمك. كل ما في الأمر أن رئتيها كبيرتان.

- وتركب سمكة الشيطان في الأعماق، هذا كل ما في الأمر!

- قلت لك اصمت.

لم يستغرق الحديث أكثر من بضع ثوان، لاحظ «أنديو» خلالها أن حبل المخطاف مشدود ومتوتر.

ثم لاحظ الجميع أن الحبلين الحاملين للشبكة مشدودان ويقطران ماءً كلما ارتعشا.

صاح جو: يا إله السماوات!!

كانت تلك العبارة الوحيدة ذات معنى فاه بها، بعدها لم يعد هناك سوى صراخ وتصايح وعواء طلبًا للنجدة. لقد ظلت الحدأة على اندفاعها وسط كتلة الأسماك، حتى وجدت «بالوما» نفسها محشورة وسطها. كانت الأسماك تحت ذراعيها وداخل ثوبها وبين ساقيها، بل وترفرف خلال شعرها المنساب خلفها.

أسماك تتلوى وتتخلل وترتجف، وماء يغلي ويتعكر. لكن ذلك ما جعل من فارق بالنسبة «لبالوما»، فلم تكن لترى أبعد من بوصتين أمامها حتى ولو كان الماء صافيًا. كل شيء حولها أصبح سمكًا.

ومن طيات ذهنها انبعث الإنذار، لكن هاتفًا في رأسها أعلنها ألا جدوى من إطاعة الإنذار، فما عاد متاحًا لها بلوغ السطح في وقت مناسب.

ظلت الحدأة مندفعة، جناحاها الهائلان يخفقان كالمضخة صعودًا وهبوطًا، وقرناها تتخللان الشبكة، ورأسها يضغط بشدة. صمدت الشبكة وتوترت، فخففت الحدأة من ضغطها لبرهة.

على السطح أحس الصيادون الهلعون بقاربهم يتحرك. انتزع المخطاف نفسه من مرساه، وأخذ يجر على القاع، ثم انساق القارب والمخطاف خلال الماء، تجرهما قوة لا يدركونها فتدفع الشبكة أمامًا وهبوطًا. ولأن القوة اتجهت لأسفل، فقد انخفض القارب وبدأ الماء يندفع إليه. لم يكن أمامهم سوى نزح الماء، النزح بهياج مجنون قبل غرق القارب.

ثم انفجرت الشبكة، لم تصمد لضغط الحدأة فانفجرت، من مركزها في البداية، فانسابت الأسماك من الفتحة كالشحم من أنبوبة. لكن الحدأة لم تمر هي الأخرى، بل ظلت محلقة تشد الحبلين المتصلين بالقارب. قطع أحد الحبلين فالتفت الشبكة والتوت وانفرجت أطرافها، وتحررت الحدأة، اندفعت إلى السطح «ببالوما» فوق ظهرها.

تخلخل توازن الشد بين الحبلين، الشيء الوحيد الذي كان يحفظ للقارب توازنه على السطح.

لم يشعر ثلاثتهم بالتغيير على الفور، فالأحبال طويلة واستغرق

الضغط وقتًا لينتقل. وعندما وصل التغيير كان ضربة مفاجئة دون مقدمات. انقصف الحبل الذي كان مثبتًا بالمقدمة، فقفزت المقدمة فوق الماء ودارت. كان «أنديو» منحنيًا على مقعد المجداف، فوجد نفسه طائرًا في الهواء -على نفس الانحناءة- والقارب يندفع من تحته مبتعدًا، سقط على ظهره في الماء، فغاص حتى أعادته ضربات ذراعيه إلى السطح.

أما «مانولو»، فقد رأى المقدمة تطير إلى أعلى، فمد يده ليستند إلى الماكينة، لكن المؤخرة كانت غائرة في الماء، لذا فلم يجد الماكينة حيث أراد الاستناد إليها، وانحدر يتقلب في الماء، ثم طفا يلفظ رذاذًا والقارب يبتعد عنه.

أصبح «جو» وحيدًا في القارب راكعًا على ركبتيه، تغطيه الدماء والرضوض، ويرقب البحر بعينين يطل منهما الرعب ويتساءل ماذا ينتظر بعد ذلك من عالم المجهول تحته؟

ظلت الحدأة تحلق نحو السطح، يدفع جناحاها دوامات تدور فيها الأسماك والرمال تحتها، وتطلق الماء يغلي. تعلقت «بالوما» بالشفة العليا والجناح، وهي ترى ضوء الشمس بصيصًا سحيق البُعد، وقدرت أن أملها قد ولى. كل الإنذارات داخلها انطلقت بأقصاها، الدق في رأسها كالرعد، والألم في صدرها حارق، وترمق عيناها الضوء البعيد كنقطة تتمدد وتتقلص، تتمدد وتتقلص، بينما الوعي ينسل منها مفسحًا المجال لظلمة الإغماء.

طارت الحدأة مباشرة إلى السطح، هذه المرة لم تنحدر بزاوية

انزلاق خلال الماء، ولكن صعودًا رأسيًّا تشق الماء في آخره لتطير مرة في الهواء. ظلت تقترب، ووعي «بالوما» يشحب، حتى أصبح الهواء على مبعدة ياردات، ثم أقدام، أي جزء من الثانية، في اندفاع الحيوان الهائل نحو الشمس، وقبل أن ينطفئ آخر قبس من الوعي وتفقد كل الإدراك، استرخت عضلاتها -حتى تلك التي تعلقت بها إلى الحدأة- ومن ثم انزلقت تتهاوى في الماء.

ثم انفجر السطح الشاسع -ظهر الحدأة الأسود- يشق الماء ويرتفع عاليًا في الهواء.

ارتفعت الحدأة فوق «جو» المنكمش رعبًا، وظلت ترتفع أعلى وأعلى حتى حجبت الشمس وألقت ظلها على القارب، والماء ينساب من طرفي حناحيها يتألق كالهالة في الضوء.

ظن «جو» أن مخلوقًا من جهنم أطبق به، فتحركت شفتاه بصلاة لا إرادية. لكن حنجرته أطلقت صوتًا متشنجًا، ورفع ذراعيه فوق رأسه يدرأ عنها المصير الرهيب.

بلغت الحدأة ذروة ارتفاعها، وتعلقت في الهواء برهة في جلال وسمو على صفحة سماء متألقة، ثم شرع رأسها وكتفاها الأثقل انحدارًا، ولزم الذيل مكانه لحظة، ثم هبط العملاق بطيئًا رشيقًا.

رأى «جو» دنو أجله، فصرخ رهبة الموت وسقط في الماء، وضرب بذراعيه وهو يغوص.

حتى من خلال بضعة أقدام تحت الماء، ما استطاع أن يصم سمعه

عن الضجة -الارتطام الساحق لأطنان الغضاريف والأعصاب تهوي فوق القارب ليتفسخ إلى حطام وأشلاء.

انفصلت عارضة المؤخر والماكينة المثبتة بها فغرقا بثقلهما. وأحيل باقي البدن -مع الطرقة الفجائية الرهيبة- إلى أشلاء وشظايا تطايرت عاليًا، ثم سقطت كالمطر على «جو» و«بالوما».

كانت «بالوما» طافية على ظهرها -غائبة عن الوعي- على بعد عدة ياردات من قاربها.

لم تتوقف الحدأة، ولم يبد أنها أصيبت بضرر من جراء الاصطدام، بل إنها ضغطت ما تبقى من حطام القارب إلى تحت الماء، واستمرت في الهبوط والابتعاد، ثم اعتدلت وارتجفت. ومضت مسرعة تحلق نحو ضوء الشمس.

أفاقت «بالوما» على صوت تداخل الأمواج التي سببتها الحدأة، وارتطام تلك الأمواج إلى جانب القارب، عجزت -لبرهة- عن استيعاب ما حدث حولها، ثم تعلقت بقاربها طلبًا للأمان.

كان البحر أمامها خاليًا، أما من خلفها -مع التيار الغربي- فلم تر سوى انعكاس ضوء الشمس على الماء. سمعت ضجيجًا، ربما أصواتًا آدمية، لم تفهم منها شيئًا.

ربما حسبت الضجيج صادرًا عن عقلها المشوش المضطرب.

* * *

- ١٣ -

لمست قدماها القاع، إفريزًا صخريًّا زلقًا إلى جانب الجزيرة. لم تدرك كيف وصلت إلى ذلك المكان، إلا أنها شعرت بالسعادة لعودتها إلى موطنها.

القاع! هزت رأسها بشدة لتستجمع أفكارها. ونظرت إلى القارب، وإلى الأفق، وإلى أمواج البحر تتتابع وتتداخل هادئة.

كانت تعلم أن العمق تحتها لا يقل عن عشر قامات، ربما عشرين. إذن ما الذي تقف عليه؟ لا شك أنها كانت واقفة على شيء ما. أفرغت قناعها من الماء وأطلت تحت السطح.

وجدت الحدأة تحتها، لا ريب أنها وصلت تحتها وارتفعت كالبالون حتى توقفت تمامًا عند قدميها.

هل تريد الحدأة شيئًا؟ هل أصيبت من جديد؟

أخذت «بالوما» نفسًا عميقًا، وركعت على ظهر الحدأة، بدأت الحدأة في الحركة البطيئة.

وقفت «بالوما» على قدميها. توقفت الحدأة.

ركعت، فعادت تتحرك، وقفت، فسكنت الحدأة.

ما لها تتصرف على هذا النحو؟ مثل الكلب الذي ينتظر شيئًا من صاحبه.

لكن ذلك مستحيل، فليس للحيوانات الدنيا غرائز راقية. و«بالوما» عازفة عن افتراض خواص «أرقى» لدوافع الحدأة.

على أي حال عليها الاستجابة بصورة ما، حتى ولو لمجرد الاستجابة.

لذا صرفت «بالوما» عن ذهنها كل ما اعتقدته وكل ما ناقض معتقداتها، وتوقفت عن التفكير.

ملأت رئتيها بما يزيد على كفايتها، وركعت على ظهر الحدأة وأطبقت بيديها.

هذه المرة لم تبدأ الحدأة بطيئة، بل اندفعت فورًا نحو الأعماق. خلال لحظات ظهرت قمة الجبل واضحة. توقعت أن تبطئ الحدأة، أو أن تستوي أفقية، لكنها لم تفعل.

وعندما اقتربت من صخور القمة، مالت مثل طائرة مقاتلة توشك أن تنقض، ومضت تنحدر إلى جانب الصخرة القائمة كالحائط، نحو الضباب الأزرق.

طنت أذنا «بالوما»، فلم يسبق لها الهبوط بتلك السرعة أو لذلك المدى. ورغم كفاية الأكسجين في رئتيها، فإن غرابة الضغوط الجديدة في الأعماق الباردة، جعلت نبضها يسرع.

أرادت أن تتركها لكنها لم تجرؤ، لم يعد لديها شك في عدم إمكانها الصعود بمفردها للسطح أيًّا كانت مسافته.

وعلى حافة الظلام، حيث لم يعد هناك وجود للألوان، ولا تمييز للأحمر والأخضر والأصفر، وحيث ظهر الأزرق بنفسجيًّا والبنفسجي أسود، استوت الحدأة فجأة، وانحرفت بحدة إلى اليسار، ودخلت ممرًّا في حائط الجبل البحري.

أبطأت، ثم توقفت. وبقيت معلقة في الماء فوق قاع رملي، يكاد جناحاها يلامسا جانبي الممر الصخري. ونظرت «بالوما» فوقها فلم تر السطح، لا شمس ولا أعمدة ضوء، مجرد إضاءة مبهمة رمادية كالماء. سرت رعدة خوف في صدرها، خوف مَنْ يطل من ارتفاع شاهق، فخفضت بصرها، وعزمت على ألا تعود للنظر، فلم تعد ثمة جدوى.

إما أن تصعد مع الحدأة، وإما لا صعود على الإطلاق.

ما هذا المكان؟ لماذا حضرت الحدأة إلى هنا؟

ربما أحد ملاجئ الحدآت البحرية، فهو عميق وبارد وبعيد عن الشمس والسطح، تستره حوائط الممر الصخري، مثل أي صخور أخرى فيما عدا...

شيء غريب عن تلك الصخور. لاحت كأنما تبرز منها أعدادًا لا تحصى من الحجارة الصغيرة.

أرادت أن تقترب، أن ترى عن كثب ذلك المكان، فما كان بوسعها

أبدًا الغوص إليه وحدها.

نهضت عن الحدأة وهي تدعو الله ألا تهجرها فجأة وتنطلق لحالها.

مدت يدًا تتلمس الأحجار، فعرفت -حتى قبل لمسها- أنها ليست أحجارًا، بل محارات لم يكن تمييزها سهلًا من البداية، فهي أكبر من أي محار رأته من قبل. ولأنها بعيدة عن متناول الصيادين، فقد أتيحت لها فرصة النضج الكامل. ولأنها في حمى الممر، بعيدًا عن كسح التيارات، فقد غطتها نباتات حية.

على الفور مدت يدها لتستل سكينها من حزامها، لكنها لم تكن معها، لم تتوقف لتتساءل، ولم تعاود البحث عنها، أطبقت بيديها على محارة ولفتها وشدتها حتى حررتها من السطح الصخري، خدشت أناملها وسال الدم من جراح صغيرة، لكنها لم تعبأ بالألم. وبكلتا يديها مضت تلف وتشد وتستخلص محارات تختزنها في ثوبها، فتسقطها داخله حتى الحزام. وعندما امتلأت واجهة الثوب وضعت مزيدًا من المحارات حول جانبيها وظهرها، دون أن تشعر بالأصداف الحادة تخدش جلدها.

وأخيرًا سقطت عن الحائط تحن إلى الهواء، وقد امتلأت بأكثر من دجاجة شواء محشوة. استقرت على ظهر الحدأة، ولو أنها كانت حصانًا لنخستها لتنطلق. لقد باتت في أشد الحاجة للذهاب إلى اتجاه واحد، إلى أعلى.

ارتفعت بها الحدأة سريعة، تحلق برشاقة طائر يبغي السماء.

وسرعان ما رأت ضوء الشمس يخترق اللون الأزرق. وفي اللحظات الأخيرة أبطأت الحدأة حتى لا تتعدى سطح الماء. ووصلت كالحوت إلى السطح، فسكنت وظهرها إلى الهواء، و«بالوما» فوقه بذراعيها مفتوحين لآخرهما تستقبل الهواء، والدماء تلون أصابعها.

لزمت الحدأة مكانها حتى استراحت «بالوما» ثم سبحت إلى قاربها وتسلقته، وأفرغت المحار من ردائها. وظلت ساكنة و«بالوما» راكعة في القارب، تبادلها نظرة صامتة وقورة.

وعندما لامس حد الشمس الحمراء الأفق، نفضت الحدأة جناحيها وخفضت رأسها، ثم ضربت بذيلها في الهواء، وذهبت. تركت خلفها دائرة من الفقاعات تنتشر على مياه الشفق، وسرعان ما تلاشت الدائرة هي الأخرى.

ولوقت طويل -حتى غاصت الشمس وغاصت، ثم أظلمت السماء، وحتى ظهرت النجوم الشاحبة الأولى- ظلت «بالوما» راكعة في القارب، وعيناها تتفحصان بعيدًا بعيدًا في أعماق الظلمة، وتترك للتيار أن يمضي بها حيث شاء.

وبعيدًا في الليل تناهت إلى سمعها أصوات «جو» و«أنديو» و«مانولو». كلمات تبينتها عبر المياه الساكنة مريرة، لا تنقطع، تحمل اتهامات متبادلة.

كانوا في تلك اللحظة متعلقين إلى قطع خشبية من حطام القارب، وقد اجتازوا مرحلة الخوف من الغرق. عليها -فيما بعد- أن تأتي إليهم بقارب آلي لانتشالهم.

أيقنت أن ذلك اليوم هو نهاية علاقتهم بالجبل البحري.

والحدأة لن تعود، هي واثقة من ذلك دون أن تعرف سببًا لثقتها. ربما أوحت لها بذلك «الخاصية» التي تملكها. راودها شعور بأن الطبيعة ربما شاءت أن تستعيد التوازن الذي كاد يختل. وفي سبيل ذلك استخدمت الحدأة، وربما «بالوما» أيضًا.

والآن وقد عاد التوازن، تركت الحدأة لتطير حرة كما كانت.

ولكن.. ماذا تعني بالطبيعة؟ ماذا...

توقفت عن التفكير، ورنت إلى بقعة السماء التي سرعان ما يبزغ منها القمر، ويرتفع معلقًا كتعويذة، ثم يلقي بممر فضي على الماء.

وابتسمت وقالت بصوت مرتفع: شكرًا... شكرًا لك.

تمت